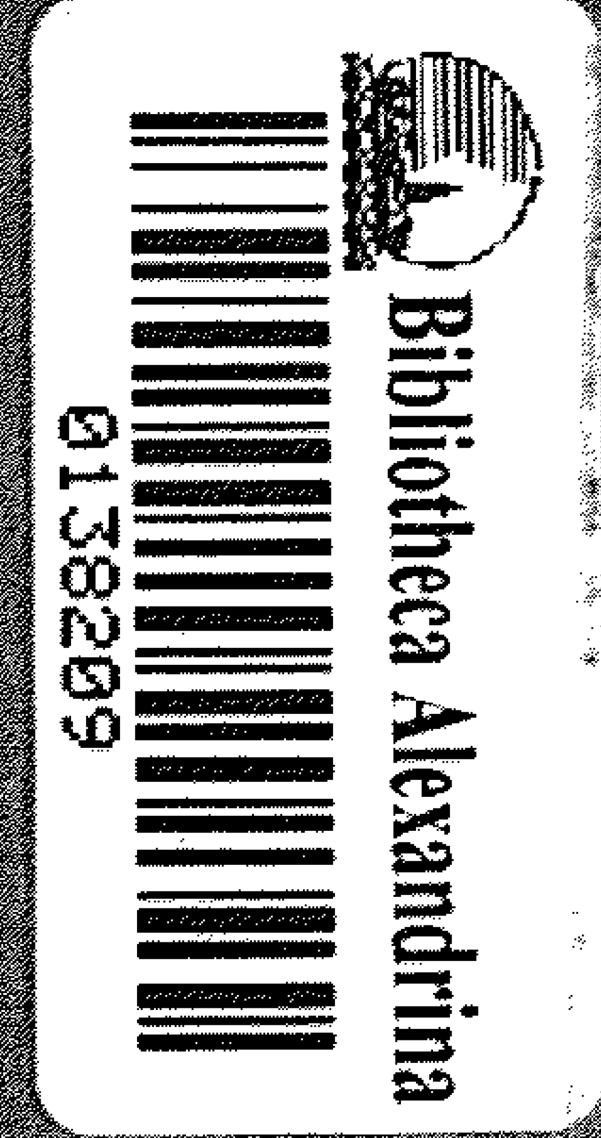
آلان غيران

رجالات السي آي اي

C.I.A.

ترجمة :
جورج عبدو





جواسيس تحكّموا بالعالم



رجالات السي آي اي
C.I.A.

آلان غيران

رجالات السي آي اي
C.I.A.

ترجمة : جورج عبدو

دار المروج
١٩٩٠

دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ١٩٩٠

مقدمة

«NID» صحيفة يومية سرية جداً - هذه الأحرف ممنوع لفظها - «المؤسسة الدائمة» للـ «تصدي الكبير» - دماغ الشرطي، الشرطي العالمي الذي يراقب ما يقال في العالم بأسره...» - «كومنترن اليمين»؟ - اهمية الرجال - فيتنام، ووترغيت والقدامى - ٦٩٣ صفحة من «مجوهرات العائلة».

أصغر صحيفة في العالم بالنسبة لعدد النسخ والتوزيع، مع أن هيئة تحريرها من أكبر هيئات التحرير الصحفية، انها تصدر-يومياً وبانتظام، على مدار أيام السنة، لكن الحصول عليها صعب جداً؛ إسمها (National Intelligence Daily) (أي: صحيفة الاستخبارات القومية اليومية). فيما يلي بعض ما قاله مؤسسها في مذكراته عن نشوئها: «بعد قسم اليمين. قررت أيضاً تنفيذ أحد الإصلاحات الذي كنت قد تقدمت به قبل ٢٠ سنة إلى الن دالس، وبقي دون تنفيذ. جمعت كبار مساعدي وطلبت إليهم دراسة امكانية تقديم مجمل التقارير اليومية لوكالة الاستخبارات المركزية بشكل صحيفة، مما يسهل انتقاء أهم المواضيع، ويطرح أمام القارىء الاختيار بين المطالعة السريعة للعناوين الكبيرة، أو دراسة معمقة للمقالات. فكرتي هذه أقرت بسرعة وبدأ التنفيذ. سرعان ما قمت بحملة استقصاء في السوق». البعض من «زبائننا أعجب كثيراً بالفكرة، البعض الآخر إلى حد ما. أما كيسنجر شخصياً فقد قال يجب أن أشعر أنني حر في اتخاذ كل المبادرات التي أراها مناسبة (واضاف بالتالي، أن هذه الفكرة لم تعجبني بتاتاً، إلاّ أن ذلك لم يكن سبباً لوقف هذه التجربة التي كان لها أنصار عديدون). بعد بضعة أسابيع، صدر العدد الأول من «صحيفة الاستخبارات القومية اليومية»، التي يمكن أن تكون الصحيفة التي لها أصغر عدد من القراء في العالم (زهاء ستين) وأكبر عدد من المحررين والمراسلين (كل الأجهزة في البلاد)، ودون أية دعاية على صفحاتها (لأن مضمونها سري جداً في مجمله). الآن أصبحت على يقين أن الموظفين الرئيسيين في الحكومة بدأوا يطلعون على تقاريرنا حول مجمل المعضلات العالمية الكبرى، أكثر مما كان يحصل في السابق، وهو مجرد أختيار للتقارير التي تعنيهم بصورة خاصة. وتوفرت لي، ومن جهة أخرى، إمكانية وضع ملفات كاملة حول عدد لا يحصى من المسائل، التي أصبح من الممكن معالجتها دون أي إعداد مسبق، أمام هذه اللجنة أو تلك في الكونغرس. لقد أعطيت الأولوية لقضية تقديم معلوماتنا هذه، لأن أفضل المعلومات في العالم لا يمكن أن تعطي أية فائدة تذكر إذا بقيت مكدسة على مكتب الرئيس، دون أن تزيد المعلومات التي يملكها عن الشؤون العالمية. كما أني أعتدت، كلما سنحت لي الفرصة، المشاركة في اجتماعات التحرير التي كانت تعقد كل مساء

امام خارطة جدارية كبيرة، بقصد تحديد المناطق التي كانت تبدو لي أنها بحاجة لتغطية أفضل أو لمعلومات إضافية...

من أجل أن ندرك معنى هذه الأقوال التي سردناها، نقول إن كاتب هذه الأسطر هو وليام أ. كولبي وان القسم الذي أنجزه وتحدث عنه في البداية، حصل في ٥ أيلول عام ١٩٧٣ في واشنطن، بعد أن أصبح مديراً «لوكالة الاستخبارات المركزية» ـ C. I. A ـ وبقي في هذا المنصب حتى تشرين الثاني من عام ١٩٧٥.

إن «صحيفة الاستخبارات القومية اليومية» لم تكن الصحيفة الوحيدة التي تصدرها «الوكالة»، بل كان لها أيضاً مجلتها. وقد جاء في كتاب فكتور مارشتي وجون ن. ماركس كانت: «المجلة الفعلية لوكالة الاستخبارات المركزية تصدر تحت اسم Studies in intelligence (دراسات حول الاستخبارات). وتناولت المقالات التي نشرت فيها خلال السنوات الأخيرة مواضيع تخصصية، النظرية منها والتطبيقية على حد سواء: دراسات حول التصرف الواجب اعتماده في حالة الخضوع لتحقيق من قبل عملاء جهاز مضاد؛ وحول الأسلوب الذي تكتب فيه التقارير حول توقعات الأوضاع، وحول أسلوب اجتياز حدود معادية محكمة الحراسة، في الاتجاهين وسراً. بعد مرحلة الصواريخ الكوبية الحرجة، فتحت المجلة منبراً للرأي حول قضية معرفة إذا ما كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد استطاعت، اكتشاف وجود الصواريخ السوفياتية في كوبا في الوقت المناسب أم لا، وإذا ما كان عملها قد أتاح فعلياً لحكومة الولايات المتحدة اتخاذ التدابير الردعية الفعالة...»

بديهي أن لا تسمح «الوكالة» لأي كان طباعة ونسخ منشوراتها الداخلية. فهي تملك داخل مؤسساتها مطبّعة خاصة.. والغريب في الأمر أن هذه المنظمة تنشر من جهة الصحف، ومن الجهة الأخرى تشدد على أعضائها عدم لفظ اسمها ليس أمام الغريب، فحسب، بل وعندما يتحدثون فيما بينهم أيضاً

ففي رواية عن الإرهاب و«الاجهزة السرية» طلب السينمائي الاسباني غونزلو سواريز من أحد أبطاله القول: «لا يستطيع أحد وقف الماكينة. لا يستطيع أحد ايقافها..». وأضاف معلقاً: «بكل تأكيد كان يلمّح إلى وكالة الاستخبارات المركزية، فلا أحد يذكر، أنه سمع منه: الكلمة السحرية المؤلفة من الأحرف الأولى لأسم هذه المنظمة الشهيرة..».

وعلى هذا النحو، فإن فرنسيس غاري باور، قائد طائرة التجسس «يو ـ ٢» التي أُسقطت بصاروخ فوق أراضي الاتحاد السوفياتي. وأثار سقوطها أزمة عالمية في أيار من سنة ١٩٦٠... روى في كتابه كيفية تجنيده فقال: «خلال كل هذه الأحاديث، حصل مرات عديدة، في البداية على الأقل، أن ذكرت وكالة الاستخبارات المركزية بالاسم، وكل مرة كنت أرى كولين يشير إلي منبهاً. فهو بالذات، شأنه شأن الاخرين، كانوا عندما يلمحون إليها، يستخدمون غالباً كلمة «الحكومة» أو «الوكالة». ومن حيث لا أدري انتهيت إلى نفس العادة... ثم بدأ تدريبي...».

كما أن العضو السابق في الوكالة فيليب إيج، الذي أثارت اعترافاته ضجة كبيرة خلال

السنوات الأخيرة.. قال متحدثاً عن تدريبه: «منذ الزيارة الأولى (...)، شعرت بنوع من الجو العائلي يخيم لدى رجال وكالة الاستخبارات المركزية. هذا يعود في الواقع إلى استخدامهم لنوع من اللغة المرمَّزة خاصة بهم. فلا يتلفظ أحد منهم مثلاً بكلمة وكالة الاستخبارات المركزية، ولا مجرد كلمة «الوكالة»: الجميع يقولون: «الشركة»...»

وكذلك النقيب برادلي إيرل ارس، وهو ضابط في الجيش النظامي الاميركي فصل للعمل لدى وكالة الاستخبارات المركزية، من أجل أن يدرب في ميامي، فدائيين كوبيين معادين لكاسترو بغية القيام بعمليات تخريبية وإرهابية في كوبا... قال في كتابه عن اتصاله برجال أجهزة المخابرات: «كان بوب يطلب منا باستمرار عدم استخدام كلمة «وكالة الاستخبارات المركزية»، وعندما كنا نضطر للحديث عن الوكالة، كان المطلوب أن نستخدم كلمة «الشركة»..

وعلى نفس المنوال. فقادة الطلاب في «ناشيونال ستودينت اسوسيايشن، الذين كشف النقاب في سنة ١٩٦٧ عن أنهم كانوا يتقاضون أموالاً سرية، قال عنهم جيمس مونفيس في كتابه «كانوا يطلقون على وكالة الاستخبارات المركزية اسم «الشركة»...».

إن البروفسور روبرت كوفار هو أحد الحقوقيين النادرين الذين اهتموا بجدية بالمعضلات التي تطرحها، في زمن السلم، أمام القانون الدولي، المخابرات والأعمال السرية، كتب في سنة ١٩٦٨ يقول: «مع ظهور الجيوش النظامية، أصبح التجسس يغطي مجالات واسعة باضطراد من جهة، ومن الجهة الاخرى بدأ يحصل بصورة رئيسية قبل اندلاع النزاع المسلح. إن من أهم الأمور التي ساهمت في تطوير التجسس، تلافي حصول عدوان مفاجىء، والتخوف من حصول اختلال قوي في نسبة القوى، ومتطلبات الردع النووي. فبعد أن كان التجسس يتم نسبياً على مراحل في بداية هذا القرن، تحول اليوم إلى مؤسسة دائمة...».

من الطبيعي إذن أن يكون أفضل تعريف لعمل وكالة الاستخبارات المركزية هو الشمولية والتخصصية.

الشمولية تحدث عنها أحد قدامى العاملين في «الشركة» هاري روزيتزيك، الذي كان أنشط الكوادر في المنظمة بين ميونيخ ونيودلهي لما يزيد عن ربع قرن. يلاحظ القارىء أن روزيتزيك جمع في تعريفه بين أجهزة سرية أميركية أخرى، إذ تحدث عن «عصبة المخابرات» في مجملها؛ وبما أن مدير وكالة الاستخبارات المركزية له سلطة على مجمل هذه «العصبة» فإن أقوال روزيتزيك تأتي صحيحة تماماً على «الوكالة» نفسها، اذ يقول في كتابه «أصبحت عصبة الاستخبارات الأميركية خلال الستينات نوعاً من المكتب المركزي هدفه دعم دور أميركا بوصفها شرطي عالمي (...) نشاطه يدوم ٢٤ ساعة في اليوم و٧ أيام في الأسبوع، هدفه مراقبة ما يقال في العالم بأسره، وسبر تصوير كل بقعة من الكرة الأرضية. كما تقوم عصبة الاستخبارات بتسجيل وترجمة آلاف البرامج من الإذاعات الخارجية، وتطالع زهاء ١٠ آلاف صحيفة ومجلة وتستخلص وتسجل آلاف الأسماء والأمكنة. وتزودها السفارات الأميركية بمئات المذكرات

والأحاديث، وبجداول إحصائية مالية واقتصادية، فضلاً عن التقارير. أما الملحقون العسكريون فيقدمون وصفاً للمعدات، والمنشآت، والمناورات، والجنرالات. وتسجل آلات التصوير المثبّتة على الأقمار الاصطناعية آلاف الصور، يكبر المئات منها بقصد التحليل والتفسير. وتضبط المحطات التقنية ملايين الإشارات الإلكترونية: بحر - أرض، أرض - جو، رادار وضد الرادار، وإطلاق الصواريخ، كما تلتقط ملايين الرسائل العادية والمرمزة...

كان جيمس شليسنجر، في أوج فضيحة ووترغيت، مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية. وقد خلفه ويليام كولبي، الذي وجه تعميماً إلى العاملين في «الشركة» قبل أن يتسلم منصبه، يطلب فيه منهم إطلاعه على كل أمر يمكن أن يثير الجدل في الكونغرس وفي الصحافة. وكما جاء في مذكراته «لقد أصبح مكتب المفتش العام يشبه ملفاً ضخماً يضم ٦٩٣ صفحة هي لائحة بكل نشاطات الوكالة التي كانت تنتهك من قريب أو بعيد أنظمتها الداخلية. على هذا النحو علم المدير ما هو المقصود «بأسرار العائلة».

وفي احاديثهم عن الملفات السرية جداً، والتي كانت فيما بعد مصدراً لجدالات دولية، كان أعضاء وكالة الاستخبارات المركزية يستخدمون فيما بينهم تعبير «مجوهرات العائلة»... فهل ستستطيع الصور التي سنحاول رسمها، أن تكون براقة أكثر من هذه المجوهرات!

صور من؟ صور دزينة من الرجال في وظائف وأعمار واختصاصات مختلفة، سنطلع من خلالهم على حقيقة «وكالة الاستخبارات المركزية» والأزمات التي اجتازتها.

الفصل الأول

ويليام لانجر أو «الجهاز الأكاديمي»

أستاذ في هارفارد ـ لقب بـ« لانجر الثور » ـ « المؤرخ الاميركي الأكثر اطلاعاً » . . . ـ « اكتشاف أفضل الأدمغة في البلاد . . . » ـ الجنرال الذي أحزنه المحللون ـ أمثال الدكتور فولامور ؟

إن كل من تتبع عن كتب الحرب العالمية الثانية يعرف أسم ويليام ل. لانجر، لكن قلة هم الذين يعرفونه كرجل من وكالة الاستخبارات المركزية. إنه بالنسبة للشغوفين بالتاريخ المعاصر، مجرد مؤلف لكتاب غني بالاعترافات عن « اللعبة الأميركية في فيشي ». لكن إذا نظر المرء بتمعن إلى هذا الكتاب، يجد في مقدمته ما يلي: إن هذا الكتاب « يرتكز، إلى حد كبير، على وثائق رسمية لحكومة الولايات المتحدة » ثم يقول المؤرخ: « إنني استطعت الوصول بحرية إلى محفوظات جهازي الخاص بي، مكتب الاستخبارات الستراتيجية . . . ». ولم يقل أكثر من ذلك... لم يقل إنه كان أحد المؤسسين، ومن ثم أحد أركان مكتب الاستخبارات الستراتيجية، الذي نشأت على صورته فيما بعد وكالة الاستخبارات المركزية... إن ستانلي ب. لوفيل، الكيميائي المشهور، والذي كان أحد مؤسسي هذا المكتب، كتب وهو يروي كيف أنشأ الجنرال دونوفان، مكتب الاستخبارات الستراتيجية، يقول: « كان ويليام ج. دونوفان يعتز بأنه يجمع حوله أساتذة جامعيين، ويفوز بوجهة نظره على العلماء، والمحامين، ورجال المصارف. ومن بين الذين كانوا يحوزون على أكبر اعتبار لديه، ويليام ل. لانجر، وكوليدج، استاذا التاريخ في هارفارد . . » الخ.

واحد من القدامى هو روبرت هايدن الكورن، يرينا، اذا صح التعبير، لانجر اثناء العمل. فبعد أن أشار إلى وجود « جهازين مختلفين داخل مكتب الاستخبارات الستراتيجية » كتب يقول: « أحدهما هو جهاز البحث والتحليل، الذي أصبح بين ليلة وضحاها مؤسسة قوية جداً تضم أفضل الأدمغة في البلاد. في البداية رئس هذا الجهاز لفترة وجيزة الدكتور جايمس فيني باكستر، الرئيس السابق لويليام كوليدج، ثم بدأ يزدهر ويعطي ثماره عندما

رئسه الدكتور ويليام ل. لانجر، رئيس قسم التاريخ في هارفارد (...) الذي لقب، طبعاً بمودة، داخل هذا الجهاز بلانجر الثور. وفي الحقيقة كان الدكتور لانجر فعلا رجل - ثور بالنسبة لمظهره الخارجي. لكنه واسع الاطلاع على التاريخ الأوروبي المعاصر. وكانت مهمته تزويد مكتب الاستخبارات الستراتيجية بأكبر كمية من المعلومات التي يمكن استخدامها ضد العدو. وحصل في عهده داخل مكتب البحث والتحليل تأسيس قسم اقتصادي، وقسم للعلوم السياسية، وقسم للجغرافية، وقسم لشمال أفريقيا، وقسم للشرق الأقصى، وقسم لعلم الاجتماع، وقسم لعلم النفس. هذه الأقسام كان لها فروع للتصوير، ورسم الخرائط والميكروفيلم، والمراجع، وفرع للنقليات وفرع صناعي. يمكن القول إن هذا الجهاز أصبح جامعة مصغرة تضم هيئتها التعليمية أفضل الأدمغة المتخصصة في كل تقنية...»

لقد دخل «الرجل - الثور» ميدان العمل هذا في الاربعينات وبقي فيه، بعد الحرب العالمية الثانية، حتى الستينات. وقد أسس داخل وكالة الاستخبارات المركزية، «مكتب التقديرات القومية» وهو جهاز مهمته تقييم المعلومات المجمعة وتحليلها قبل إحالتها إلى السلطة التنفيذية. ثم بعد أن عاد إلى قسم التاريخ في هارفارد أصبح عضواً ملحقاً مباشرة برئيس «المجلس الاستشاري للاستخبارات الخارجية».

إن الشيء البارز في حياة «بيل» لانجر هو التناسق والتكامل التام والظاهر لهذه المهمات الجامعية، وانتسابه إلى إدارة «الأجهزة الخاصة». مثال آخر على هذا التناسق والتكامل يقدمه أحد أبرز ممثلي المثقفين في الولايات المتحدة اليوم، آرثر م. شليسنجر الابن «المستشار الخاص» السابق للرئيس كندي، إذ كتب يقول: «اقترح ويليام ل. لانجر فتح المحفوظات الرسمية السرية «أمام المؤرخين الكفوئين «بعد مرور خمس أو عشر سنوات عليها. إن قوة هذا الرأي كانت مستمدة بصورة خاصة من واقع كونه المؤرخ الأميركي الأكثر اطلاعاً في الديبلوماسية الاوروبية، فضلاً عن أنه شغل مناصب هامة في مكتب الاستخبارات الستراتيجية ووكالة الاستخبارات المركزية، وأصبح عضواً في المجلس الاستشاري للاستخبارات الخارجية - ملحقاً لدى الرئيس...»

لقد رأينا آنفاً روبرت هايدن الكورن، يتحدث كيف كان مكتب الاستخبارات الستراتيجية يبذل جهوده «لجمع أفضل الادمغة في البلاد». والآن يتحدث بيار فايان دو فيلمارست عن الموضوع نفسه مشيراً إلى أن بدل سميث المدير الثاني لوكالة الاستخبارات المركزية (٧ تشرين الاول ١٩٥٠ - ٩ شباط ١٩٥٣) شدد على الطابع «الجامعي للشركة» حيث قال: «على هذا النحو ظهر في غضون سنتين أو ثلاث سنوات في قسم الاستخبارات

الذي أداره لسنة واحدة لوفتوس بيكر، ثم من سنة ١٩٥٢ إلى ١٩٦٢ روبرت آموري (الاثنين من الجامعيين البارزين) عشرات المحللين المرموقين من جيوسياسيين، ومؤرخين، وعلماء اجتماع، واتنولوجيين، وعلماء، وأدباء، واقتصاديين من الطراز الأول. وهكذا، وبعد مرور ٢٠ سنة، وأثناء حديث مع روجي ويبوت كشف ويليام كولبي، الذي كان مديراً «للوكالة» من ٤ ايلول ١٩٧٣ حتى ٣٠ كانون الاول ١٩٧٥، النقاب بزلة لسان عندما قال ان وكالة الاستخبارات المركزية هي «جهاز أكاديمي».

إن إضفاء الطابع الجامعي على أجهزة المخابرات كان سبباً لانتقادات مختلفة، أثارتها بواعث مختلفة سنورد منها مثالين متناقضين.

إن الجنرال فيرنون أ. والترز، وهو ملحق عسكري سابق في باريس، عينه الرئيس نيكسون مساعداً لمدير «الوكالة»، تحدث بأسى في مذكراته فقال: «يأتي المحللون بصورة عامة من العالم الجامعي (...) وغالباً ما يبدو لرجال الجامعة بمثابة أمر غير منطقي أن يكون الاتحاد السوفياتي يريد السيطرة على العالم ونشر الشيوعية في كافة البلدان. فالتاريخ يعلمهم أن أحداً لم يستطع بلوغ هذا الهدف في السيطرة الشاملة، لذا يبدو لهم من غير المنطقي أن يحاول الاتحاد السوفياتي تحقيق ذلك. إن نزوع المثقفين إلى الطوباوية يعود إلى حد كبير للعطف الذي يكنوه للسوفيات. فعندما كنت في وكالة الاستخبارات المركزية، أجريت العديد من المناقشات الطويلة مع عدد من هؤلاء المحللين (...) إنها مسألة دقيقة، في معنى أن البعض منهم يميل إلى اعتبار كل خلاف مع رئيسه، بمثابة محاولة للتأثير على تفكيره، والحد من حريته...».

إن «الطوباوية» التي تحدث عنها بحزن الجنرال والترز تبدو أقل خطراً من الأمر الذي حذر منه جيل بيرو في محاضرة ألقاها في بروكسل، في ٢٨ تشرين الأول ١٩٦٩، حيث قال: «وكالة الاستخبارات المركزية محشوة بمثقفين في المعنى السيء لهذه الكلمة، أي رجال غير مطلعين مباشرة على الواقع، مغرورين، يكررون دائماً المحاولات دون أن يأخذوا في عين الاعتبار النتائج المحتملة: إنني أفكر بالدكتور فولامور في الفيلم الاميركي المشهور...»

الفصل الثاني
الن دالس أو «عملية التفجير»

« أب هادىء » و « رلو كبير للقصص » ـ كندي: « من الصعب العمل مع شخصية أسطورية . . . » ـ حقد أحد العاملين السابقين في الابويهر ـ « عملية سان رايز » ـ « عصابة من البلاشفة » في « مركز روكفلر » ـ أحد « الاسرار السوداء لوكالة الاستخبارات المركزية » ـ رسائل إلى لازلو راجك وطائرة لرودولف سلانسكي ـ أرز مسموم لشوان لاي.

الصورة الثانية التي سنتحدث عنها الآن هي لآلن دالس »، إبن الاسقف آلن ماسي دالس. والشقيق الاصغر لجون فوستر دالس وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق. درس في المدرسة الألزاسية في باريس وفي جامعة برنستاون الأميركية. بدأ حياته كديبلوماسي وختام مكرساً القسم الأهم منها لمكتب المخابرات الستراتيجية، ومن ثم لوكالة الاستخبارات المركزية. وخلال حياته كما بعد مماته، غالباً ما وصف دالس بأنه « أحد الرجال الذين كانوا من وراء الستار. الأكثر تأثيراً على (. . .) مصير معاصريهم.. وعلى سبيل المثال فقد قال عنه الرئيس كندي في نيسان ١٩٦١، أثناء « قضية خليج الخنازير » المشهورة، عبارة فيها من المغزى أكثر مما تتضمن الانتقاد، ونقلها عنه آرتور شليسنجر: « دالس شخصية أسطورية، ومن الصعب جدا العمل بفعالية مع شخصية أسطورية . . . ».

وفي مكان آخر تحدث شليسنجر نفسه قائلا: إن آلن دالس اعتبر بمثابة « بطل قومي ». إن مثل هذه الشهرة، حتى لا نقول هذا المجد، كان مصدرها بالنسبة للرأي العام الاميركي في الستينات، « النجاحات في العمل » التي اكدتها أعلى المراجع. إن الرئيس ترومان عندما منحه « وسام الاستحقاق » في ١٨ تموز ١٩٤٦ أعلن: « في غضون سنة واحدة بنى السيد دالس شبكة تضم مئات المخبرين والتقنيين، تمتد من المانيا إلى يوغسلافيا، وتشيكوسلوفاكيا. بلغاريا، والمجر، واسبانيا، والبرتغال وأفريقيا الشمالية، وتغطي كلياً فرنسا. وايطاليا. والنمسا (. . .). ومن بين النجاحات المرموقة للسيد دالس نذكر التقارير

الأولى منذ شهر أيار ١٩٤٣، عن مختبر تجريبي ألماني في بينمود، متخصص في تجارب القنابل الموجهة (...)، وتقريره عن نشر مثل هـذه القنابل في بادوكاليه، والمعلومات التي قدمها عن الخسائر التي ألحقها طيران الحلفاء في برلين ومدن أخرى في المانيا، وإيطاليا، والبلقان - وهي معلومات نقلت في اليومين او الثلاثة أيام التي أعقبت هذه العمليات. إن لهجة المديح، التي كان يستخدمها ترومان عندما يتعلق الأمر بالدور الذي لعبه دالس في مكتب الاستخبارات الستراتيجية، نجدها بعد مرور ١٥ سنة على ذلك، في الخطاب الذي ألقاه الرئيس كندي يوم ٢٧ أيلول ١٩٦١، عندما ترك دالس إدارة وكالة «الاستخبارات المركزية، إذ قال: ولا أعرف أحداً خدم البلاد بمزيد من الشجاعة والنزاهة كما فعل السيد آلن دالس، لذا أشدد (...) على الإعراب عن أسفي، اذ في سن الـ ٦٨ سنة، وبعد مرور ١٠ سنوات على شغله هذا المنصب، يضطر السيد دالس على ترك هذا المنصب والانتقال إلى التقاعد. لقد قبل الاستمرار في الخدمة كمستشار للرئيس لشؤون الاستخبارات. وبالتالي، فإن شعب هذا البلد سيستفيد من تجربته الطويلة».

إن كفاءة ألن دالس المهنية معترف بها حتى من قبل السوفيات أنفسهم. فالعديد من «المرتدين» ومنهم دريابين، قالوا إن الـ (ك. ج. ب) تعتبره «ضابط مخابرات قدير وذو خبرة» وأنه «اختصاصي مطلع». وبهذا الصدد كتب عن نفسه في مذكراته يقول نشرت «الازفستيا» في نهاية السنة مقالاً خصصته للاحداث والشخصيات، خصني فيه الكاتب السوفياتي المشهور إيليا أهرنبورغ بمقطع وجيز إذ قال: إذا ما قيض للجاسوس آلن دالس دخول باب الجنة، سرعان ما سيكتشف بأنه يفجر الغيوم، ويقصف النجوم ويغتال الملائكة. لقد وجدت في ذلك مقدمة مفيدة جداً للخطب العامة التي أحاول فيها استعراض واجبات مدير الوكالة.

هناك لقب يعترف به الجميع لآلن دالس وهو بالطبع لقب الأب - المؤسس «لوكالة الاستخبارات المركزية»..

إن أحد القلة، أو بالاحرى الكاتب الوحيد الذي اعترض على كفاءة آلن دالس هو ضابط سابق في «الأبويهر» (المخابرات العسكرية في المانيا النازية) ويدعى غيرت بوشيت، كتب يقول: «يحق لنا التساؤل هنا، ما إذا كانت النجاحات التي أحرزها دالس، لم تكن إلى حد كبير، بفضل المساعدة التي كان يقدمها له شقيقه جون فوستر دالس الذي شغل لمدة طويلة منصب وزير الخارجية...». الغدر فاضح في هذه الملاحظة، حتى لو كان من المؤكـد أن الشقيقين قد تعاونا معاً فمن المعتبر عن حق بصورة عامة أن أحد الاثنين الذي كان يمكن ان

ستفيد اكثر هو وزير الخارجية وليس مدير وكالة الاستخبارات المركزية... ويمكن القول إن «الوكالة» كانت تفوز دائماً في تنازع الصلاحيات بينها وبين وزارة الخارجية. إن التناسق المؤقت الذي اتسمت به علاقاتها، عندما كان الشقيقان يتعاونان يومياً مع الرئيس أيزنهاور، كان مؤات للديبلوماسيين أكثر مما كان للعملاء السريين. ومع أن شخصية جون فوستر دالس ارتبطت بحقبة «الحرب الباردة» إلا أن الاثر الذي تركه في تاريخ الديبلوماسية الأميركية كان بصورة واضحة أضعف من الأثر الذي تركه آلن في تاريخ المخابرات.

إن حقد ضباط المخابرات العسكرية في المانيا النازية على آلن دالس يعود إلى كون هذا الأخير أراد بعد الحرب مباشرة أن يظهرهم أمام الرأي العام، وبشكل خـاطـىء، بمظهـر «المقاومين» السابقين للنازية. فقد كتب دالس يقول «لا أريد في الواقع أن أولّد الانطباع بأن الأبويهر الألماني، في مجمله قد أمضى كل وقته في التواطؤ على هتلر؛ على هذا النحو نصبح بعيدين جداً عن الحقيقة. ربما كان ٩٥٪ من أعضائه يجمعون المعلومات عن الحلفاء ويتواطأون ضدهم ـ أما الخمسة بالمئة الباقون، ومن ضمنهم العديد من الرؤساء، كانوا معاديـن للنازية، وكانت لديهم دون شك منظمة منفصلة تتيح لهم مساعدة المتواطئين..».

إن رأي آلن دالس عن «الابويهر»، والاهمية التي نعلقها عليه، يمكن أن تبدو متناقضة، من حيث الشكل، مع ترؤس دالس شخصياً عملية «وضع يد» الاميركيين على جهاز مخابرات هتلر وأرشيفه. ومع ان عملية «وضع اليد» هذه، لم تقتصر على المانيا، ولعبت دوراً رئيسياً في تكوين وكالة الاستخبارات المركزية، فإنه من المناسب، إذن، أن نفسر ما يبدو هنا أنه مجرد تناقض ظاهري. فكرة مقبولة ـ نعرفها جيداً، لأننا نحن بالذات أيدناها لمدة طويلة تلك التي تظهر آلن دالس بأنه «فاشستي». وكونها فكرة مقبولة، فهي إذن فكرة مؤاتية، وتبدو أنها تفسر عنف دالس في معاداة السوفيات والجهود التي بذلها لجعل «وكالة الاستخبارات المركزية» ماكينة حقيقية للحرب، ليس ضد الشيوعيين فحسب، بل وأيضاً ضد حركات التحـرر الوطني لشعـوب المستعمـرات وضـد كـل القـوى المعـاديـة للامبريالية. إنما الحقيقة أكثر تعقيداً من ذلك. إن فك التحالف بين الدول الغربية والاتحاد السوفياتي غداة الحرب العالمية الثانية لدحر قوى المحـور، لم يتحـول فجـأة نتيجـة لـذلـك إلى فاشيين، الذين كانوا حتى بالأمس أعداء الفاشية. ومع أن النزاع وصل غالباً إلى حـدود الحرب الساخنة، ومع أن كل الوسائل بدت مناسبة في وقت من الاوقات، فإن استمرار هذا النزاع أثناء «الانفراج» عن طريق المباراة بين النظامين الاجتماعيين المختلفين والصراع الايديولوجي برهن أن الأمر يتعلق بمجابهة تختلف عن طبيعة الحرب العالمية الثانية. ومهما كتب منظرو

الجانبين، فإن هتلر لم يتجسد لا في ترومان ولا في ايزنهاور ولا في ستالين، كما أن دالس لم يكن هملر من طراز جديد. ولم يكن أيضاً متطرفاً، بل كان بكل بساطة، «رجل الرئيس»، كما سمي في وقت لاحق. وكونه أدرك، عن طريق الخبرة - وحتى بالوراثة -، التشابك الخاص بين عالم الأعمال والأوساط السياسية، الأمر الذي تتميز به بلاده، وكونه فهم بسرعة وأفضل من الآخرين إلى أية درجة ستصبح «الحرب الهدامة» من الآن فصاعداً، ولمدة طويلة، جزءاً لا يتجزأ من شكل السلم الجديد الذي سيعرفه العالم، بذل «رجل الرئيس» كل جهد لصنع الأداة التي تتيح له تنفيذ المهام التي توكل اليه بأقصى فاعلية ممكنة. لقد عرف النجاح كما عرف الفشل. إن الماكيافيلية المسلحة، التي كانت محركه الحميم، جعلت منه في البداية رجلاً بعيد النظر، ثم ما لبثت أن أعمته. وبعد أن فقد شيئاً من رؤيته لحقيقة السياق السياسي، وصل به الأمر إلى «أن يغرد خارج سربه». واضطر الى التقاعد بعد فشله الكوبي، لكن بشكل كان يحب ان لا يعرفه ابداً. وفي نجاحاته كما في فشله، كان نشاطه دائماً مشدوداً بايديولوجية لا تتميز بشيء عن إيديولوجيات حكام بلاده. لم يكن بحاجة لأن يصبح «فاشياً»، بل كان يكفيه ان يصبح «موظفاً كبيراً» لدى الامبريالية الأميركية كي يستفيد ويدفع حتى النهاية كل ما توفره له تقنية «الاجهزة السرية» وممارساتها.

واذا محّصنا تهمة «الفاشية» الموجهة ضد آلن دالس في المعلومات التي وردت آنفاً، نجد بصورة رئيسية عنصرين أساسيين هما: وثيقة من المحفوظات الألمانية نشرتها مجلة سوفياتية، وكتاب صغير أصدره صحفي ونائب عمالي في بريطانيا. الوثيقة الالمانية هي كناية عن تقرير لقسم الاستقصاءات في الخارج التابع «لجهاز الأمن» النازي كتبه أحد أهم رجال هذا الجهاز عن لقاء سري أجراه في بيرن، عاصمة سويسرا، مع آلن دالس سنة ١٩٤٣. وكتاب النائب البريطاني يستند إلى هذا التقرير النازي ويضيف اليه بعض المعلومات عن العلاقات التي كانت قائمة قبل الحرب بين مكتب المحاماة للاشقاء دالس وعدد من الشركات الالمانية التي شاركت، من قريب أو بعيد، في تمويل الحزب النازي.

وفي إحدى المقالات العديدة التي نشرت يوم وفاة آلن دالس، أورد الصحفي جاك أماليك، بصورة جيدة، معلومات عن ما أسماه «المرحلة الغامضة في حياة دالس»، أي الوقائع التي كشف النقاب عنها تقرير «جهاز الأمن» النازي... فكتب يقول «في سنة ١٩٤٣، أجرى بالفعل اتصالاً مع أحد كبار موظفي المخابرات الألمانية يعمل لحساب هملر، وكان على استعداد في تلك الحقبة لخيانة سيده هتلر، كي يقبل الأنغلو - ساكسون التوقيع على سلم منفرد. وبعد الحرب صادر السوفيات الوثائق التي وجدت لدى هذا الموظف

الكبير وقاموا بنشرها. إنها محرجة جداً بالنسبة لدالس، إذ يقول فيها هذا الموظف الالماني الكبير في المخابرات، إن دالس حدثه عن «الحزام الصحي» ضد البلشفية وعن «مفاوضات لا غالب ولا مغلوب». فهل حرف الموظف الالماني هذه الاقوال حتى يصدق؟ وهل قالها دالس بالفعل؟ وهل فعل ذلك كي يكسب ثقة محدثه ويحصل على معلومات؟ من الصعب اليوم الحسم بين كل هذه الموضوعات. ومهما يكن ففي نهاية الحرب، أجرى دالس مفاوضات الاستسلام المنفصل للجيوش الألمانية في ايطاليا، قبل أسبوع من الاستسلام النهائي في رايمس...».

وأضاف الصحفي فيليب برنير، بصدد «الاستسلام المنفصل»، يقول في نفس تلك الحقبة: «قاد دالس مفاوضات السلم على قرع الطبول. وبذلك انتهج قبل الموعد، سياسة «الاحتواء» التي مارسها شقيقه فوستر في وزارة الخارجية خلال الخمسينات...»

واستناداً إلى الشكوك التي تساورهم بقوة حول الشكل الذي «استعادت» فيه الدول الغربية النزعة العسكرية الألمانية، من أجل تعزيز معاداة السوفيات في منظمة حلف شمال الأطلسي، اعتبر السوفيات دائماً، وليس دون سبب، أن بعض السياسيين والقادة العسكريين في الغرب، كانوا يحلمون خلال النزاع بعقد سلم منفصل وقلب التحالفات على أمل تحويل الحرب العالمية الثانية إلى «حملة صليبية جديدة معادية للبلشفية» وأصبح من المعروف اليوم أن العديد من المحادثات السرية جرت بالفعل في هذا الصدد، لذا فإن الخطر كان بالفعل واقعياً. ومع ذلك نستنتج، بالنسبة لما يهمنا، أن الاتصالات التي أجراها دالس لم تكن سوى جزء صغير من مجمل المناورة، ومن ناحية أخرى فإن المهام التي كان ينفذها في بيرن لحساب مكتب الاستخبارات الستراتيجية، وهي مهام عميل سري، جعلت دوره مشبوهاً أكثر بكثير من دور الديبلوماسيين وغيرهم من الوسطاء الحياديين الذين اتهموا ايضاً في هذه القضية.

والآن، بعد أن اطلعنا على حجج الذين يوجهون التهمة إلى دالس، لنرى ما يقوله أولئك الذين دافعوا عنه، طوعاً أو عن غير قصد... إن ستيوارت ستيفين الذي عمل معلقاً ديبلوماسياً في «الدايلي إكسبرس»، ثم نائباً لرئيس تحرير «الدايلي ميل» في لندن، والذي درس عن كثب شخصية الرئيس العتيد لوكالة الاستخبارات المركزية، وصف إقامة هذا الأخير في سويسرا على النحو التالي: «لقد اعترف دونوفان، رئيس مكتب الاستخبارات الستراتيجية، بعبقرية دالس في التجسس السري ومهد له طريق النجاح في المستقبل، إذ عهد إليه بما يمكن أن يكون أهم منصب في جهازه، أي رئاسة مكتب الاستخبارات الستراتيجية في بيرن، الملتقى الطبيعي لكل أعمال التجسس في زمن الحرب. وسرعان ما طغت شخصيته

على هذا المكتب، لكن ليس كمعاد مهووس للشيوعية، كما أصبح في وقت لاحق. كان يعتبر هذه الحرب معركة ضد الفاشية، لذا تعاون جهاراً مع الشيوعيين لأنه كان يعتبر أن كل من هو على استعداد لمساعدته في هذا النضال هو شريك مقبول.

إن الصحفي والمؤرخ الأنغلو - ساكسوني السويسري الأصل جون كيمش، المعروف بآرائه الليبرالية في كتاباته عن حرب اسبانيا وعن النزاع العربي - الاسرائيلي سنة ١٩٤٨، أكد اشتراك آلن دالس في النضال المعادي للفاشية عندما وصف إقامته في بيرن فكتب يقول «لقد استقبل على الرحب والسعة من قبل المنفيين الألمان ومن كل أولئك الذي كانوا يستخدمون الأراضي السويسرية من أجل الاتصال مع ممثل للحلفاء لا يبدي الحذر واليقظة تجاه مشاعرهم وخططهم المعادية للهتلرية...». وقد ذهب كيمش أبعد من ذلك، عندما أكد أن دالس كان أحد أولئك الذين بفضلهم «فشلت محاولة فصم التحالف الكبير»، حيث قال «إن عدم تحقيق هذه الإمكانية يعود إلى حد كبير لاصرار آلن دالس خلال كل المرحلة التحضيرية حيث كانت فكرة استسلام دون قيد أو شرط غير شعبية مطلقاً، وأنه كان الوحيد تقريباً بين زملائه في «مكتب الاستخبارات الستراتيجية، وفي المخابرات البريطانية، الذي وافق على هذه الصيغة...».

نتساءل هنا ما إذا كانت معاداة الفاشية عند آلن دالس ناجمة عن خضوعه الانضباطي للرئيس روزفيلت ولرئيس مكتب الاستخبارات الستراتيجية الجنرال دونوفان، أم أنها عائدة إلى جذور أكثر عمقاً...

بيد أن دالس لم يرد عملياً أبداً على التهم التي وجهت ضده. لماذا؟ ربما لأنه كان يعتبر أن الوقائع تكفي بحد ذاتها؟ أو لأنه كان يعتقد بأن ليس لديه أي شيء يضيفه إلى تعليقات الآخرين؟ الجواب في رأينا هو أكثر تعقيداً من ذلك... وغداة الحرب سرعان ما أصبح، شأنه شأن معظم كبار القادة والموظفين في الولايات المتحدة، معادياً مهووساً للشيوعية «على حد قول ستيوارت ستيفن. ثم أخذ بعد ذلك يستخدم النازيين السابقين في الصراع ضد الشيوعية. يمكن ان يبدو هذا الموقف متناقضاً - لكن سبق وأن رأينا أن مثل هذه التناقضات هي الخبز اليومي في تاريخ وكالة الاستخبارات المركزية، وفي عقلية زعمائها.

قبل وفاته بعدة سنوات، كتب آلن دالس كتابه الأخير: قصة «عملية سان رايز الاسم الرمزي «الكودي» للمفاوضات التي لعب فيها دوراً أساسياً وأدت إلى الاستسلام المسبق لقائد القوات الألمانية في شمال ايطاليا الجنرال وولف. لقد عمل في هذه القضية

باتصال وثيق جداً مع فيروكيو باري، الذي استطاع دالس تحريره بعد أن القى النازيون القبض عليه. ان باري رجل يساري حقيقي مقرب من الشيوعيين غالباً، وتولى رئاسة أول مجلس في ايطاليا المحررة كلياً. وأنتخب «عضواً في مجلس الشيوخ مدى الحياة»، وعلى الرغم من تقدمه الطاعن في السن، فهو لا يزال في طليعة الشخصيات المعادية للفاشية. إن الأسلوب الذي يتحدث فيه دالس عن باري يبدو لنا ذو مغزى. فقد قال إن «باري الوطني الايطالي الرهيب، الذي أطلق سراحه وولف، كبادرة حسن نية من الالمان بخصوص تنفيذ «سان رايز» أصبح رئيساً للمجلس بعد الحرب. إن إطلاق السراح المذهل هذا، كمقدمة للعملية نفسها، أسيء تفسيره خلال إحدى المعارك الكثيرة في السياسة. ففي سنة ١٩٥٣ عندما كان باري عضواً في مجلس الشيوخ، حاول بعض أخصامه من الفاشيين الجدد، عرقلة نجاحه عن طريق الحط من سمعته، في مقالات الصحف في روما والملصقات في ميلانو. وجاء في هذه المزاعم أن باري عندما كان أسيراً لدى الألمان، استطاع استرجاع حريته، بعد أن زودهم بمعلومات عن المقاومة الايطالية. بعد ذلك لاحقهم باري قضائياً في ميلانو، وكانت الدعوى التي قدمها ضدهم في الجزء الاكبر منها، بمثابة إعادة نظر شاملة، «لعملية سان رايز» واستدعي عدد كبير من اولئك الذين اشتركوا في هذه العملية، من الحلفاء والالمان للادلاء بشهادتهم أمام المحكمة. فكانت النتيجة براءة باري من هذه التهمة...

لقد تعرض آلن دالس لتهجمات عديدة، يمكن وصفها باليمينية، بسبب تكتمه عن معاداته للفاشية وبما أنه سبق لنا أن قلنا ان «دالس كان وكالة الاستخبارات المركزية» فهي تستحق إذن أن نورد منها المثالين الآتيين:

الهجوم الأول نظمه جون إدغار هوفر مدير «مكتب التحقيقات الاتحادي» شن هوفر هجومه عام ١٩٤٢ في الوقت الذي كان فيه دالس يشارك في الأعمال التحضيرية لإنشاء مكتب الاستخبارات الستراتيجية في «مكتبه ٣٦٦٣» في ناطحة السحاب «روكفلر سنتر» في نيويورك. كتب موسلي يقول إن «المهاجرين الألمان الذين بدأوا يتوافدون إلى «روكفلر سنتر» كانوا من كل الميول والاتجاهات السياسية. منهم رجال من اليمين على غرار البارون فولفغانغ زوبوليتز، وهو ديبلوماسي نازي سابق، وغوتفريد تريفيرانوس؛ ورجال من الوسط أمثال المستشار الأسبق هنريش برونينغ، ورجال من اليسار لفت وجودهم انتباه مكتب التحقيقات الاتحادي. فذهب إدغار هوفر إلى الرئيس مستاء من أن آلن دالس قد جند «عصابة من البلاشفة». إن الضجة التي أثيرت حول هذا الموضوع أدت إلى حل لجنة المهاجرين التي أنشأها دالس للحصول منها على بعض المعلومات. إلا أن هوفر لم يكتف بذلك، بل ذهب فيما بعد إلى

حد الاعتقاد بأن لآلن دالس ميولاً مستترة نحو الشيوعية...».

الهجوم الثاني شنه رجل يميني متطرف، غالباً ما كان يوصف أنه الناطق الرسمي لإدارة الأمن العام. وقد كتب بيار فايان دي فيلمارست في آخر كتبه يقول عن ذلك: «إن آلن وفوستر دالس بعد أن تسلما مقاليد القيادة في الحكومة الاميركية كان اتجاههما، في أجهزة الاستخبارات وفي وزارة الخارجية على حد سواء، حماية وتجنيد الليبراليين...».

ان الطابع الحاد للتناقض الذي نلاحظه في شخصية آلن دالس على الصعيدين الإيديولوجي والسياسي، عندما نحاول أن نعرف ما إذا كان «ليبرالياً» أم «فاشياً» أو الاثنين معاً، أو لا هذا ولا ذاك، هذا التناقض أيضاً على الصعيدين النفسي والفكري، عندما نلاحظ أن هذا «الأب الهادىء» كان لا يتردد أبداً في اختيار الوسائل. فمع شغفه بـ «العمل السري» وميله إلى التلميح في الكلام، كان على استعداد دائم لفعل كل شيء، دون أن يشكل هذا التناقض الجديد أي إزعاج له.

إن إحدى المآثر النادرة، حتى لا نقول الوحيدة، التي يدعيها دالس هي نشر «التقرير السري» المشهور الذي ألقاه خروتشيف أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي. فقد قال «لقد اعتبرت دائماً هذا العمل، من النجاحات الأساسية التي احرزتها خلال خدمتي في الاستخبارات...» فهذا الاكتفاء الذاتي المعلن يدعو للحيرة. وبالفعل، فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأهمية التاريخية «لتقرير خروتشيف» نفترض أنه لم تكن لدى كاتبه وأصدقائه الرغبة في نشره، لكان من المستحيل نشره في مثل هذه السرعة. «إن هذه المأثرة المزورة التي اختارها دالس لنفسه كانت مجرد حلم، أُطلق عليه داخل مجموعة صغيرة جداً من قادة المخابرات الاسم الرمزي (الكودي) «عملية التفجير».

عن هذه «العملية» بالذات لم يتحدث أبداً آلن دالس بوضوح إلا في أمكنة متفرقة جداً، دون إعطاء أي تفسير. وعلى سبيل المثال فإن جوزيف سوياتلو، كان نصيبه في مذكرات دالس ستة أسطر فقط، في حين انه كتب عن نويل فيلد يقول إن اختفاءه لا يزال سراً من الأسرار «ولم يحن الوقت بعد لحل هذا اللغز». صحيح أن موسلي أكّد من جانبه في سنة ١٩٧٨ أن الأمر يتعلق هنا «بالأسرار السوداء لوكالة الاستخبارات المركزية...»، بيد أنه أمام هذا الصمت المنهجي نأسف لكون ستيوارت ستيفن لم يذكر صراحة مصدره فحسب ـ هذا أمر نفهمه ـ، لكنه لم يقدم أي توضيح آخر عندما كتب حول موضوع «عملية التفجير» يقول: «وضع دالس خطة كانت ستصبح، على حد ما قال لصديق فيما بعد، أكبر نجاح له...».

سنحاول هنا مع ذلك أن نتحدث عن « عملية التفجير » هذه.

كان نويل فيلد رجل إحسان من أصل ديبلوماسي. عمل خلال حرب إسبانيا، على تنظيم المساعدة لأعداء الفاشيين. وكان التقى قبل ذلك بعشر سنوات بآلن دالس حيث قامت بينهما صداقة متينة. وعلى الصعيد السياسي، أجرى فيما بعد اتصالات مرحلية مع المخابرات السوفياتية. وبعد أن قدم المساعدة إلى قدامى « الفيالق الأممية » الذين احتجزهم نظام بيتان في معسكرات اعتقال في جنوب فرنسا، ذهب إلى سويسرا لمواصلة عمله في تقديم المساعدة إلى رجال المقاومة في كل بلدان أوروبا المحتلة. وهناك بالطبع، التقى دالس في بيرن، بعد غياب طويل عنه. في ذلك الوقت كان فيلد يشغل منصب مدير « الاونيتاريان سرفيس كوميتيت » في أوروبا، وهي بعثة بروتستانتية أميركية كانت من أكبر المنظمات الخاصة لغوث اللاجئين.

وكان من الطبيعي أن يقيم « الاونيتاريانيون في أوج الحرب ضد المحور علاقات مع مواطنيهم في السفارة وفي مكتب الاستخبارات الستراتيجية، في هذا البلد المحايد. ومن الطبيعي أيضاً أن تتوثق الصداقة أكثر بين دالس وفيلد، بعد أن التقيا من جديد. وأخيراً كان من الطبيعي أن يتخطى فيلد، نتيجة لمعتقداته الشخصية، مرحلة « الإحسان » إلى التفاني في المعركة ضد الفاشية... إن انتصار الحلفاء سنة ١٩٤٥ لم ينه هذا العمل، بل على العكس، فقد كان يعني بالنسبة لفيلد مضاعفة النشاط داخل أوروبا المدمرة حيث كثرت المآسي البشرية والمعضلات السياسية. فالعديد من المناضلين المهمين جداً، ومن كل القوميات، شهدوا على ذلك، على غرار ما فعل في وقت لاحق آرثر لندن عندما كتب يقول: « في بداية سنة ١٩٤٧، أصبت بنكسة حمى خطيرة أدت إلى اصابة رئتي. وتطلبت حالتي الحصول على جرعات من الستربتومايسين الذي كان مفقوداً تماماً وقتها في فرنسا. لذا اضطررت للانتقال الى سويسرا بغية الحصول على العلاج (...) وفي جنيف تعرفت على المواطن الاميركي نويل فيلد مدير جهاز الأونيتاريان في أوروبا... ».

كيف راودت الشكوك فيلد وزوجته هيرتا، وابنته بالتبني أريكا، وشقيقه هيرمان، بأن العجلة التي ستسحقهم بدأت تدور سراً، بغية تحميلهم « مسؤولية » عدد من المآسي؟

في ١٦ ايلول سنة ١٩٤٩ افتتحت في بودابست محاكمة لازلو راجك، وغيورغي بالفي، وتيبور سوني مع المتهمين الخمسة. واستمرت حتى ٢٤ منه. وفي الجلسة الأولى، اعلن راجك، الذي كان يشغل قبل بضعة اشهر منصب نائب الأمين العام للحزب ووزير الخارجية بعد أن شغل منصب وزير الداخلية، وقد اعدم شنقاً غداة المحاكمة قبل ان يعاد

الاعتبار إليه سنة ١٩٥٦، قائلا: «في معسكر الاعتقال في فيرني، أتى مواطن أميركي يدعى فيلد، وهو حسب معرفتي رئيس جهاز المخابرات الاميركية في اوروبا الوسطى والشرقية، لمقابلتي بعد انتهاء الحرب الأهلية. كان يستند إلى تعليمات تلقاها من واشنطن، فحواها الاتصال بي ومساعدتي على الخروج من معسكر الاعتقال للعودة إلى المجر. وأضاف راجك يريدون إعادتي إلى المجر، بوصفي استفزازي غير مكشوف يعمل من الداخل للقيام بتخريب وتفكيك الحزب، والاستيلاء إذا أمكن على قيادته. بعد لقائي مع فيلد، لم يحصل أي اتصال بيني وبين الاميركيين، لأن فيلد كان قد أتى إلى المعسكر بعد حصول تفاهم بيني وبين قيادة الغستابو حول عودتي عن طريق المانيا. وفي القرار الاتهامي الصادر عن هذه المحاكمة، أعلن «مدعي عام الشعب» غيولا آلابي: «لقد ثبت أن تيبور سوني أصبح خلال الحرب جاسوساً أميركياً، يتلقى أوامره من سويسرا، من نويل فيلد وآلن دالس، وأنه قام، تبعاً لتوجيهاتها، بتنظيم مجموعة من الجواسيس بين المجريين المهاجرين، ودخل إلى المجر بمساعدة جواسيس يوغسلاف يعملون لحساب جهاز التجسس الاميركي، وان كل نشاطه في المجر كان لحساب اجهزة التجسس الاميركية واليوغسلافية. كما ثبت أنه وظف جواسيس أميركيين ويوغسلاف في مراكز إدارية هامة في جمهورية المجر، بهدف إشاعة الفوضى، والتخريب والتجسس...». وفي مكان آخر يقول: «تظهر من وراء رانكوفيتش ظلال فيلد ودالس». بالإمكان سرد العديد من الأمثلة على هذا المنوال لأن إسم فيلد في الواقع، تكرر مع إسم دالس مرات عديدة خلال هذه المحاكمة.

بعد مرور ثلاث سنوات، حصل الأمر نفسه في براغ «افتتحت محاكمة رؤساء مركز التآمر ضد الدولة بقيادة رودلف سلانسكي» في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٢. ودامت حتى ٢٧ منه. إن سلانسكي الأمين العام السابق للحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا ونائب رئيس المجلس، مثل أمام المحكمة مع فلاديمير كليمانتس وزير الخارجية الأسبق، وارثور لندن، نائب وزير أسبق والصحفي اندري سيمون وعشرة متهمين آخرين. أعدم منهم ١١ شنقاً. وحكم على ثلاثة، من ضمنهم لندن، بالأشغال الشاقة المؤبدة. وقد أعيد الاعتبار الى الجميع فيما بعد. من بين التهم الأساسية التي وجهت إلى لندن، تهمة «أنه الرئيس المقيم لشبكة التجسس الأميركية في تشيكوسلوفاكيا، بقيادة فيلد، المساعد المباشر لآلن دالس». «اعترافاته» كانت قد اعدت سلفاً، شأنها شأن كل اعترافات المتهمين الآخرين. وقد قال ارثور لندن: «تحت ستار تقديم الغوث والمساعدة من قبل منظمة الاونيتاريان سرفيس كوميتيت الأميركية، حاول جهاز الاستخبارات الاميركي التغلغل في بلدان الديموقرطيات الشعبية، بواسطة عناصر مختلفة من أوروبا الشرقية، من أجل تشجيع نشاطات التخريب والتجسس. إن فيلد عن

طريق تقديمه مساعدات مختلفة الى بعض الافراد ، ومن ضمنها مساعدات مادية ، كان يوسع معارفه واتصالاته. وقد توصل إلى خلق الظروف المناسبة من أجل تجنيدهم في جهازه كي يعملوا لمصلحة جهاز التجسس الاميركي. على هذا النحو استفاد فيلد من مصادر هامة جداً للمعلومات استغلها في التجسس ضد بلدان الديموقراطيات الشعبية ، وهذا ما تبين خلال محاكمة راجك في المجر. ان منظومة العملاء هذه التي عملت لحساب الاميركيين جندها فيلد من صفوف الأشخاص الذين استطاعوا ، بعد عودتهم إلى بلدانهم في الديموقراطيات الشعبية ، تسلم وظائف عالية في جهاز الدولة والحزب... هنا ندرك قصد فلورا لويس في حديثها عن « مدى الخسائر التي احدثها الإعصار الذي كان مركزه نويل فيلد » حيث كتبت تقول إن اسمه « أصبح رمزاً للخيانة ، والمآسي والموت ». ثم أضافت « إن فيلد كان ينقل ، دون أن يدري ، بعض الفيروسات المعدية التي لم ينـج منها كل من اقترب منه. فمجرد ذكر اسم فيلد كان يشيع الرعب ». لقد عاش فيلد في القرن العشرين وشهد انقلابات عصرنا الفائق. لكنه اختير واستخدم بشكل غريب خلال تلك السنوات « فلماذا ؟

لماذا ؟... ومن قبل من بالضبط ؟

عندما كانت تجري المحاكمات التي كان هو نجمها غير المرئي ، ماذا حل بنويل فيلد أو بآل فيلد ؟... الأربعة « اختفوا » ، أو بالأحرى اعتقلوا أثناء سفرهم في البلدان الشرقية : نويل في براغ يوم ١١ ايار ١٩٤٩ ، وهيرمان في فارصوفيا ، يوم ٢٢ آب؟ وهيرتا في براغ يوم ٢٦ آب ، واريكا في برلين خلال ربيع سنة ١٩٥٠. الجميع ظلوا في الاعتقال مدة ٥ سنوات تقريباً : الزوجان في براغ ، والشقيق في فارصوفيا ، وأريكا في المانيا ثم في الاتحاد السوفياتي... ولوحظ في تلك الحقبة أن حكومة الولايات المتحدة لم تبد سوى قلق سطحي جداً تجاههم ، ولم تمارس أي ضغط لإطلاق سراحهم ، مع انهم جميعاً يحملون الجنسية الأميركية.

بعد إطلاق سراحهم ، تفرقوا جميعاً : نويل وزوجته استقرا في بلدان الديموقراطيات الشعبية في حين ان شقيقه وابنته بالتبني عادا إلى الغرب. إن كل أولئك الذين كانوا ينتظرون توضيح هذا السر ، خاب أملهم ، لأن الأشخاص المعنيين لم يعلنوا أي شيء حاسم. وقالت فلورا لويس « إن الأشخاص الذين يعرفون آل فيلد في بودابست كانوا يبدون الإنزعاج عندما كنت أسألهم عن هؤلاء. فقد كانوا يعتبرونهم كمخلوقات لا يمكن فهمها ، وأنه من الأفضل عدم الحديث عنهم. وبقي السر دون توضيح ». بعد ذلك بمدة طويلة مسؤول شيوعي تشيكوسلوفاكي سابق كان في سنة ١٩٦٨ قبل ان ينفي نفسه سكرتيراً « للجنة إعادة

الاعتبار » يدعى كاريل كابلان قال: « يوجد في هذه القضية بعض النقاط الهامة والغامضة مع الأسف والتي لم نستطع أبداً تقديم اي توضيح مقبول بصددها (....) إن فيلد كان مجرد ذريعة، مجرد نقطة مركزية تتشعب منها، في كل بلدان الكتلة، محاكمات أخرى حول شبكته التجسسية المزعومة. ومن جهة أخرى لم يمثل ابداً أمام أية محكمة، لا كشاهد ولا كمتهم. فلماذا لم يحاكم أبداً؟ ربما لأن محاكمته لم تكن ذات فائدة، وأن السبب الوحيد لوجوده كان يكمن في أن يجري حوله تنظيم محاكمات للآخرين...». في الغرب سادت الأجواء والحيرة نفسها... لقد قالت « فلورا لويس »، وهي صحفية عملت في العديد من البلدان، « إنني أعرف العديد من الأشخاص الذين هم على صلة مباشرة أو غير مباشرة بأجهزة المخابرات وحاولت أن أحصل منهم بأساليب مقبولة ومعترف بها على بعض المعلومات. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما حصلت على أجوبة سلبية وقاطعة، فلجأت إلى أساليب أخرى، والجواب الذي كان يصلني بقي نفسه: لا. (...) عندها حاولت أن أفهم، بصورة غير مباشرة لأن المحاولات المباشرة لم تجد نفعاً إذا كنت أنا شخصياً سبب الحذر، أو ما إذا كان جزء من هذه القصة لا يزال في مرحلة نشيطة دون أن أدري. فقيل لي إنني لم أكن أنا شخصياً السبب، بل هناك « أسباب » لا تزال قائمة تستدعي إحاطة هذه الملفات بكتمان شديد، وأن كل محاولة أخرى من جانبي لاختراق جدار الصمت الرسمي ستكون عرضة لتفسيرات سيئة...».

إن « جدار الصمت الرسمي » هذا الذي أقيم من قبل الجانبين لم يمنع حدوث عدد من الوقائع، التي دون أن نقلل من أهميتها، لوحظ أنها تتضمن مؤشرات استفزازية. لنأخذ ٣ امثلة...

ـ الأول حصل في سنة ١٩٤٨ ومتعلق بلازلو راجك. الذي، على حد ما كتب ستيوارت ستيفن، « قُدم إلى الصحفيين الغربيين من قبل وزارة الخارجية بوصفه وطنياً مجرياً يعارض بقوة إشاعة الصبغة السوفياتية في بلاده. ورُوجت بكثرة في الصحافة الغربية روايات، معظمها غير صحيح، حول المشاجرات مع راكوزي (...) وفي غضون ذلك، تلقى سيلاً من رسائل المنفيين المجريين، الذين تعرفوا إليه في الجامعة، يزعمون فيها معرفته: ويهنئونه بمسؤولياته الوزارية ويشكرونه على كونه الوطني المجري الحقيقي ويسردون بعض التصريحات التي أدلى بها في الماضي، والتي بعد تحليلها أثبتت انحرافاً تروتسكياً خطيراً. وكان لها نقطة أخرى مشتركة: كل هذه الرسائل كانت قد كتبها شخص واحد، هو اليوم استاذ في جامعة جورج تاون في واشنطن، كرس كل وقته ما بين ١٩٤٧ و١٩٤٩، وفقاً لتعليمات من وكالة الاستخبارات المركزية، لكتابة رسائل مسممة بأسماء مستعارة لشخصيات تعيش في

ما وراء «الستار الحديدي»، وذلك من أجل أن تفتحها الشرطة السرية وتقوم بتحليل دقيق لها...

المثل الثاني يعود إلى تشرين أول سنة ١٩٤٩. في تلك الحقبة كانت تعقد في نيويورك الجمعية العامة للامم المتحدة. وكان وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا، فلاديمير كليمانتس يرأس وفد بلاده. وقد «تعرض في الوقت نفسه لضغط مزدوج من قبل وكالة الاستخبارات المركزية، بواسطة وزارة الخارجية الاميركية، ومن قبل الانتلجانس سرفيس ووزارة الخارجية البريطانية، لحثه على طلب اللجوء السياسي. وأعلن ديبلوماسيون كبار أمام الصحفيين أن كليمانتس هو احد السياسيين النادرين ذوي الميول الاستقلالية في اوروبا الشرقية: كان «يناضل ضد السيطرة الستالينية المتعاظمة على تشيكوسلوفاكيا؛ ويعارض اشخاصاً على مثال غوتوالد». إن الأحاديث التي أجراها كليمانتس مع رسميين غربيين كانت تقدم الى الصحافة بشكل يظهر ان لديه مشاعر قوية معادية للسوفيات. وبما أن كليمانتس لم يكن مطلعاً على ما يحصل، فقد كان مضطراً لأن يتصل يومياً تقريباً بغوتوالد من أجل تكذيب تصريح جديد نسب إليه».

المثال الثالث سبق اعتقال سلانسكي مباشرة، كان المقصود منه خلق الانطباع بان هذا الأخير يزمع «اختيار الحرية». لم يكن هذا الأمر صحيحاً بالطبع، غير أن جهوداً بذلت من أجل إظهاره وكأنه حقيقة. كيف؟ تحدث ستيفن عن ذلك فكتب يقول: «أُشيعت بين المهاجرين التشيك، وخصوصاً أولئك الذين لجأوا إلى المانيا، أقاويل في بداية كانون الاول ١٩٥١، مفادها أن رودولف سلانسكي (....) يزمع الانتقال إلى الغرب. قلّة صدقوا، لكن الأمر كان موضوع أحاديث، المقصود منها خلق بلبلة في النقاش الدائم حول الوضع في البلاد منذ أن تسلم الشيوعيون السلطة...».

القليلون صدقوا، لكن الجميع كانوا يتحدثون عن هذه القضية. وأضاف ستيفن يقول: «روجت في ميونيخ إشاعات نقلت كلها بأمانة إلى موسكو. ومن أجل إعطاء هذه الإشاعات بعض الوزن، رتبت مسرحية ونفذت على مدرج لهبوط الطائرات الاميركية. وكان ينقل إلى هناك كل مساء مهاجرون تشيك معروفون لانتظار «وصول شخصية هامة» ولم يقل أحد لهم من الضباط الاميركيين من هي هذه الشخصية «الهامة» التي ستصل. لكن الجميع كانوا يعرفون: رودولف سلانسكي. ومع ان الجميع وعدوا بعدم إفشاء السر، فقد انتشر النبأ بسرعة. وتبين ان الساهر على ذلك هو شارلز كاتيك، المسؤول عن عمليات وكالة الاستخبارات المركزية في ميونيخ والملحق العسكري الأميركي السابق في براغ...».

وهنا تجدر الإشارة إلى ما نشرته صحيفة دي تات السويسرية في ٢٦ نيسان ١٩٤٩ حيث قالت: « كان الغرب يسعى بالدرجة الأولى إلى ضرب نخبة وكوادر القيادات في الديموقراطيات الشعبية، ويبدو أنه في هذا الصدد، سجل نتائج فاقت كل تصور. وعلى هذا النحو يبين هذا الاعتراف المؤلف من عدة أسطر، كل المادة التي استندت إليها هذه المحاكمات... ».

إن كل هذه الاعمال كانت تحصل ضمن عملية أُطلق عليها اسم « عملية إكس ». فهل كانت هذه العملية بالذات هي نفسها « عملية التفجير »؟ فاذا كان ذلك صحيحاً، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الدور الذي لعبته شخصية أخرى غير نويل فيلد، شخصية رجل « مرتد » مهووس: يدعى الكولونيل جوزيف سوياتلو من المخابرات البولونية... استغل سوياتلو، على الطريقة الكلاسيكية، رحلة له الى برلين وانتقل إلى الغرب في ٢١ كانون الأول ١٩٥٣. وبعد ذلك بثلاثة أشهر، أي في آذار ١٩٥٤ بدأ يتكلم من إذاعة اوروبا الحرة. لعب في هذه الإذاعة دور « المرتد »، ويعني هذا أن « الاعترافات » التي قدمها كانت مؤلفة من معلومات حملها معه، أو من أخرى زوده بها مستخدموه الجدد، حين سنحت المناسبة لإذاعتها مصبوغة « بالحقيقة ». ووفقاً للسيناريو المعتاد، قامت وكالة الاستخبارات المركزية بنقله فيما بعد إلى الولايات المتحدة... وعلى حد ما قالت فلورا لويس: « في ٢٨ ايلول ١٩٥٤، أي بعد تسعة أشهر تقريباً من هروبه في برلين، عُرِضَ سوياتلو في واشنطن. كان عمره ٣٩ سنة في ذلك الحين. كانت الحكومة أعلنت هروبه قبيل ذلك، ثم قدمته للجمهور في مؤتمر صحفي أعلن خلاله أنه انتقل إلى الغرب لأن الشيوعية خيبت آماله... » إلى هنا، كان سوياتلو مجرد « مرتد » كالآخرين من طرازه. لكن لهجة المؤتمر الصحفي تغيرت فجأة عندما لفظ (من الاصح القول: عندما أوحي له) اسم أثار بعض المفاجاءات.. لنستمع أيضاً لفلورا لويس: « كشف سوياتلو النقاب عن أمر يهم الأميركيين أكثر من البولونيين أنفسهم. فقد قال إن هيرمان فيلد كان في إحدى زنزانات سجن بالقرب من فارصوفيا. وانه اشترك في استجوابه ـ بعد أن كان هو شخصياً قد اعتقل فيلد ـ وان كل الاتهامات ضد هيرمان كانت ملفقة. كما قال إنه بعد وقت قصير من اعتقال هيرمان في فارصوفيا وهيرتا في براغ، انتقل بنفسه إلى بودابست لاستجواب نويل وهيرتا فيلد (...). لقد كان يجهل ما حل بنويل وهيرتا، ثم قال ما من شك في أنهما ماتا... ».

توقفت الاعترافات هنا، ولم يعقبها أي توضيح آخر. وعلى الصعيد الرسمي فان « عملية إكس » أو « قضية فيلد ـ سوياتلو توقفت عند هذا الحد... إلى أن نشر ستيوارت

ستيفن سنة ١٩٧٤ كتابه بعنوان « عملية التفجير ».

لقد سبق لنا ورأينا في مكان آخر أن ستيفن صحفي اشتهر بجديته، وشغل وظائف هامة في الصحافة البريطانية. فكتابه ليس « رواية جاسوسية » ولا كتاب مجاملة لناطق رسمي. واذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل ما يبدو بصورة عامة على هذا الصعيد، فإن معاداته للشيوعية تظهر معتدلة، وهو يشدد بصورة خاصة على السياق التاريخي، وعلى بعض التقديرات الجلية. وسرعان ما ندرك لدى قراءته أن الإثارة التي نجدها في عدد كبير من الصفحات، وكذلك المبالغات العلنية بالنسبة لنتائج « العملية » التي يصفها، ليست ناجمة، إلى حد كبير، عن رغبة المؤلف، بل عن طبيعة المواد التي استند إليها. وحتى عندما يدافع عن نفسه ـ وهذا من ضمن اللعبة بصورة عامة ـ فإن الأمر الجلي هو أن هذه المواد قدمتها له المخابرات البريطانية. قدمتها لأي هدف؟ من أجل تذكير السلطة السياسية بانه نتيجة لخطتها « ضاعت فرص » عديدة ولتبيان الحقيقة التاريخية من وجهة نظر معينة لكن إذا أردنا فهم ذلك، يجب العودة إلى سوياتلو.

لقد قرر هذا « المرتد » البولوني « الانتقال إلى الجانب الآخر » ليس في سنة ١٩٥٤، بل قبل ٧ سنوات من ذلك حيث بدأ القيام بالاتصالات اللازمة. وفي هذا الوقت، أي خلال السنوات الاولى لما بعد الحرب، فإن « الاجهزة السرية » الغربية الوحيدة التي كان لها وجود فعلي في بولونيا، هو جهاز الانتلجانس سرفيس البريطاني. إن ضابط الانتلجانس سرفيس الذي قابل سوياتلو في فارصوفيا أرسل إلى لندن رأياً ملائماً من أجل تجنيده. لذا أُدرج اسمه على لائحة أسماء المجندين الآخرين التي يجب، تبعاً للروتين، إحالتها لوزارة الخارجية للحصول على موافقتها الضرورية كي يستطيع « المرتد » دخول الأراضي البريطانية. ولكن يوم وصول اللائحة إلى مكتب الوزير لم يكن وقتاً مناسباً، إذا إن القائد العمالي آرنست بيفين، كان قد طلب إعاد تنظيم الاستخبارات البريطانية و« عملها في الشرق ». إن قادة الانتلجانس سرفيس الذي لم يكن باستطاعتهم استخدام سوياتلو كما كانوا يأملون، سألوا الاميركيين ما إذا كان يهمهم أمر هذا البولوني. على الفور أبدى آلن دالس كل الاستعداد لاستقبال سوياتلو. وتجدر الاشارة هنا إلى أن دالس لم يكن وقتها يشغل أي منصب رسمي.

ومنذ ذلك الحين، لم تجر الأمور كما كان يتوقعها « المرتد » العتيد... فقد كتب ستيوارت ستيفن يقول « فوجيء جوزيف سوياتلو جداً عندما نقل إليه الجواب الذي كان ينتظره من قبل رئيس الشبكة الاميركية شخصياً. والمهمة التي عهدت إليه كانت مثاراً للدهشة. فلم يكن المطلوب منه أن يعمل لحساب الاميركيين أو أن يزودهم بالتحليلات

السياسية ولا اطلاعهم على التطورات السياسية والعسكرية في أوروبا الشرقية، بدلاً من ذلك، كان دوره يكمن في القيام بالعمل الذي يطلبه منه أسياده البولونيون والروس، أي التفتيش عن الجواسيس في كل مكان. وهكذا بدأ يكتشف أن كبار الشخصيات في الحزب هم عملاء في المخابرات الأميركية كما اكتشف مؤامرة تروتسكية واسعة، تمولها الولايات المتحدة وتشمل أراضي كل البلدان الاشتراكية. وأثبت أن التيتووية تعيث فساداً ليس في بولونيا فحسب، بل وأيضاً في المجر، وبلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، ورومانيا، والمانيا الشرقية. ووصل الى بيريا واطلعه ان مركز كل هذه المؤامرة، هو رجل الاتصال بين الخونة وواشنطن، المدعو نويل هافيلاند فيلد، أهم جاسوس أميركي في كل اوروبا الغربية والشرقية على حد سواء. وبيَّن أمامه كيف أدار فيلد أكبر عملية تجسس اميركية في كل الحرب العالمية الثانية متخفياً وراء البعثة «الاونيتاريان». وكشف النقاب عن كيفية استخدام فيلد لمنصبه من أجل استمالة أعضاء الحزب الشيوعي وتجنيدهم فيما بعد كعملاء له، وان فيلد عمل منذ أن غادر هارفارد ولحساب الاستخبارات الأميركية مدعياً أنه رجل يساري أو حتى عضو في الحزب الشيوعي.

أظهر كيف استطاع فيلد إدخال عملائه بعد الحرب إلى اوروبا الشرقية، حيث استولوا على كل المناصب الاساسية في الأحزاب والحكومات، وذلك قبل أن يستطيع الشيوعيون الموالون لموسكو توسيع نفوذهم (...) ووصل به الأمر إلى حد القول إن نويل فيلد بذل كل جهد من أجل تدمير كل الكتلة السوفياتية وأنه كان على قاب قوسين من بلوغ هدفه. كان سوياتلو المطرقة ونويل المسمار (...) إن بعض العملاء الاميركيين الذين كانوا يعملون على الأرض غذوا هذه النفسية عن طريق بث رسائل كودية لا معنى لها، من أجل خلق الانطباع بوجود منظمة كبيرة لها فروع في كل أوروبا الشرقية. وكان المدعو كولونيل بيل (هو في الحقيقة الكاتب الاميركي لاديسلاس فاراغو) يتحدث كل مساء من إذاعة اوروبا الحرة، موزعاً تعليماته على جيش ضخم من العملاء السريين لا وجود له الا في مخيلته. فما ان تعلن الصحافة عن حادثة حصلت على خطوط سكة الحديد أو عن اندلاع حريق ما، حتى كان الكولونيل بيل يوزع من الإذاعة التهاني لرجاله على نجاحهم في آخر مهمة تخريبية قاموا بها.. نستخلص من كل ما تقدم أن الشيء الأساسي المقصود هو «عملية التفجير». ووراء الوضوح الظاهري، يبقى نص ستيوارت ستيفن غامضاً جداً. ويبقى أيضاً أنه من المستحيل الإثبات أن الأحداث التي حصلت كانت نتيجة للتعليمات التي كان يصدرها آلن دالس إلى سوياتلو، وليس نتيجة للتطور الداخلي المأساوي الذي شهدته معظم أنظمة الديموقراطيات الشعبية. يمكن أن تكون الحقيقة موجودة في منتصف الطريق بين التفسيرين: اقتصرت «عملية».وكالة

الاستخبارات المركزية على تسميم الوضع القائم وتعجيل العملية السياسية ـ البوليسية، التي كانت تنفذ. على كل حال يبدو بوضوح أنه من المبالغ فيه الاقتصار، كما فعل بكل بساطة فايان دي فيلمارست، على التأكيد أن: «دالس ادعى ان فيلد، كان خلال الستينات، أداة لأجهزته من أجل بذر الشك والفوضى في أوساط الشيوعيين، هذا ما يسمى بإعادة كتابة التاريخ من أجل التبجح بالذات...».

الفصل الثالث

فرانك ويسنر، أو انتحار «خادم المعبد»

« خطوط جبهة الحزام الصحي » ـ برلين ١٩٥٣ وبودابست ١٩٥٦ ـ « أصمدوا جيداً! أصدقاؤكم من الغرب سيصلون... » ـ كان يتحدث مع مسدسه ـ « برنامج ريدسوكس » للتسلل إلى الاتحاد السوفياتي ـ ٨٧٪ منهم لم يعودوا ـ لماذا « انهار »؟

إن فرانك غاردنر ويسنر الابن، الذي كان يطلق عليه في الوكالة تحبّباً اسم « ويز »، والذي سنكرّس له الصورة الثالثة، كان ـ دون شك ـ أهم « أسياد الحرب »... ففي سنة ١٩٧١ دشنت قاعة « ويسنر ميموريال » في مقر « الشركة » في لانغلي إحياءً لذكراه. لماذا؟

يقول ليونار موسلي في كتابه إن « فرانك ويسنر كان يبدو دائماً وكأنه عائد للتو من رحلة عادية أو من مهمة غريبة: من النفق الذي كانت تحفره وكالة الاستخبارات المركزية تحت الحدود بين برلين الغربية وبرلين الشرقية، أو من جولة في مضائق فورموزا باتجاه البر الصيني، أو من موعد سري في براغ، أو من رحلة صيد في الغابات الفنلندية على طول الحدود السوفياتية. إنه رجل الحرب الباردة، ولم يكن ذلك يزعجه، لأنه كان على إيمان عميق بكل العمليات الفائقة وغالباً اللاإنسانية، التي كان يشرف عليها. وعندما كان يتحدث عن اليوم، الذي أصبح قريباً، حسب رأيه، حيث العالم سيتحرّر من البولشفية، كان وميض من التعصب يلمع في عينيه، وكأن فيلقاً وهمياً من العملاء المقنعين يقف وراءه... ».

هذا الوصف الذي قدمه موسلي، يصبح أكثر وضوحاً عندما نستمع إلى اثنين من أولئك اللذين كانا بشكل من الأشكال من أقرانه ويعرفانه جيداً: هارولد « كيم » فيلبي وتوماس و. برادن. فقد كتب فيلبي يقول عنه: « لقد كان رجلاً صغيراً في السن لمثل هذه المسؤوليات ». في حين إن برادن يقول: « فرانك ويسنر بالنسبة لي كان بطلاً أميركياً أصيلاً. بطل حرب.. بطل الحرب الباردة... ».

لكن ما هي هذه « المسؤوليات » الكبيرة التي ألمح إليها فيلبي؟

في الحقيقة، إن الشخص الذي وصفه ريتشارد هاريس سميث سنة ١٩٤٤ ـ في ذلك

الوقت كان يبلغ من العمر ٣٥ سنة ـ بوصفه « حقوقياً من وول ستريت، صاحب خيال ويتكلّم بلهجة الميسيسيبي »، والذي ولد في لوريل، سرعان ما أصبح رجلاً لامعاً، بعد الحرب العالمية الثانية. وبالفعل فقد كان من أول الذين دخلوا إلى مكتب الاستخبارات الستراتيجية، واشترك في « فرق جودبورغ » (الهبوط بالمظلات في الأراضي المحتلة لمساعدة رجال المقاومة)، وما لبث أن أصبح بسرعة رئيس « محطة اسطنبول ». وبعد أن غادر اسطنبول سنة ١٩٤٤، شغل نفس المنصب في بوخارست. بيد أن طرده من رومانيا في السنة التالية، مهّد له الترقية، حيث شغل لمدة ٣ سنوات، منصب المساعد الرئيسي لآلن دالس في المنطقة الأميركية في المانيا. والعمل الذي نفذه هناك، إلى جانب رئيسه وصديقه، الذي كان هو أيضاً من « حقوقيي وول ستريت »، اعتبر أفضل تحضير لتسلم مناصب هامة جداً. وبعد فترة وجيزة من العمل في وزارة الخارجية، تسلّم في سنة ١٩٤٨ إدارة « مكتب التنسيق السياسي » وبقي فيه حتى سنة ١٩٥٢. وفيما بعد دمج هذا المكتب في أهم فرع من فروع وكالة الاستخبارات المركزية: قسم « التخطيط » أي قسم « الأعمال السرية ». وفي سنة ١٩٥٢ أصبح ويسنر خلفاً للكولونيل كيلبورن. جونسون « نائب رئيس قسم التخطيط »، وأصبح فيما بعد رئيساً لهذا القسم. ونظّم حتى سنة ١٩٥٨ مجمل النشاط السري، ثم أصبح مسؤولاً عن « محطة » لندن قبل أن يتقاعد في سنة ١٩٦٢.

ما من شك في أن شخصية « ويز » هي العنصر الأساسي في تاريخ « مكتب التنسيق السياسي »... يتعلق الأمر، في الحقيقة، بأحد أهم أجهزة التخريب التي عرفها العالم. والأمر الذي له دلالته هو الأسلوب الذي وصف به ويليام كولبي تأسيس هذا المكتب حيث كتب في مذكراته يقول: « إن ويسنر المفعم حيوية وذكاء، لم يوفر أي جهد، إذ استدعى في غضون بضعة أشهر زملاءه السابقين في مكتب الاستخبارات الستراتيجية، وبنى، عبر العالم بأسره، ما يمكن تسميته بسلك جديد لخدام المعابد، مهمتهم الدفاع عن الحرية الغربية ضد الظلامية الشيوعية... ». وتحدث موسلي كيف كان جايمس هانت ـ وهو أحد أقدم أصدقاء دالس ومن قدامى « الوكالة » ـ يحب أن يرى وكالة الاستخبارات المركزية « كمنظمة من النشطاء » يعتبر أعضاؤها أنفسهم من « المناضلين » . وعلى حدّ ما جاء في كتاب دايفيد ويز وتوماس ب. روس أنه « في سنة ١٩٤٨، عندما تقرَّر للمرة الأولى القيام بعمليات سرية في زمن السلم، لم تكن ردة الفعل الأساسية للوكالة هي في طلب الأموال اللازمة من الحكومة ونيل موافقة الكونغرس عليها، بل طلبت المساعدة من الأصدقاء الأغنياء في بروك كلوب النيويوركي... ». وبعد أن أكّد ستيوارت ستيفن هذا الواقع في الحديث عن « مختلف

التحويلات الخاصة »، أضاف إن « أعداء الشيوعية المحترفين في التجسس الأميركي والألماني « بدأوا العمل »، وإن « الإجرام والدم المسفوك أصبحا من العملة المتداولة ».

لا يجب الاعتقاد بأن ويسنر كان مجرد منظّم « للضربات القاسية ». لقد كان سجله أكثر تنوّعاً وميدان عمله أكثر اتساعاً. إن ستيوارت لوري، وهو مراسل سابق لـ« نيويورك هيرالد تريبيون » في موسكو، ثم عمل استاذاً للصحافة في « جامعة أوهايو »، قال عنه « لقد بنى ويسنر منظمة هي بمثابة ماكينة مؤلفة من عناصر عديدة ـ من الجمعيات الخيرية، والنقابات، ودور النشر، والحركة الطلابية ـ هدفها الحطّ من شأن الشيوعية، وترويج الإشاعات عن الجوع في الاتحاد السوفياتي، ودعم الحركة الديمقراطية المسيحية في أوروبا الغربية وتعزيز الصورة الإيجابية للولايات المتحدة في الخارج. وفي ماكينة ويسنر هذه لعبت الصحافة دوراً هاماً... ». وعلى كل حال فإن مؤسس ورئيس « مكتب التنسيق السياسي » كان يشرف على كل شيء تنفذه هذه الماكينة. وهذا ما تحدَّث عنه بإيجاز وبأسلوب ممتاز الاختصاصي السوفياتي فيتالي بيتروشينكو، عندما قال: « فرانك ويسنر يعرف عمله جيداً ».

١٩٤٨ ـ ١٩٥٨ ... حتى نقول كيف كان « العمل » الذي قام به ويسنر عملياً، يجب أن نرسم ١٠ سنوات من ملحمة في محاولة لكشف خفايا « الحرب الباردة ». عشر سنوات من « العمل السري » المستمر حيث « الضربات القاسية » كانت توجه يومياً تقريباً... يقول هاري روزتيزك في مذكراته « أرسل عملاءً لوكالة الاستخبارات المركزية إلى روسيا عن طريق البر والبحر والجو انطلاقاً من سكندينافيا، وألمانيا الغربية، واليونان، وتركيا، وإيران، واليابان(...) وفي بداية الخمسينات كانت العمليات الخاصة لوكالة الاستخبارات المركزية تشكل خطوط جبهة السياسة الأميركية للحزام الصحي. وقد اخترق هؤلاء خطوط العدو، وسبروا تحصيناته على الأرض، وحرضوا المهاجرين ضده، وروَّجوا دعاية هدَّامة بين السكان ودعوا إلى قيام مقاومة مسلَّحة داخل حدوده... ». إن ما كان صحيحاً بالنسبة للاتحاد السوفياتي، كان صحيحاً أيضاً بالنسبة لمجمل « المعسكر الاشتراكي »، ومن ضمنه الصين. وأشار مورتون هـ . هلبرين إلى أن « وكالة الاستخبارات المركزية دبَّرت في مناسبات عديدة عمليات سرية داخل أراضي جمهورية الصين الشعبية(...) فمن أجل إقامة قواعد سرية وخطوط للمواصلات، جرى تدريب عملاء وكالة الاستخبارات المركزية في اليابان، ونُظِّموا ضمن فرق، ثم أنزلوا بالمظلات فوق الصين... ».

إن فرانك غاردنر وسنر الابن الذي يعرف مهنته جيداً، كان يعي أنه من غير الممكن

تنظيم مظاهرات الغضب، وحركات التمرد، إنطلاقاً من لا شيء. فأخذ يستغل إلى أقصى حد كل المصاعب السياسية والاقتصادية التي يمكن العثور عليها في « الديمقراطيات الشعبية ». وفي هذا المجال لا يمكن أن نمر دون التطرّق إلى ما حصل في سنة ١٩٥٣ في برلين، وفي سنة ١٩٥٦ في بودابست.

بصدد اضطرابات ١٧ حزيران ١٩٥٣، من المهم جداً الاطلاع على رأي اختصاصيين لا يمكن مجرد اتهامهما بالعطف على الشيوعية، بل على العكس من ذلك، وهما بيار نور وجاك برجيه. فقد قالا: « إن انتفاضة المانيا الشرقية في حزيران ١٩٥٣، غالباً ما وُصفت بأنها « عفوية » وأن عدداً من معاصرينا يعتقدون أن ذلك كان صحيحاً. في حين انها كانت من عمل وكالة الاستخبارات المركزية(...). إن مسؤولية وكالة الاستخبارات المركزية أكيدة. ومن المحتمل أن يكون المنظِّم عميلها في ألمانيا الجنرال غيهلن(...). فبعض المتظاهرين الذين اعتقلوا كانوا قد قدموا من الغرب وضبطت في حوزتهم خطط وتعليمات من أجل تدمير الجسور، ومحطات سكة الحديد، وإحراق المباني الإدارية، وهذا ما نفذوه حرفياً وبكل شجاعة... ».

بعد مرور ٣ سنوات على ذلك انفجرت أحداث المجر المعروفة. وفي هذا السياق نستند هنا أيضاً إلى مصادر غربية، فماذا نلاحظ بصدد دور « الأجهزة الخاصة »؟...

إن ستيوارت ستيفن كان هنا أكثر وضوحاً عندما كتب يقول: « أرسلت إلى المجر وحدة عسكرية خاصة، مؤلفة من مهاجرين سياسيين درّبت في ألمانيا، من أجل تقديم المساعدة للثوريين. وأخذت إذاعة أوروبا الحرة، التي كانت في ذلك الوقت تحت الاشراف الكلي لوكالة الاستخبارات المركزية، تشجع المتمردين المجريين على الصمود، لأن المساعدة أصبحت على وشك الوصول إليهم(...). وأذاعت المحطة أيضاً معلومات عن كيفية صنع قنابل مولوتوف. فصدّقها المجريون، دون أن يعرفوا أن إذاعة أوروبا الحرة لم تكن تتكلّم بأي اسم آخر غير اسمها الخاص واسم وكالة الاستخبارات المركزية... ».

باسم وكالة الاستخبارات المركزية؟... من الأصح القول: باسم فرانك ويسنر. وبالفعل فما أن علم هذا الأخير بأن اضطرابات ستندلع في المجر، حتى وصل إلى ميونيخ حيث توجد ستوديوهات إذاعة أوروبا الحرة. فهو كان على إيمان راسخ بأن اليوم العظيم قد حان أوانه. ويقول موسلي إن « ويسنر بدأ يروِّج من هذه المحطة سيولاً من الدعاية لتشديد العاصفة وفتح فجوة في جدار السد السوفياتي. ومع اشتداد العصيان وسيطرة المعادين للسوفيات على بودابست، أخذ يرفع من لهجة رسائله قائلاً: « اصمدوا جيداً! أصدقاؤكم من

الغرب قادمون...». كان يعتقد بأن كل الجهود التي بذلها في العمليات السرية والنشاط المعادي للسوفيات أصبحت الآن على وشك حمل الثمار. الشعب منتفض. وجيوشه الخاصة على أهبة الاستعداد. فذهب إلى مكتب آلن دالس وطلب منه الإذن بإعطاء إشارة التقدّم، على أمل أنه لن يمر وقت طويل حتى تسلك المانيا الشرقية، وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا، طريق المجر، وتعود الديمقراطية إلى أوروبا الشرقية. لكنه لم يحصل على هذا الإذن وكان غضبه كبيراً...». وفي الأيام التالية أخذ يستشيط غيظاً ويتهم بعض زملائه «بالخيانة». ثم انطوى على نفسه في منزله، وأخذ يتكلّم مع مسدسه. في الواقع كان فريسة لانهيار عصبي حاد جعل دالس في نهاية المطاف يصدر الأمر من أجل نقله إلى المستشفى.

بعد خضوعه للعلاج في المستشفى الخاص التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، رئس ويسنر لأكثر من سنتين العمليات السرية. إلاَّ أنه لم يستعد أبداً كامل توازنه، خصوصاً بعد أن مني بهزائم كبيرة كانت ذروتها المشكلة المجرية.

لا نريد هنا وضع حصيلة «للعمليات السرية» التي جرت ضد «الكتلة السوفياتية» خلال الحرب الباردة، بل سنتحدَّث بشكل عابر عن بعض النتائج التي نعتبرها كافية لتفسير خيبة أمل مخطط كل هذه العمليات.

يقول فيكتور مارشتي وجون ماركس: «مع أن المنظمة كانت تدعي أن معظم براجها قد تكلّلت بالنجاح، كانت العمليات الفاشلة كبيرة العدد نسبياً. ويمكن أن نورد مثالين على ذلك: الجهود التي بذلت في نهاية الأربعينات، من أجل إنشاء حركات لحرب العصابات في البانيا وأوكرانيا في سبيل «الوقوف في وجه الستار الحديدي» كلها منيت بالفشل. وأسدل ستار من الصمت فيما بعد على هذا الفشل.

وأكدت وكالة تاس السوفياتية أن «وكالة الاستخبارات المركزية كانت تهدف من وراء هذه العمليات إلى خلق البلبلة في الأنظمة الشيوعية في الصين، والاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية. وهذه الجهود ذهبت كلها أدراج الرياح تقريباً، إذ أن كل ما حصلت عليه وكالة الاستخبارات المركزية لم يكن سوى نتائج لا تذكر، من محاولات التسلّل إلى هذه البلدان سواء لجمع معلومات سرية أم للقيام بعمليات فيها...».

وقال فيليب إيج إن «برنامج «ريدسوكس» لإدخال عملاء إلى الاتحاد السوفياتي والبلدان الدائرة في فلك موسكو، خلال الخمسينات، مني بفشل ذريع».

«في سنة ١٩٥٥ لم يعد ٨٧٪ من الجواسيس الذين أرسلهم الأميركيون إلى بلدان الديمقراطيات الشعبية، بسبب اعتقالهم».

وفي نهاية المطاف، وأمام هذه الهزائم المتلاحقة وضع فرانك ج. ويسنر حداً لحياته بإطلاقه رصاصة على رأسه... وبعد انتحاره كتب «كيم» فيلبي يقول إن صديقاً مشتركاً أخبره بأن ويسنر أقدم على الانتحار بسبب عجز وكالة الاستخبارات المركزية عن تقديم المساعدة إلى أعداء الثورة المجريين...». وهنا تجدر الإشارة أيضاً إلى أن قرين ويسنر في الانتلجانس سرفيس، الكولونيل شارل غيلسون، لقي هو أيضاً نفس المصير على حد قول ريتشارد وايكون.

الفصل الرابع

جايمس إنغلتون ، أو شاعر مكافحة التجسس

« مأساته انه كان ذكياً جداً ... » ـ لدى ملاحقته بنشوفيلا ... ـ « جيم » الحائز على وسام من الملك السابق ـ إسرائيل، ميدانه الخاص ـ « في سبيل أميركا آمنة! » .

في عهد « مكتب التنسيق السياسي » كان لفرانك ويسنر « قرين » يشبهه تماماً ولا يشبهه في آن، إنه جايمس جيزو إنغلتون. لهذه الشخصية سنكرّس الصورة الرابعة... ومع ذلك، فعلى العكس من كل المظاهر، فإن شخصية « جايمس » إنغلتون لم تزدهر في الاستخبارات بل في مكافحة التجسس.

ليُسمح لنا في الحديث هنا بايجاز عن ذكريات شخصية... كنا في حديقة تويلري في باريس ضبيحة يوم من أيام آب سنة ١٩٧٧ برفقة أحد كبار موظفي وزارة الداخلية الإيطالية وهو اختصاصي في الشرطة السياسية. ومنذ الحرب وهو على صلة بكل الكوادر المهمة في « الأجهزة الخاصة » الغربية. وعندما ذكرنا أثناء الحديث إسم إنغلتون، توقَّف محدثنا لحظة ثم قال: « تعرفون أن مأساته في كونه ذكي جداً... إن الانحراف المهني العادي جداً لذي رجال مكافحة التجسس، دفعه حتى النهاية... كان يثير دهشتي دائماً. تعقّد الأمور إلى أقصى حد في رأسه. كان يبني خططاً رائعة، لكنها خاطئة في معظم الأحيان... ».

إن هذا الشخص الذي حمل فيما بعد داخل وكالة الاستخبارات المركزية، لقب الشبح الرمادي هو ابن جايمس هيغ إنغلتون، الضابط الذي بدأ حياته في فرقة الجنرال جون ج. برشينغ، ملاحقاً بانشو فيلا. ومن هذه الحملة، عاد بزوجة مكسيكية. وهي التي قرَّرت تسميته جيزو كإسم ثان عندما ولد سنة ١٩١٧، في إيداهو. وبعد أن ترك الجيش أصبح جايمس هيغ إنغلتون رجل أعمال وأقام في فترة ما بين الحربين، في إيطاليا، حيث عمل مديراً لشركة « ناسيونال كاش رجيستر كومباني ». وفي سنة ١٩٤٤ أصبح أيضاً الشخصية الأساسية في غرفة التجارة الإيطالية ـ الأميركية. وقال روبرتو فانزا وماركو فيني في كتابهما: « في

الواقع، إن الشركة التي كان يرئسها ج. هيغ إنغلتون، لم تكن سوى غطاء لنشاطات مكتب الاستخبارات الستراتيجية في شمال إيطاليا...»، ذلك لأن المايجور كان قد عاد إلى الخدمة وجعل منه دونوفان مساعداً للكولونيل كليفتون س. كارتر رئيس منظمته في شبه الجزيرة. وفي مكان آخر كتب عنه موسلي يقول إن «إنغلتون الأب كان معادياً للشيوعية ومجاهراً بآرائه، وقد لعب دوراً أساسياً في خطة عرقلة محاولات الحمر تسلّم السلطة في روما ومدن إيطالية أخرى في نهاية الحرب».

«هذا الشبل من ذاك الأسد» «ـ «جيم» دخل هو أيضاً إلى مكتب الاستخبارات الستراتيجية وأنزل بالمظلة فوق الأراضي المحتلة، ونفذ بنجاح العديد من المهمات الصعبة. وخلال الفترة التي أعقبت حل مكتب الاستخبارات الستراتيجية، وسبقت تأسيس وكالة الاستخبارات المركزية، كُلِّف أن يمثل في روما الأجهزة الستراتيجية الموحدة التي كان يرئسها الجنرال ويليام و. كوين والذي كانت مهمته المحافظة على عدم تفكك الشبكات التي أنشئت خلال الحرب. وأثناء قيامه بهذه المهمات منحته الجمهورية الإيطالية الفتية وساماً، فأصرّ على أن يتسلّمه من الملك السابق لإيطاليا.

بعد ذلك تقدَّم إنغلتون بسرعة في ميدان عمله. ومن المعروف أنه أصدر في جامعة يال، كونه شاعراً، في ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠، مجلة شعرية بعنوان «فوريوزو».

وفيما بعد أصبح منظِّراً للحذر ومحترفاً للشك، واستمر في توطيد وضعه الخاص جداً... وبعد سنتين ونصف من تركه «للشركة» قدَّمه الصحفي الأوسترالي، روي مارتين، في مقابلة من إذاعة «ABC» قائلاً: «مما لا شك فيه أن جايمس إنغلتون كان أحد الوجوه الأساسية في عالم الأشباح هذا، ورجلاً تمتع خلال ٣١ سنة بسلطة واسعة لكنها كانت مغفلة. فلا يمكن العثور على اسمه في أي مكان. إلا أن الصحافة الأميركية، التي بدأت الكتابة عنه في بداية السبعينات، اختارت تسميته «بالمتآمر الفائق جايمس إنغلتون»، لأنه كان خلال العشرين سنة من حياته في وكالة الاستخبارات المركزية رئيساً لمكافحة التجسس...». وتوضيحاً لذلك لم يقل جاك ديروجي وهيسي كارميل في كتابهما أكثر من أن «شهرته كبطل من أبطال معاداة الشيوعية وفَّرت لهذا الشاعر المرهف الحس، وهاوي صيد الأصداف البحرية، مكانة قوية لمدة ربع قرن على رأس العمليات الخاصة لمكافحة التجسس. فمن مكتبه الكائن في جناح محظور في المقر العام لوكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي، بالقرب من واشنطن، كان يدير في آن عمليات كشف العملاء المزدوجين ودسائس السوفيات المعادية في أوروبا الوسطى والشرق الأدنى...». وليس مجرد صدفة أن نأخذ من كتاب

بعنوان «تاريخ إسرائيل السري» القول التالي: «إن القضايا المرتبطة بوجود الدولة العبرية أتاحت لإنغلتون بالفعل أن يجد مجالاً جديداً لعمله، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كان يعمل في هذا الميدان غير آبه للتقسيم الجغرافي العادي للصلاحيات مما حدا بجيم هوغان إلى القول في كتابه «بالنسبة لإسرائيل، كان كل شيء يتخطّى الحدود. وبصورة عملية فإن كل عمليات التجسس التي قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية، والمتصلة بإسرائيل، وضعت مباشرة تحت تصرف الجاسوس الفائق جايمس إنغلتون...».

إن مثل هذه الامتيازات الرفيعة، حتى ولو تم الحصول عليها شيئاً فشيئاً، كانت بصورة خاصة بفضل مساعديه، وإلى حد كبير بفضل «رئيس العمليات» المخلص له نيوتون س. ميلر. وأدَّت في نهاية المطاف الى مفاجأة الكثير من الناس، ومن ضمنهم الأعداء المباشرين، أي السوفيات. فقد كتب فيتالي بتروشينكو يقول: «كان إنغلتون يتمتع بسلطة لا محدودة، ولم يكن عملياً بحاجة إلى أن يقدم التقارير إلى أي شخص، سوى إلى مدير وكالة الاستخبارات المركزية ربما...». إن استخدام بتروشينكو لكلمة «ربما» هنا، يسمح طبعاً، بطرح السؤال التالي: كيف استطاع إنغلتون أن يعمل تحت رئاسة ثمانية مديرين مختلفين لوكالة الاستخبارات المركزية دون أن يستطيع أي من السبعة الأول أن يضع حداً، أو على الأقل، أن يكبح هذه الامتيازات، وكيف أرغم في أيام المدير الثامن، ويليام كولبي، وأزمة سنة ١٩٧٤، على تقديم استقالته؟ الجواب بسيط جداً: لأنه عرف كيف يمارس نفوذه على «مديريه» المتعاقبين. والتوضيح في المثالين التاليين:

قبل أن يكشف النقاب عن واقع أن إنغلتون هو الذي ألقى كلمة الرثاء في مأتم دالس. وأنه هو الذي صاغ رسالة التعزية الرسمية التي أرسلتها وكالة الاستخبارات المركزية إلى عائلته، والتي تليت في المأتم، يقول موسلي إن أحد الألقاب الشائعة لإنغلتون في الخمسينات داخل «الشركة» كان «دون أن يطرق»... لماذا؟ لأنه كان شائعاً عنه أنه «الرجل الذي يستطيع الدخول إلى مكتب آلن دون أن يطرق الباب».

أما شليسينجر الذي بقي على رأس الجهاز لمدة ستة أشهر، أي الوقت الكافي لإجراء بعض التسريحات التي اعتبرت خطأ بمثابة «عملية تطهير» من أجل التخفيف من تضاعف الانتقادات في الصحافة الأميركية في تلك الحقبة ضد «الوكالة»، عن ذلك يقول كولبي: «إن عملية الإقالة والاستقالة، والإحالة على التقاعد، هذه أرغمت ٧٪ من العاملين على ترك وكالة الاستخبارات المركزية(...) لكن مفاجأتي الكبرى كانت اجتياز أحد القدامى لهذا التطهير: وهو جيم إنغلتون. لا أخفي أنني كنت قد أوصيت شليسينجر بإحالة إنغلتون إلى

التقاعد، مبدياً مرة أخرى الشعور الذي يراودني منذ زمن طويل، بأن غروره في العمل أخذ يصبح خطيراً جداً على الوكالة. إلاّ أن شليسينجر تردّد أمام هذا الأمر. يمكن أن يكون سبب ذلك تشدّد إنغلتون كنصير للحرب الباردة، وكمعاد مهووس للشيوعية، مما أثار إعجاب شليسينجر. المهم أنه رفض في النهاية إعفاء إنغلتون...».

انتظر كولبي حتى أصبح هو شخصياً المدير وسرَّح إنغلتون. وأثار عمله هذا بعض قدامى العاملين في «الشركة». ونتيجة للانتقادات اللاذعة بذل كولبي كل جهد في مذكراته من أجل تبرير فعلته هذه. في الواقع، خلافهما يعود إلى عهد دالس، ومصدره الإهانات التي كان يوجهها إنغلتون «اللامع» إلى «تلميذه» كولبي في بعض الخلافات السياسية. إن الفرق في درجة معاداتهما للشيوعية لم يكن ملموساً، إذ أن كولبي كان مناوراً حذراً في حين انزلق إنغلتون نحو الهوس. وبهذا الصدد كتب كولبي في مذكراته يقول: «بالنسبة لإنغلتون فإن كل عملائنا وكل اتصالاتهم وراء الستار الحديدي كانت تحصل بمعرفة من «K. G. B» كما أن كل المرتدين الذين استطاعوا الهرب كانوا مرسلين من قبل الاستخبارات السوفياتية، لم ينجُ أحد من الشك، حتى داخل الوكالة نفسها...». وأضاف يقول: «خلال أحاديث طويلة جداً أجريتها مع إنغلتون، بذلت كل المحاولات من أجل أن أفهم وأقبل نظرياته الغامضة حول المقدرة الفائقة للـ «K. G. B» التي استطاعت بحذاقة شيطانية، إغراق كل أجهزة الاستخبارات التابعة لحلفائنا بالمرتدين المزيفين والعملاء من أجل التصدي للسياسة الأميركية. أعترف أنني لم أنجح في ذلك. إن تفسيرات إنغلتون كانت غير معقولة، كما أن استنتاجاته كانت مبنية على إثباتات غير كافية. وفي الوقت نفسه بذلت جهوداً، ذهبت أدراج الرياح، من أجل أن أكتشف نتيجة ملموسة في ميدان مكافحة التجسس. وهنا فإنني لا أشكك بإنغلتون وفريق عمله بل إنني كنت مجرد عاجز أمام تصوّر ما يمكن أن يختلقه...».

وبعد أن استقال من وكالة الاستخبارات المركزية، في أيام الرئيس فورد، أمضى وقتاً طويلاً في دارته الجميلة الواقعة في منتصف الطريق بين واشنطن ولانغلي، إلى أن قرَّر في سنة ١٩٧٨ إنشاء جمعية «مؤسسة الأمن والاستخبارات» والتي شعارها في سبيل أميركا آمنة. وقد حصل على مساعدات تدعو إلى التفكير... من بين الأشخاص الذين يعملون معه يوجد اسم أول مدير لوكالة الاستخبارات المركزية الأميرال هيلينكوتر (أول أيار ١٩٤٧ حتى ٧ تشرين الأول ١٩٥٠)، وكذلك الجنرال ويليام و. كوين رئيس جهاز استخبارات جيش الولايات المتحدة، وشقيقة آلن وجون فوستر دالس: إليونور لانسينغ دالس.

الفصل الخامس

كيرميت روزفيلت ، أو عرّاب «سوبر ماركس»

استاذ التاريخ في كاليفورنيا ـ « عملية أجاكس » ـ نائب رئيس « غولف أويل » ـ إسقاط عبد الناصر ـ تحريك « الاخوان المسلمين » ـ « رئيس القسم الايديولوجي المعادي للكومينفورم » .

في حين كانت إسرائيل مجال إنغلتون الخاص، كانت البلدان المجاورة، أي مجمل الشرق الأدنى مجال عمل كيرميت روزفيلت، الذي أطلق عليه تحبباً اسم « كيم ». إن حامل هذا الاسم الكبير هو حفيد تيودور روزفيلت، الذي كان الرئيس العشرين للولايات المتحدة في الفترة الممتدة من ١٤ أيلول ١٩٠١ حتى ٣ آذار ١٩٠٩، والذي أطلق عليه معاصروه لقب « الأسد العجوز » و« ذو الأربع عيون » الخ. وقد تميز « تيدي » روزفيلت بنشاطه وباعتماده ما سمي سياسة « الهراوة الكبيرة »، تبعاً لتعبير كان قد أطلقه في خطاب له في شيكاغو يوم ٢ نيسان ١٩٠٣. ومن المعروف عن روزفيلت أنه استمر بعد دخوله إلى البيت الأبيض في مواصلة التدرّب على الملاكمة، في ساعة محدّدة من صباح كل يوم. إن الرئيس روزفيلت الآخر، المعروف جيداً، فرانكلين ديلانو، هو من أقرباء كيرميت. فعمه جنرال يدعى تيودور، قتل سنة ١٩٤٤ على شواطىء النورماندي... بالنسبة له فقد ولد في بيونس ايرس في شباط سنة ١٩١٦، ودرس في هارفارد، حيث تزوج وأصبح استاذاً في التاريخ. ثم بدأ التعليم في كاليفورنيا قبل أن يدخل إلى مكتب الاستخبارات الستراتيجية سنة ١٩٤٣. وعمل بأوامر من دونوفان في إيطاليا والشرق الأدنى. وفي نهاية الحرب بقي فترة قصيرة خارج « الأجهزة الخاصة »، إذ كما يقول كولبي: « كان مكتب التنسيق السياسي قد بدأ برئاسة فرانك ويسنر حملة تجنيد واسعة. وطبيعي أن يجري الاتصال أول الأمر مع الذين سبق لهم وعملوا في مكتب الاستخبارات الستراتيجية لأن لديهم خبرة في العمل السري. إن أول قادة مكتب التنسيق السياسي جرى تجنيدهم بصورة رئيسية من رجال على غرار فرانكلين ليندساي، وكيرميت روزفيلت، وتوم برادين الذين لعبوا دوراً من الطراز الأول في مكتب الاستخبارات الستراتيجية وكانوا يتشوقون للعودة إلى الخط الأول... ».

بعد ذلك بوقت قصير تعرَّف « كيم » فيلبي إلى « كيم » روزفيلت وبدأ يتردّد عليه كثيراً فيما بعد. وقد كتب فيلبي بهذا الصدد يقول: « لقد التقيته للمرة الأولى في واشنطن، حيث كان رئيساً لقسم الشرق الأوسط في أيام ويسنر. وقد أعطيته لقب « الأميركي الهادىء »، قبل أن يكتب غراهام غرين كتابه بخمس سنوات. وبعد دمج مكتب التنسيق السياسي بوكالة الاستخبارات المركزية بقي كيرميت روزفيلت مسؤولا عن الشرق الأوسط، مع كونه ظهر في بعض الأوقات كرئيس « لمحطة » بيروت. واحتفظ أيضاً « بالغطاء » الثقافي. في هذا الصدد يقول ريتشارد هاريس سميث: « إن الدكتور ستيفن بنروز الابن (من المؤسسة الجامعية في الشرق الأدنى) هو الذي كان يجمع المعلومات لمكتب الاستخبارات الستراتيجية، يعاونه في ذلك مساعده البالغ من العمر ٢٧ سنة، أستاذ التاريخ كيرميت روزفيلت (...). وأصبح بنروز في وقت لاحق رئيساً للجامعة الأميركية في بيروت من ١٩٤٨ حتى وفـاتـه سنـة ١٩٥٤ ... ». ان السوفياتي قسطنطين ماسلوف، يعتبر أن روزفيلت كان في ذلك الوقت، وفي هذا القسم من العالم « الشخصية الرئيسية للمناورات التي تدبَّر في الكواليس ». يضيف قائلاً: « إنه كان يعمل بوصفه رئيساً « لجمعية الأصدقاء الأميركيين للشرق الأدنى » التي تأسست سنة ١٩٥١، وفتحت لها مكاتب في مصر، وسوريا، ومراكش، وتونس، وليبيا، والأردن. وبذريعة تعزيز الروابط الثقافية والعلمية للولايات المتحدة مع شعوب العالم العربي، كان « مناضلو » هذه الجمعية يقومون بنشاطات هدّامة وتجسسية ... ».

إن أبهر نجاح أعدَّ له ونفذه حفيد الرئيس لم يكن في هذه البلدان، بل في بلد مجاور، وكان قمة نجاح « الضربات القاسية » التي قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية، مما أتاح له الحصول على لقب: « سيد إيران »، هذا اللقب الذي لازمه دائماً... إن الإطاحة برئيس الوزراء محمد مصدّق في طهران، في منتصف شهر آب سنة ١٩٥٣، جرى الحديث عنها كثيراً. ولكننا هنا سنقتصر على أن نرى مع ويليام ر. كورسون كيف خطط ونفذ « سيد إيران عملية أجاكس ». بالنسبة لكورسون فإن « كيم » روزفيلت هو « مؤرخ مجرّب استفاد من صلاحياته من أجل وضع خطة مناسبة »، وقد استخدم « صفحة من أطروحته حول التقنيات النفسية في الحروب الأهلية البريطانية، ووضع حملة دعائية حول موضوع بسيط ولكنه فعّال جداً ». وهذا الموضوع كان بالطبع معاداة الشيوعية ومعاداة السوفيات. ومقابل ذلك وضع نصب عينيه « ضرورة الحصول على قوة محلية تجنّد في مكانها من أجل تنفيذ العملية ». ويضيف كورسون: « تبعاً لخطة روزفيلت جرى تجنيد قوة من الإيرانيين معارضة لمصدّق بإشراف وكالة الاستخبارات المركزية. وحصلت هذه القوة (أو بالأحرى عصابة الأوغاد

هذه) على معدات عسكرية كانت مخصصة نظرياً للجيش الإيراني...». يتولّد الانطباع بأن الأمر يتعلّق بتصوير فيلم سينمائي أكثر مما هو «التحضير للإطاحة بحكومة». فكل شيء كان يشبه الكرنفال وليس عملية سرية...». وما حصل «يمكن أن يكون أوسع عملية سرية في تاريخ الاستخبارات». وانتهت باعتقال مصدّق في منزله، وقد بلغت تكاليفها زهاء ٢٠ مليون دولار - هذا مبلغ يمكن أن يبدو هائلاً، لكنه زهيد إذا ما قيس بالنسبة للهدف الذي أنفق من أجله، وهو النفط الزهيد الثمن...».

إن كلمة «نفط» هنا تأتي في مكانها المناسب... وبالفعل فبعد مرور ٥ سنوات على «العمل السري» الذي حصل في طهران، استقال كيرميت روزفيلت من وكالة الاستخبارات المركزية، ودخل في إحدى أكبر خمس شركات نفطية في العالم هي «غولف أويل كوربوريشن»، دخل إليها من الباب الواسع، إذ أنه شغل فيها منصب نائب رئيس الشركة المكلّف «بالعلاقات مع الحكومة» الأميركية.

فهل هناك ضرورة لأن نشرح هنا ما تعنيه كلمة «استقالة» من «الشركة»، وبصورة أوسع من كل «الأجهزة الخاصة» تقريباً في العالم. إنها تفقد في هذا المجال معناها التقليدي لترتدي مغزى جديداً هو في الواقع «الغطاء»، أي شكلاً أكثر ملاءمة للنشاط دون الانقطاع أو الابتعاد عن العمل الأساسي. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحصل في مثل هذه الحال هو فقط رفع اسم هذا «الضابط» من لوائح العاملين. وهنا يصر فيلبي على القول إنه عندما التقى روزفيلت فيما بعد، لمرات عديدة في الشرق الأوسط، «وأثناء عمله لحساب «غولف أويل»، كانت علاقاته لا تزال قائمة مع وكالة الاستخبارات المركزية». وبقيت هذه العلاقات قائمة حتى بعد سنة ١٩٦٤، عندما انتقل إلى شركة أخرى، وأصبح، على حد ما قاله ريتشارد هاريس سميث في سنة ١٩٧٢، «شريكاً في مؤسسة للعلاقات العامة في واشنطن تمثّل، من بين ما تمثل من الزبائن الدوليين، الحكومة الإيرانية». وعلى سبيل المثال فقد جاء في مقال عن الكولونيل أنطوني هـ. هربرت، وهو ضابط من «القبعات الخضر»، ومؤلف أحد الكتب «الأكثر رواجاً» عن الفيتنام بعنوان «الجندي»، أن «كيرميت روزفيلت، استخدم هربرت في أواسط الستينات، من أجل جمع المعلومات عن بعض القادة في الشرق الأوسط وافريقيا».

بعد هذا القول يكون من السخرية بمكان الاعتقاد بأن «سيد إيران» لم يكن في برنامجه مهمات أخرى غير إيران... فقبل وبعد عملية إيران، اهتم بشخصيات من الطراز الأول كالملك فاروق في مصر، والرئيس جمال عبد الناصر، ومنظمة «الاخوان المسلمين» الخ.

ليس في حوزتنا سوى القليل من المعلومات عن موقف وكالة الاستخبارات المركزية، من هذا الطاغية المرتشي الذي يصعب اعتباره كآخر خليفة للفراعنة. وفي مجال إيجاز ما هو معروف حول هذا الموضوع كتب دنيس رانكورت يقول: «اتهمت الوكالة بأنها شاركت في بعض الانقلابات منذ سنة ١٩٤٧. ومن هذه الانقلابات، الإطاحة بالملك فاروق بمصر سنة ١٩٥٢. وان العملية قادها(...) كيرميت روزفيلت(...) بالنسبة لوكالة الاستخبارات المركزية، كان ضعف الملك فاروق يمهد السبيل لنمو النشاط الشيوعي في البلاد، لذا تقرر إبداله بشخص مؤيد للأميركيين ومعاد للشيوعية هو جمال عبد الناصر (*)...». تجدر الإشارة هنا إلى الأسلوب المراوغ الذي تحدث فيه رانكورت عن عبد الناصر. وفعلاً فإن القول بأن «الريس» صنيعة من صنائع وكالة الاستخبارات المركزية، هو قول متسرّع ومتسرّع جداً، في هذا المجال. إن أندروي تولي الذي غالباً ما اعتبر كمقرّب من آلن دالس ومعبّراً عن أفكاره، أبدى الكثير من الحذر عندما قال: «مهما يكن الحكم الذي سيصدره التاريخ على عبد الناصر، فلربما كان من الصعب توجيه الثناء أو اللوم إلى وكالة الاستخبارات المركزية. فإذا اعتبرنا أنها كانت قد ساهمت بالفعل في إيصاله إلى السلطة، نتساءل ما إذا كانت تعي المصاعب التي ستترتب عن ذلك. ومن المسلّم به بصورة عامة أنها تعرف كيف تدير مناوراتها، وأنها كانت تعقد كل آمالها على محمد نجيب. لكن بروز عبد الناصر، جعل وكالة الاستخبارات تتصرَّف بشكل لتلافي الأسوأ...». على كل حال العلاقات التي أقامها روزفيلت بصورة خاصة والمنظمة بصورة عامة مع الرئيس المصري، كانت علاقات عاصفة جداً، عاصفة لدرجة أن «الوكالة» قررت فيما بعد التخلّص منه. وفي سنة ١٩٧٦ كتب جون ماركس حول هذا الموضوع يقول: «في الربيع الماضي، أعلن مساعد سابق لمدير وكالة الاستخبارات المركزية لمحطة تلفزيونية إنكليزية (غرانادا) أن وكالة الاستخبارات كانت قد درست مشروع اغتيال عبد الناصر غداة فشل العدوان الثلاثي على السويس سنة ١٩٥٦. وخلال نفس البرنامج أكد كيرميت روزفيلت الذي كان لمدة طويلة الموظف الرئيسي لوكالة الاستخبارات المركزية في الشرق الأوسط(...) أنه تلبية لطلب من لندن، قررت «الشركة» إسقاط عبد الناصر «بثورة من فوق». ولم يتحدث كيرميت روزفيلت عن عملية اغتيال. ومنذ ذلك الحين أصبح من المستحيل الاتصال به من أجل الحصول على أي شيء آخر...».

(*) يعتبر هذا الدس نموذجاً من كتابات رجال الاستخبارات الأميركية «المستقيلين»، ولعله المبرر في سماح «الوكالة لهم بكتابة مذكراتهم».

ورقة أخرى كانت دائماً بيد كيرميت روزفيلت هي جمعية « الاخوان المسلمين ». لقد تأسست هذه المنظمة في ١١ نيسان ١٩٢٩ في الاسماعيلية وكان مؤسسها استاذاً مصرياً يدعى حسن البنا، الذي جرت تصفيته، كما يؤكد، من قبل الاستخبارات المصرية، وهي تستخدم بصورة رئيسية ستار الدين في عملها. عن هذه المنظمة كتب جواد رشيد يقول إن « منظري هذه الحركة تأثروا إلى حد كبير بالنظام الاقتصادي والاجتماعي في المانيا النازية وإيطاليا موسوليني ». ثم يضيف: « إن الاخوان المسلمين هم سلاح ممتاز تستخدمه بعض الدول الغربية التي رأت منذ ١٩٤٠ أن هذه الحركة هي حاجز متين ضد النفوذ الشيوعي و« التغلغل » السوفياتي... ». من كل الذين استخدموا هذه الحركة، فإن « كيم » روزفيلت كان دون شك الأكثر مثابرة، كما ان كلود جوليان يعطي مثالاً جيداً عن الشكل الذي استخدم فيه « الاخوان » عندما يقول: « في سنة ١٩٦٥، وبالتواطؤ مع وكالة الاستخبارات المركزية نظمت جمعية الاخوان المسلمين المحافظة جداً مؤامرة واسعة للإطاحة بالنظام النـاصري، إلا أن المسؤولين الرئيسيين عنها اعتقلوا... ».

فشل هنا ونجاح هناك، في الشرق الأوسط كما في مناطق أخرى، وشهدت « الوكالة » مراحل قصوى ودنيا، وهذا ما لقيه كل الذين قادوا عملياتها.

الفصل السادس

إدوارد لانسدال أو «صانع الملوك»

« ما يريده كندي بالضبط ...» ـ عميل دعائي في لوس أنجلوس ـ مصاص دماء مزور كسلاح في الحرب النفسية ـ « عملية الايحاء » و« شركة الحرية » ـ اغتيال الجنرال شانسون ـ حادث أم اغتيال؟

بعد تركنا كيرميت روزفيلت، نلاحظ أن حفيد الرئيس الملاكم لم يكن محظوظاً بتاتاً مع الألقاب... ونتذكَّر أن « كيم » فيلبي كان قد قال في مكان سابق إن « كيم » الآخر استخدم كنموذج من قبل غراهام غرين في روايته « الأميركي الهادىء ». وما من شك في أن روزفيلت بتصرفه الظاهري كان يستحق مثل هذه التسمية، إلاَّ أنه لم يكن هو الذي ألهم الكاتب الأنكليزي، لأنه على حد ما قيل وكتب غالباً، فإن إدوارد غاري لانسدال هو الشخص الذي تعرَّف إليه غرين وتردَّد عليه في الهند الصينية. ولم يوفّر كاتب المسرحية أي شيء، عندما أدخل لانسدال إلى المسرحية باسم بيلي... إن غرين من جانبه اكتفى بالقول: « يمكن أن يكون هناك المزيد من الريبورتاجات المباشرة في « الأميركي الهادىء » أكثر من أية رواية أخرى من رواياتي... ». إلاَّ أن الاستفزازات التي انتهت بقنابل قاتلة ومناورات ذات نتائج دامية هي التي احتلَّت المرتبة الأولى في هذه الرواية. وبالطبع، فإن لانسدال أبدى دائماً الارتياح في حلمه بأنه ألهم شخصاً آخر هو الكولونيل هيلاندال. لذا رأينا من المهم أن نكرِّس له الصورة السادسة.

هناك أمر مؤكّد على كل حال: من أجل الحديث عن الشخص الذي كان يسميه الأصدقاء « اد » لانسدال، يمكن العثور على أوصاف كثيرة... يقول عنه جان لارتيغي « الجنرال لانسدال شخصية طريفة و« صانع للملوك » ونجم كبير في الأجهزة الخاصة الأميركية... ». ويؤكد الكولونيل جين ليروي أنه « الرجل الأقوى في وكالة الاستخبارات المركزية في جنوب شرق آسيا »... ويقول آلان جوبير « بالتأكيد هو إحدى الشخصيات المعروفة جداً في وكالة الاستخبارات المركزية »؛ و« شخصية شبه أسطورية في وكالة

الاستخبارات المركزية »، على حد قول ويليام كولبي. أما فكتور مارشتي وجون د. ماركس فيقولان إن « نشاطات الكولونيل في القوات الجوية إدوارد لانسدال هي في الظاهر عمليات سرية نموذجية لوكالة الاستخبارات المركزية خلال الخمسينات. وإن دايفيد هالبرستام أحد أفضل المطلعين على الحياة السياسية الأميركية هو الذي وجد أفضل صفة عندما كتب يقول: « لقد اشتهر داخل الحكومة كشخصية معادية للبيروقراطية يجب الحذر منها وغصَّت كل من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع بأخصامه(...) لقد كان لانسدال الشخصية التي يبحث عنها كندي بالضبط...

ويشير هالبرستام أيضاً إلى أن إدوارد غاري لانسدال كان يبدو بمثابة « أحد الأعضاء الأكثر مخالفة للمألوف » في الإدارة. وبالفعل فإذا ما قورن بغيره من كبار الموظفين في « الشركة »، نرى أن مجرى حياته كان غير عادي... إنه من مواليد ٦ شباط ١٩٠٨ في ديترويت (ميشيغان)، ولم يدرس في جامعة مشهورة. إلاَّ أن دراسته في لوس أنجلوس أدَّت به إلى العمل كمجرد موظف في وكالة إعلامية. وعندما دخلت الولايات المتحدة الحرب كان قد بلغ سن الثالثة والثلاثين، وفي سن الـ٣٧ أصبح ضابطاً في الطيران في هيئة أركان الجنرال غلاغر، حيث ظهر بعد ذلك في عالم « الأجهزة الخاصة ». وانطلاقاً من هنا عوَّض كل ما فاته، إذ بدأ يقوم بمهمات ديبلوماسية أو عسكرية، حيث بلغ رتبة « مايجور جنرال »، واكتسب شهرة كبيرة في وكالة الاستخبارات المركزية. ومع ذلك بقيت حياته دائماً حياة عادية لأنها اتسمت بالعديد من مراحل الغياب عن المسرح، وخصوصاً لأنه استمر باستخدام أساليب شخصية جداً في العمل.

وفي سياق الحديث عن هذه الأساليب نورد قبل كل شيء ثورة « الهوك » الشعبية في الفيليبين، ثم حرب الفيتنام.

المثال الأول تحدث عنه الصحفي الأميركي ستانلي كارنو إذ يقول: « إن إحدى عمليات الحرب الأهلية ارتكزت على الإرهاب الخرافي الذي يوحي لسكان الأرياف في الفيليبين بوجود نوع من مصاصي الدماء الخرافيين « الأوسوانغ ». فبعد أن تسلَّل أحد كومندو الحرب النفسية إلى المنطقة، روَّج إشاعة تقول إن أحد « الأوسوانغ » موجود في القطاع الذي يسيطر عليه الشيوعيون. وبعد مرور يومين على رواج الإشاعة بين أنصار « الهوك »، نصب هذا الكومندوس كميناً للثوار. وأثناء مرور دورية للهوك، قبض على أحد أفرادها المتخلفين. فألقي على الأرض وأحدث في عنقه جرحين شبيهين بالجروح التي يحدثها مصاصو الدماء، وبعد أن نزف كلّ دمه ألقي به على قارعة الطريق. إن الثوار، شأنهم شأن

الفيليبيين الآخرين بالنسبة للاعتقاد بهذه الخرافات، فما أن رأوا هذا المشهد حتى ولّوا الأدبار من المنطقة...».

المثال الثاني ويتحدَّث عنه لانسدال بالذات في المذكرات التي نشرها سنة ١٩٧٢ إذ يقول: «ذات يوم كنت أقود سيارتي على طريق فرعية في مقاطعة بامبانغا، حيث اكتشفت اجتماعاً سياسياً. وكان مسؤول سياسي من الهوك يحرّض السكان، معدِّداً المصاعب التي سيعانون منها بالنسبة للمحاصيل والديون والحياة بصورة عامة، محمِّلاً مسؤولية كل هذه المصاعب «للأمبريالية الأميركية». أوقفت السيارة، وما أن انتهى الخطيب من الكلام حتى صحت: «ماذا يحصل؟ ألم يكن لديكم أبداً أصدقاء أميركيين؟». التفت الجمهور مندهشاً ليرى أميركياً بلباسه الرسمي يقف بالقرب من سيارته. عندها راودتني مشاعر الخوف كوني تركت هذا الحماس يأخذ مداه بين فئات من الناس في أرض معادية. إلاَّ أن السكان ما لبثوا أن أعادوا إليَّ الطمأنينة بابتسامة التحية. وتجمَّع حولي الخطيب والعديد من سكان المحلة، وأخذوا يحدّثونني عن أميركيين عرفوهم وأحبوهم، وسألوني ما إذا كنت أنا أعرف أحداً منهم. فقلت لهم ضاحكاً إن هؤلاء الناس الذين عرفتموهم هم «الأمبرياليون الأميركيون» الذين كنتم تندّدون بهم للتو. فأكدوا لي أن أحداً منهم لم يكن امبريالياً. وقد وجدت صعوبة في التخلّص من مظاهر الصداقة التي أبدوها...».

المثال الثالث هو الخرافات الفلكية... ويوجزه آلان جوبير ببعض الكلمات حيث يقول إن لانسدال «طبع كتباً حول التنجيم الفلكي تتنبّأ بأبشع الويلات للفياتمينه». لكن هالبرستام كان أكثر وضوحاً بهذا الصدد عندما تحدَّث عن الدور الذي لعبه في هذه القضية روفوس فيليب، المسؤول عن برنامج «التهدئة» المشؤوم في الفيتنام حيث قال: «إذا اعتبرنا لانسدال بمثابة الشخصية الرئيسية في فلسفة الأميركي الطيّب خلال الخمسينات، نجد أن فيليب خلق على صورته. فبعد أن جنّدته وكالة الاستخبارات المركزية في يال، شارك في أول مجموعة للانسدال، وهو الذي كلّف بالحصول على تنبؤات المنجمين الفيتناميين حول الأيام السيئة للفياتمينه وبالأيام السعيدة لديم...».

المثال الرابع، هو الذي يمكن تسميته «بمدرسة المحظيات»... ويتحدَّث عنه صحفي من «نيويورك تايمز» هو فوكس بوتر فيلد حيث يقول: «تطورت نشاطات المجموعة في نهاية سنة ١٩٥٤ عندما وصل كل أعضائها إلى الفيتنام. وكان لانسدال قد نظَّم صفاً صغيراً لتعليم اللغة الانكليزية «لعشيقات الشخصيات الهامة». وقد سهَّل له هذا الصف القيام بالاتصالات المناسبة، إذ أتاح له التعرّف إلى أشخاص على غرار «المحظية» لدى رئيس

أركان الجيش الجنرال نغوين فان هينه...».

المثال الخامس والأخير: السكر في الوقود... إن الأسلوب الذي يتحدث عنه هالبرستام عن ذلك يستحق التوقف عنده، لأنه يبيّن الأساليب التي اتبعها لانسدال للحصول على النفوذ الذي حازه في نهاية الأمر. في البداية اقتصر هالبرستام على رواية حادثة طريفة، ثم يعود إلى الموضوع فيما بعد مع ظهور شخصية أخرى في عصر كنيدي، هي والت و. روستو. وكان روستو متأثراً جداً بلانسدال وأساليبه. وهنا يقول هالبرستام... «في سنة ١٩٥٤، الأيام الأخيرة من الوجود الفرنسي في الهند الصينية، كانت مجموعة لانسدال في هانوي من أجل وضع السكر في خزانات وقود شاحنات الفياتمينه، وهذا أمر مبهم تماماً. كانت الحرب قد انتهت، وبعد أن هزم جيش قومي آسيوي أمة غربية عظمى من أجل الحصول على استقلاله، نرى خبيراً أميركياً كبيراً في حرب العصابات يستخدم أسخف أشكال التخريب(...). إن تأثير لانسدال على روستو هو أمر طريف: في سنة ١٩٥٤ وضع لانسدال السكر في خزانات وقود الفياتمينه؛ وفي سنة ١٩٦٢ في أوج أزمة الصواريخ الكوبية، في حين كانت الساعة تعد الدقائق والثواني التي تفصل العالم عن مجابهة رهيبة، روّج روستو في واشنطن، في حديثه عن عمليات تخريب ضد الكوبيين، قضية وضع السكر في مصانع تكرير النفط الكوبية، مما يؤدي إلى وقف الانتاج والنقليات في ذلك البلد».

لقد بدأ لانسدال يكتسب الشهرة في الفيليبين حيث نفذ عملية اعتبرت في ذلك الوقت ضربة معلم.

كيف كان الوضع عشية «الحرب الباردة» عندما وصل إدوارد غازي لانسدال إلى مانيلا؟

كانت الفيليبين قد أصبحت سنة ١٨٩٨ من الممتلكات الأميركية، بعد أن انتزعت من الإسبان. وفي سنة ١٩٣٤ منحت ما يشبه الحكم الذاتي وشكلت فيها حكومة برئاسة مانويل كيزون ي. مولينا. وفي الواقع بقيت البلاد تحت حماية الولايات المتحدة. وبعد بيرل هاربور، احتلها اليابانيون بسرعة. فلجأ كثيرون إلى الجنرال دوغلاس ماك آرثر، ثم ما لبث أن رئس حكومة في المنفى. وفي ظل الاحتلال الياباني وأمام سيطرة «المتعاونين»، الذين بقي عددهم قليلاً، شكلت سلطة عميلة بقيادة حزب واحد هو «الكاليبابي». وفي غضون ذلك، وبمبادرة من الشيوعيين، قامت مقاومة شعبية مسلحة عملت بصورة رئيسية في الأرياف تحت شعار «هوكبالاهاب»، ومنها نشأت كلمة «هوك». وخلال سنة ١٩٤٤، قام أكثر من مئة ألف من رجال المقاومة بمساعدة قوات ماك آرثر بتحرير البلاد، وخصوصاً جزيرة لوسون،

أكبر جزيرة في الأرخبيل. ولكن النفوذ الذي حصل عليه «الهوك» أي الحزب الشيوعي ونشاطهم في المقاومة، سرعان ما أثار قلق الأميركيين. فمهد ماك آرثر الطريق لانتخاب مانويل روكساس إلى سدة الرئاسة، وهو سياسي تواطأ بالفعل إلى حد بعيد مع المحتلين اليابانيين... وبصورة نظرية منحت واشنطن، في ٤ تموز ١٩٤٦ الاستقلال إلى الفيليبين. إلاّ أنه على حد قول جان ـ ماري دوبلي وليون مورارد، فإن هذا الاستقلال «أدرك مغزاه شعب الفيليبين بعد مرور سنتين عليه». وفي الواقع منحت معاهدة «بل ترايد اكت» للأميركيين نفس حقوق الشعب الفيليبيني في تطوير موارد البلاد، وهذا يعني ضمان سيطرة المؤسسات الأميركية. وحافظت هذه المعاهـدة أيضاً على القسم الأسـاسي مـن الامتيـازات الاقتصادية للولايات المتحدة. وارتبط البيزو الفيليبيني بالدولار. وأخيراً سمحت معاهدة تحالف، للولايات المتحدة إقامة قواعد بحرية للغواصات وقواعد جوية في هذا البلد...».

وفي مثل هذا الوضع، ذهبت كل جهود الشيوعيين من أجل المشاركة الطبيعية في الحكم والبقاء كحزب علني، أدراج الرياح. واعتباراً من سنة ١٩٤٨، وهذه المرة تحت اسم جيش التحرير الوطني، أعاد «الهوك» تدريب رجالهم واستأنفوا حرب العصابات. وحول هذا النضال المسلح الجديد كتب ويليام ج. بوميروي يقول: «إنه يهدف إلى الحصول على الاستقلال الكامل والتام، والإطاحة بالنظام العميل، وإبداله بحكومة ديمقراطيـة وطنية، وإجراء إصلاح جذري زراعي وإشاعة التصنيع في البلاد...». ويضيف: «إن سرعة انتشار حركة الهوك من لوسون في وسط البلاد إلى كل الفيليبين، والحماس الذي أبداه الشعب في الانخراط في المجموعات المسلحة. يؤكد بكل جلاء أن الجماهير عاقدة العزم على خوض هذا النضال في سبيل الحرية حتى النهاية...». وتجاه هذه الانتفاضة الشعبية لجأ الرئيس الجديد البيديو كيرينو، الذي خلف روكساس إلى أعمال القمع، لكنه لم يكن متشدّداً كما يتمنى الأميركيون. عندها تكفَّلت وكالة الاستخبارات المركزية بتسوية القضية وأرسلت الكولونيل لانسدال إلى هناك.

وبعد مرور ما يقارب الـ ١٢ سنة على ذلك، ترك آلن و. دالس، وثيقة رسمية مكتوبة عن العمل الذي قام به لانسدال فيما بعد، عندما تحدَّث في مذكرة بتاريخ ٢١ نيسان ١٩٦٤ عن حديث كان قد أجراه في حينه مع الرئيس هاري ترومان، عن «مختلف المساعي السرية التي بوشر باتخاذها تحت إشرافه من أجل قمع انتفاضة الهوك في الفيليبين». إن وراء كلمة «مساع» التي يستخدمها دالس هنا، يوجد في الواقع مخطط من ٣ مراحل. وهذا المخطط سينفذه لانسدال مع إغنائه بالأساليب المعروفة: أولاً، سيعيد تنظيم الجهاز البوليسي

والعسكري كلياً من أجل عمليات القمع؛ ثم التفتيش بين السياسيين المحليين عن نجم فيليبيني يمكن الاعتماد عليه سياسياً وإبرازه كمحرك لهذا القمع؛ وأخيراً بذل الجهود من أجل استخدام التجربة المكتسبة في الفيليبين، كجسر لمزيد من التطوير للعمل المعادي للشيوعيين في كل جنوب شرق آسيا.

لقد كانت المرحلة الأولى هي الأسهل بالنسبة لـ «اد» لانسدال. إن الحصول على كافة الإمكانيات واعتبار كل الوسائل جيدة، يؤدي في نهاية الأمر إلى إنهاك رجال المقاومة ويمهد للقضاء عليهم، حتى لو كانوا يتمتعون بعطف الجماهير الشعبية، الذي يمكن أن يحل محل الدعم اللوجستي الذي لا غنى عنه، هذا مع عدم حصولهم على مساعدة خارجية. وقد أوجزت جيداً شهادة لويليام ج. بوميروي، نشرت في مجلة «الأزمنة الحديثة» الأسلوب الذي استخدمه لانسدال: «بعد إعادة المعنويات والانضباط إلى الجيش، واستخدام أساليب التسلل، وتوزيع القوات في المناطق الكثيفة السكان، وتقديم المكافآت للواشين، وتعزيز وحدات عسكرية متحركة وجيدة التسليح، واستخدام وسائل غير عادية (خيّالة، وكلاب، وأفخاخ)، تم في غضون ٣ سنوات من هذه الجهود المتواصلة كسر هذه الانتفاضة، بعد اعتقال أو قتل أفضل قادتها...».

في الحقيقة، عندما استخدم محرر «الأزمنة الحديثة» صيغة المجهول في حديثه لم يكن المقصود منها إدوارد غاري لانسدال مباشرة، بل الشخص الذي وقع عليه الخيار وهو رامون مغسايساي، الذي كان في الأصل نائباً، ثم تقدّم بسرعة مع لانسدال، حيث تمّ تعيينه وزيراً للدفاع الوطني، ثم انتخب في سنة ١٩٥٣ رئيساً للجمهورية. وعندما تبيّن أن هيئة الرئاسة لم تكن كافية، سرعان ما بدأت وكالة الاستخبارات المركزية، الترويج في الصحف، لاسم أطلقته عليه وهو «معبود الجماهير». وهنا تجدر الإشارة إلى أن الانتخابات دبرت بشكل جيد اذ استخدمت فيها «وفقاً لتقنيات الدعاية الأميركية، الأسطورة السياسية، أسطورة مغسايساي»، على حدّ قول جان ـ ماري دوبلي وليون مورارد... لقد كتب الكثير عن المصاعب التي اعترضت طريق «الشركة» في مجال استخدام هذا الشخص. ولكن من الظلم أيضاً عدم الحديث عن الفوائد التي كان يوفرها هذا الاستخدام خصوصاً عندما بدأ يقدّم نتائج مثمرة. إننا لا نقصد هنا الحياة اللامعة ولا المعونات المادية التي لا حاجة للحديث عنها كونها بديهية، بل المقصود هو شيء أغلى بكثير، ومن الصعوبة بمكان الحصول عليه: المجد. إن رامون مغسايساي الذي قتل في حادثة طائرة سنة ١٩٥٧، لم تتخلّ «الوكالة» عن ذكراه. وعاشت «أسطورة مغسايساي» بعد موت رئيس الفيليبين. وبعد مرور ثلاث سنوات من

وفاته، قامت منظمة، تشرف عليها «الوكالة» واسمها «المؤتمر من أجل الحرية والثقافة»، بعقد ندوة واسعة في برلين الغربية إحياء لذكرى وفاته. «وهذه الندوة التي عقدت برئاسة ريمون آرون ضمت زهاء ٤٠ شخصية، انتقدت القضايا التي تطرحها مبادىء ومؤسسات الديمقراطية في عالم القرن العشرين...». وهذه الشخصيات كانت مختلفة جداً: والتر هوفر، وجورج كنيان، وهربرت لوثي، وسلفادور دي مادارياغا، وأندري فيليب، وآرثر شليسينجر، وكارلو شميت الخ، وعلى الأخص حقوقي من الفيليبين هو راول مانغلابوس. وقد أعلن هذا الأخير في مداخلته أمام الندوة أن: «رامون مغسايساي أصبح قائداً بطلاً بعد أن سحق تمرداً شيوعياً، عندما كان لا يزال وزيراً للدفاع الوطني. وقد أصبح بطلاً في آن لأنه قضى على التمرد، وبسبب الوسائل التي استخدمها للتوصل إلى ذلك. ولدى خوضه المعركة تصرَّف بشكل جعل الشعب ـ الأكثرية الساحقة الأمينة لقضية الديمقراطية والأقلية الساخطة التي تمرَّدت ـ يعي أهمية دوره. وقد أعاد المتمردين الذين سقطوا في الأسر إلى مزارعهم، في الأراضي التي يملكها الاقطاعيون وأكد للأمة أن السلطة السياسية لم تعد حكراً على مثقفي المدن، والطبقة الوسطى، بل أصبحت أيضاً في يد سكان القرى. على هذا النحو إنما انتخب رئيساً...». وأثناء المناقشات التي أعقبت ذلك لم يناقش أحد الوقائع التي سردها مانغلابوس، بل على العكس فقد أورد قبله آرثر شليسينجر في تقرير عن «الزعامة البطولية» اسم مغسايساي إلى جانب اسمي سوكارنو ونيكروما (سنتحدَّث عن ذلك فيما بعد) من أجل أن يبيّن أن «البلدان غير الشيوعية الساعية إلى عصرنة نفسها تلجأ إلى شخصيات قوية». ولا حاجة للقول إن أحداً في «الندوة» لم يتحدَّث أيضاً عن أعمال القمع ضد «الهوك» التي ذهب ضحيتها ٢٠ ألف شخص من ضمنهم ٨ آلاف قتيل، على حد ما جاء في بيان نشر سنة ١٩٥٦.

لنتحدَّث الآن عن المرحلة الثالثة من المخطط الذي وضعته وكالة الاستخبارات المركزية والذي طبَّقه لانسدال على أفضل وجه... بعد أن تحدَّث عن سحق «الهوك» قال البروفسور دنيس لومبارد: «... وفي مانيلا بالذات إنما تم في سنة ١٩٥٤ التوقيع على معاهدة منظمة حلف جنوب شرق آسيا، حجر الزاوية في الصراع المعادي للشيوعية في تلك المنطقة». إن اختيار هذه العاصمة للتوقيع على هذه المعاهدة يرتدي قيمة الرمز: بعد استتباب الأمن فيها، ولو ظاهرياً على الأقل، أصبحت مركزاً «للعمل السري» في هذا القسم من العالم. وما أن انتهى عمل «التهدئة» حتى بدأ إدوارد غ. لانسدال إنشاء البنيات الضرورية تحت «أغطية» مناسبة.

وبعد مرور عدة سنوات على ذلك، أي في تموز ١٩٦١، وجه لانسدال إلى الجنرال ماكسويل د. تايلور، المستشار العسكري للرئيس كندي، تقريراً يبدأ بالعبارة التالية: «هذه المذكرة تستجيب لرغبتكم في الحصول على معلومات حول مصادر حرب غير تقليدية في جنوب شرقي آسيا...». وقد كرّس القسم المتعلّق بالفيليبين بصورة رئيسية «لشركة المنشآت الشرقية» و«لعملية الإيخاء» و«لمركز التدريبات الأمنية»، أي الأجهزة الثلاثة التي أنشأها لانسدال منذ زمن طويل، والتي كان الرئيس المنتخب مؤخراً يريد أن يعرف إمكانياتها العملانية.

لنَعُدْ إلى نص التقرير. فقد جاء فيه: «على رأس شركة المنشآت الشرقية يوجد جوني سان جوان، كوماندور سابق في فرقة قدامى المقاتلين في الفيليبين وكان قبل ذلك مساعداً مقرَّباً لرئيس الفيليبين(...). كوادره مؤلّفة بصورة رئيسية من قدامى رجال حرب العصابات ضد اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية، ومن جنود الجيش الفيليبيني، وهذه الكوادر في معظمها لديها تجربة كبيرة في المعارك ضد رجال حرب العصابات الشيوعيين الهوك، في الفيليبين. ويمكن تطوير هذه الكوادر من أجل القيام بمختلف النشاطات ضد الشيوعيين(...). لقد تأسَّست شركة المنشآت الشرقية في سنة ١٩٥٤ بوصفها «شركة حرية الفيليبين»، وهي منظمة غير تجارية، رئيسها الفخري مغسايساي. وتنصّ أنظمتها الداخلية بكل وضوح على وجوب «خدمة قضية الحرية». وهي في الواقع جهاز هدفه إدخال عملاء من الفيليبين إلى بلدان أخرى في آسيا، من أجل القيام بعمليات غير تقليدية، تحت غطاء منظمة للخدمات العامة متعاقدة مع البلدان المجاورة. وهؤلاء العملاء من القوات المسلحة في الفيليبين ومن موظفي الحكومة الذين عملوا في الخارج. وهم بالذات الذين صاغوا دستور جمهورية الفيتنام، وقدّموا المساعدة في تأسيس فرقة قدامى المقاتلين الفيتناميين(...)».

ثم ينتقل لانسدال إلى الحديث عن «عملية الايخاء»... «فقد كتب يقول، هناك منظمة أخرى خاصة في الفيليبين قادرة على التوسّع في مجال العمليات الاجتماعية - الاقتصادية والطبية من أجل مساندة النشاطات المعادية لحرب العصابات. وهي تحوز الآن على فرق عاملة في لاوس، تحت إشراف إدارة التعاون الدولي. كما تشرف عليها إلى حد ما وكالة الاستخبارات المركزية. وقد أنشئت «عملية الايخاء» سنة ١٩٥٤ من قبل الشبيبة المسيحية العالمية، برئاسة أوسكار اريلانو، وهو مهندس فيليبيني كان نائباً لرئيس الشبيبة المسيحية العالمية في آسيا. وهدفها كان تقديم الخدمات الطبية إلى اللاجئين والفلاحين في مقاطعات جنوب الفيتنام، كجزء من برنامج التهدئة ومساعدة اللاجئين في سنة ١٩٥٥. في البداية

عملت فيها فرق من الفيليبين، وفيما بعد فرق من الآسيويين الآخرين والأوروبيين. وكان غمل هذه الفرق يجري بتنسيق كبير مع عمليات الجيش الفيتنامي الذي كان يقوم بتطهير ما تبقّى في المؤخرة من الفياتمينه وإرساء الاستقرار في المناطق الريفية...».

وفي نهاية المطاف يشرح التقرير مهمة «مركز التدريبات الأمنية» بالكلمات التالية: «إنه مدرسة لمكافحة التخريب ومكافحة حرب العصابات وشن الحرب النفسية المكشوفة التي تنظمها حكومة الفيليبين بمساندة سرية من حكومة الولايات المتحدة وباشراف وكالة الاستخبارات المركزية بوصفها أداة لممثليها المدنيين والعسكريين. ومقر هذا المركز في فورماك كينلي في ضاحية مانيلا. ومهمته المعلنة هي «مواجهة القوى الهدّامة في جنوب شرق آسيا، عن طريق التدريبات المناسبة لرجال الأمن والتعاون الأوسع، والتفاهم الأفضل واتخاذ أقصى المبادرات في بلدان المنطقة»... بعد ذلك عاد لانسدال إلى الولايات المتحدة وغاب عن مسرح تلك المنطقة ليعود ويظهر في سنة ١٩٥٤...».

وصل لانسدال إلى فيتنام وبدأ بصورة جدية في «العمل السري» وكان همه الأول العثور على «مغسايساي فيتنامي». وما أن باشر اتصالاته مع السياسيين والجنرالات المعادين للشيوعية، حتى وقع اختياره على نغو دين ديم، وكان على يقين من أنه وجد ضالته التي طالما فتّش عنها.

وبهذا الصدد كتب فكتور مارشتي وجون د. ماركس يقولان: «عندما رشّح ديم نفسه رسمياً لمنصب الرئاسة في جنوب الفيتنام سنة ١٩٥٥ قدّم لانسدال مساعدته في تصميم أوراق الاقتراع. فالأوراق التي تحمل اسم ديم كانت باللون الأحمر، رمز الحظ في آسيا، أما الأوراق التي تحمل اسم منافسه فكانت باللون الأخضر - رمز الزوج المخدوع. وانتخب ديم بأغلبية تفوق بقليل الـ٩٨٪ من أصوات المقترعين؛ وهكذا سجل للانسدال في الأوساط الحكومية الأميركية نجاح مرموق آخر...».

نعود لسنة ١٩٦٣. كان لانسدال آنذاك في الخامسة والخمسين، وهو يجند العملاء من كل نوع وطراز منذ عشرين سنة تقريباً. كما أنه لم يكن مجرّد ضابط في وكالة الاستخبارات المركزية، ولا مجرّد عقيد أو جنرال، إذ انه كان يرتاد وسيظل يرتاد البيت الأبيض، هذا إذا استثنينا فترة قصيرة في أيام أيزنهاور، علماً أن كندي كان يريد في وقت ما تعيينه سفيراً للولايات المتحدة في فيتنام. واعتبره نيكسون على الدوام بمثابة «صديق قديم». أما المندوب الجديد لواشنطن في سايغون، الديبلوماسي و«الرجل القوي» هنري كابوت لودج، فكان يكنّ له احتراماً كبيراً... وأخيراً عندما تقاعد لانسدال في السبعينات قيل عن كل أعماله إنها

كانت في خدمة سياسة الولايات المتحدة كما كان يحدّدها الرؤساء. وإنه اشتهر كخبير في مكافحة حرب العصابات... ولم يحرج نفسه ولو لحظة دفاعاً عن ديم.

أجل، إنه لم يحرّك ساكناً لمنع اغتيال ذلك الرجل، الذي جعل منه قبل ٩ سنوات، الديكتاتور الشكلي لجنوب الفيتنام.

ومن جهة أخرى، ففي سنة ١٩٥٤ عندما أصبح لانسدال «مستشاره» ألم يكن ديم يعرف مع من يتعامل؟ أم إنه لم يكن مطلعاً على قواعد اللعبة؟... لقد كتب جاك رفايل - لويغي في مذكراته عن «المهمات السرية» التي نفذها في الهند الصينية لحساب الحكومة الفرنسية يقول: «إن شقيقه نهو قال لي ذات يوم: «الأميركيون لا يرحمون. فويل لنغو دين ديم ولي إذا لم ننجح!». يا لهذا التعيس الذي توقّع عملية الاغتيال قبل ٨ سنوات، من قبل الأجهزة الأميركية...».

إن رفايل - لويغي، الذي انتخب نائباً ديغولياً سنة ١٩٥٨ ثم أصبح نائباً لرئيس الجمعية الوطنية، يستخدم تعبيراً واضحاً: «الاغتيال من قبل الأجهزة الأميركية». فمسؤولية وكالة الاستخبارات المركزية، في هذه القضية أصبحت بالفعل الآن أمراً مفروغاً منه.

القضية الوحيدة التي تطرح نفسها الآن هي من كان يحرّك العسكريين الفيتناميين الجنوبيين الذين اغتالوا ديم، لحساب «الشركة»... الاسم الذي ورد باستمرار في هذه القضية هو لوسيان كونين، الذي تحدّث عنه كولبي بمثابة «صديق قديم في عملية جودبورغ». لقد تحدّث كولبي بدقة عن دور كونين في الدسائس التي أدّت في ليل ٢ - ٣ تشرين الثاني ١٩٦٣، إلى اغتيال ديم في ضاحية سايغون.

في الواقع، إذا كان كولبي يقدّم بعض التفاصيل، فالقصد منها تبرئة وكالة الاستخبارات المركزية، إذ قال إن كل ما قام به كان تنفيذاً لتوجيهات الديبلوماسيين. لكن التفاصيل المقدمة كانت ذا حدين... من أجل إدراك ذلك، نقول إن كولبي لم يكن في ذلك الحين «رئيس محطة» سايغون، إذ كان قد استدعي قبل سنة ونصف بغية تعيينه رئيساً «لقسم الشرق الأقصى». وخلفه في عاصمة فيتنام الجنوبية جون ريتشاردسون... لنرى الآن ما قاله كولبي: «لقد أخطرنا ريتشاردسون أن رسالة وزارة الخارجية كانت بالنسبة لكابوت لودج بمثابة أمر لتحضير انقلاب ضد ديم وأن الأوامر كانت تنص صراحة على تنفيذ تعليمات السفير بدقة. ومن بين العملاء المعنيين يوجد صديقي القديم لوسيان كونين الذي بدأ القيام بجولات استقصاء للعثور على مسؤولين عسكريين محتملين. إلاّ أن مثل هذا التغيير الجذري لا يمكن أن يحصل بين ليلة وضحاها، وكان من الصعب إلى حد ما تدبير المؤامرة...». وفي

مكان آخر يقول: « اجتمع الجنرالات المتاميون الجنوبيون في مقر القيادة العامة وبدأ الانقلاب. واستدعوا لوسيان كونين للانضمام إليهم وإطلاع وكالة الاستخبارات المركزية تدريجياً على سير العمليات. والأحداث التي حصلت في ذلك الحين أصبحت معروفة ولا مجال لاعادة سردها الآن. لكنني أصرّ مع ذلك على واقع أن القرار الأميركي بصدد هذه الأحداث اتخذ في البيت الأبيض وليس في المقر العام لوكالة الاستخبارات المركزية... ».

إن كونين لم يكن صديق كولبي فحسب بل كان مقرَّباً جداً من لانسدال... وهنا نعود إلى عبارة صغيرة قالها كولبي، عبارة طريفة جداً... طريفة لأن الزمن الذي تحدَّث عنه كولبي يعود إلى وقت مغادرته سايغون، أي قبل سنة ونصف السنة من موت ديم. طريفة أيضاً لأننا لم نسمع أحداً تحدَّث بجدية عن أن روون مغسايساي كان ضحية حادث، بل ضحية اغتيال. فماذا كان يقصد كولبي عندما كتب يقول: « قبل سفري كتبت تقريراً إلى واشنطن حول الخلفاء المحتملين لديم إذا ما تعرض على غرار مغسايساي إلى عملية اغتيال... »؟

كل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد، هو أن عبارة « اغتيال على غرار مغسايساي » تلقي الضوء بشكل غريب على صورة إدوارد غ. لانسدال التي تنتهي هنا... ونعترف بصراحة أن ما قيل كان قليلاً. هذا بانتظار المزيد عما سنعرفه في الصفحات القادمة، اذ اننا سنتحدَّث عن ويليام ا. كولبي بالذات في الصورة السابعة لرجالات وكالة الاستخبارات المركزية.

الفصل السابع

ويليام كولبي ، أو «فينيكس» الاعتراف

« أنا ابن عسكري. . . » ـ والدتي « حسناء كاثوليكية إيرلندية » ـ زار قصور اللوار على درّاجة ـ أنزل بالمظلة « في ضواحي مونتاغـريس » ـ « عقدت قراني على بربارة في كاتدرائية سان باتريك. . . » ـ حقوقي من وول ستريت ـ منظّم « الحرب السرية » في لاوس ـ مسدس كهربائي في مجلس الشيوخ ـ « لماذا اختارني الرئيس ؟ » .

إن ويليام إيفين كولبي الملقّب بـ « بيل » أصبح معروفاً من قرائنا . . . فقد سبق لنا وتحدّثنا عنه كثيراً ، وخصوصاً في نزاعه مع إنغلتون ، حيث اطلعنا على فنه في المناورة . وبما أن الصورة التي أصبحت لدينا هي غير مغلوطة ، بل مجزأة وغير كافية من أجل التعرّف على هذه الشخصية ذات المظاهر الخادعة ، شخصية صعدت خطوة خطوة كل سلّم الترقيات في « الوكالة » خلال ربع قرن من السرية الروتينية ، حتى بلغت منصب المدير ، في وقت كانت فيه « الوكالة » تخضع لتحقيقات من قبل اللجان البرلمانية ، هذه الشخصية لرجل اعتبر دائماً ألطف قادة « الشركة » وأكثرهم دماثة ، في حين لم يتردد الكثيرون أمام وصفه « بمجرم حرب » حطّم الرقم القياسي في قتل الضحايا .

وإذا ما صدّقنا مذكراته ، فإن كولبي كان متأثراً بشخصية والده غير العادية . . . فقد كتب يقول : « أنا ابن رجل عسكري غريب الأطوار . وأعتقد أنه يجب العودة إلى ذلك من أجل العثور على أول تفسير لحياتي . لقد وصل والدي الدريدج كولبي إلى رتبة ملازم بعد وقت قصير من ولادتي ، يوم ١٤ كانون الثاني سنة ١٩٢٠ في سان بول ، في مينيزوتا . إن الحرب العالمية الأولى هي التي قررت اتجاهه هذا ، لكنه بقي بعيداً جداً عن الصورة الكلاسيكية للعسكري المحترف . ومن أجل أن نقول كل شيء فقد بدأ حياته بشكل مختلف جداً : كاتب ، وأستاذ الأدب الانكليزي ومفكّر طريف . اعتنق الكاثوليكية على الرغم من إرادة أسرته ، وأنهى دروسه في جامعة كولومبيا ، وفي بداية الحرب العالمية الأولى بدأ التدريس في جامعة مينيزوتا . وعلى غرار الكثيرين غيره من كتاب جيله ، تحمّس لهذه الحرب وذهب مع

الصليب الأحمر إلى ما يعرف اليوم بيوغوسلافيا. وعندما دخلت أميركا الحرب، التحق بالجيش، ولكن مع أسفه الشديد، لم يرسل إلى الخنادق: أرسل إلى باناما لحراسة القناة. ورافقته زوجته الشابة مارغريت ماري إيفين، وهي كاثوليكية إيرلندية فاتنة التقاها في جامعة مينيزوتا(...). لقد كتب مؤلفات عديدة في التاريخ العسكري، وقام بمهات ضابط صحفي، إذ كتب مقالات لا تحصى للصحافة العسكرية، وكذلك لصحيفة كاثوليكية كبرى. وقدَّر الجيش هذه الصفات فيه فأرسله إلى كولومبيا للحصول على الدكتوراه. ولكن حصلت أيضاً بعض الأمور المؤسفة. ففي سنة ١٩٢٥، عندما كان والدي في حصن فورت بينينغ في جورجيا قُتِل جندي زنجي (يجب أن لا ننسى أن الجيش في ذلك الحين كان خاضعاً لنظام التفرقة العنصرية الصارم) رمياً بالرصاص، لأنه رفض إفساح الطريق لرجل أبيض. وتشكَّلت لجنة محلفين من البيض وبرّأت القاتل من جريمته. أمام هذا الواقع رأى والدي أنه من واجب العسكريين البيض التضامن ضد هذه الجريمة التي أودت بحياة زميل لهم. وبوصفه ضابطاً صحفياً في الحامية، كتب مقالاً ملتهباً لمجلة ليبيرالية متطرفة. وهبَّت الصحافة الزنجية لمساعدة والدي، ولكن كما كان مرتقباً، وقع ضحية حملة عنيفة شنَّها ضده الصحفيون والنواب البيض في جورجيا. فتحرَّك الجيش ونقله إلى فرقة المشاة الـ ٢٤، وهي وحدة مؤلفة بأكملها من الزنوج، ومع أنه حصل على رتبة جديدة وجيدة في الشمال، إلاَّ أن هذه الحادثة أثَّرت لسنوات عليه(...) وفي سنة ١٩٤٨ أحيل إلى التقاعد، برتبة عقيد، ثم أسَّس قسماً للصحافة في جامعة جورج واشنطن...».

ومع كون الدريدج كولبي «عسكرياً غريب الأطوار»، فإنه كان يتمنَّى أن يصبح ولده «بيل» بدوره ضابطاً. وحاول إدخاله إلى مدرسة ويست بوينت العسكرية. ولكن فيما بعد قال كولبي: «لحسن حظي، رفض ترشيحي بسبب ضعف نظري». وعاد للدراسة في برنستاون... «في تلك الحقبة، يقول كولبي، كان فرانكلين روزفيلت يقود البلاد تحت شعار المثالية والإبداع السياسي. لكن تلك السنوات شهدت أيضاً صعود الفاشية في أوروبا(...). وانقسمت أميركا بين انعزاليين ومؤيدين للتدخل. وبالنسبة لي فإنني كنت ليبيرالياً معادياً للفاشية ومؤيداً للتدخل. وكنت متشوِّقاً للتدخل بكل شيء، مع نفاد الصبر الذي يتميَّز به الطلاب الشباب. وفي نهاية السنة الثالثة في برنستاون (١٩٣٩) قررت قضاء عطلتي الصيفية في فرنسا، وذلك حبّاً بالمغامرة (وتعلّم اللغة) واغتنام الفرصة للاطلاع عن كثب على السياسة الأوروبية. وكان والدي قد نظَّم إقامتي مع أسرة في وادي اللوار. لقد كان صيفاً رائعاً. وزرت القصور على الدراجة، مجتازاً قرى جميلة هادئة، وتعلَّمت شرب النبيذ في المقاهي،

وأصبح لديّ عطف كبير تجاه الشعب الفرنسي. لكن ذلك الصيف كان صيف الحرب، التي اندلعت، وكنت لا أزال هناك. وبعد اجتياز بحر المانش، عدت إلى نيويورك على متن سفينة حربية انكليزية استطاعت التخلّص من الغواصات الالمانية في شمال الأطلسي. وهنا لم تعد معاداتي للفاشية أمراً مجرّداً. وكموضوع لأطروحة السنة النهائية، اخترت سياسة فرنسا بصدد حرب اسبانيا. وعلى هذا النحو تساءلت لماذا أظهرت الديمقراطيات هذا القدر من الضعف أمام تصاعد الفاشية. وقد تحيّزت بقوة في أطروحتي للجمهورية وندّدت بالديمقراطية التي لم تدعمها كما يجب ضد فرانكو. إن هذه الديمقراطيات التي ذعرت من الحرب، هي التي ضمنت نجاح هتلر وموسوليني. وكنت أكن نفس الكراهية للشيوعيين. وعلى العكس من العديد من المتعاطفين مع القضية الجمهورية، كنت على اقتناع تام أن المرء يستطيع أن يكون معادياً للفاشية، دون أن يصبح مؤيّداً للشيوعية. وبايجاز، فقد كنت معادياً للشيوعية ومعادياً للفاشية لنفس السبب(...) وفي تلك الحقبة كانت الفاشية هي الخطر الداهم، وهذا كل شيء...».

بعد عودته إلى الولايات المتحدة، حاول كولبي الشاب الالتحاق بالجيش... فقد كتب يقول: «كنت على اقتناع من أن أميركا ستدخل الحرب ضد هتلر. كما أنني كنت على استعداد للالتحاق فوراً لولا الوعي الطبقي الخاص بأبناء الضباط الذي جعلني أنتظر حتى كانون الثاني ١٩٤١ ـ تاريخ بلوغي سن الرشد ـ كي أستطيع الالتحاق كضابط وليس كمجرد جندي(...). وعندما هاجم اليابانيون بيرل هاربور كنت لا أزال ملازماً في مركز التدريب في فور براغ، في كارولينا الشمالية(...)... ثم التحقت بمدرسة المظليين في فوربينينغ، في نهاية سنة ١٩٤٢. إلاّ أنني أصبت بكسر خلال قفزتي الثانية، مما جعلني أنتظر حتى آذار ١٩٤٣، كي أعيَّن كضابط في هيئة أركان وحدة مقاتلة(...) في ذلك الوقت تعرف إليَّ أحد رجال مكتب الاستخبارات الستراتيجية(...) فقبل ذلك لم يسبق لي أن سمعت بمكتب الاستخبارات الستراتيجية. وقد اكتفى المندوب الذي قابلني بالقول إنه يبحث عن ضابط مظلي، يكون في نفس الوقت على اطلاع باللغة الفرنسية وبعض اللغات الأجنبية الأخرى، ومستعداً للتطوّع في مهمة قاسية جداً...».

بعد إقامة قصيرة في أحد مراكز التدريب التابعة لجهاز العمليات الخاصة التنفيذية في بريطانيا عهدت إلى كولبي مهمة النزول بالمظلة في فرنسا، وفي «ضواحي مونتاغريس» بالذات.

نعود مرة أخرى إلى مذكرات «المدير العتيد لوكالة الاستخبارات المركزية»...

فقد كتب يقول: «إن جاك فافيل، ملازم من قوات فرنسا الحرة، لاعب ورق ماهر، وغاو كبير للنساء، اسمه الكودي: غالواي. ولويس جيري، عامل بارع من نانسي، وتقني ممتاز في الإرسال اللاسلكي، اسمه الكودي: بياستر؛ وأنا. في ذلك الحين كنت قائداً للمظليين في الرابعة والعشرين، واسمي الكودي: بركشاير. وشكلنا نحن الثلاثة فريق بروس في عملية جودبورغ. وقد أنزلت أيضاً زهاء ١٠٠ فرقة متعددة الجنسية، كل منها مؤلف من ٣ رجال (بالاضافة إلى الفرنسيين والأميركيين، كان هناك إنكليز، وبلجيكيون وهولنديون) وراء الخطوط الالمانية، خلال الأيام والأسابيع التي أعقبت نزول الحلفاء في النورماندي. أما الهدف فكان مساعدة مجموعات رجال المقاومة على شن هجمات وراء الخطوط الالمانية وإلحاق أكبر خسائر ممكنة بالالمان من أجل إضعاف مقاومتهم في وجه تقدّم جيوش الحلفاء. وكانت مهمة فريق بروس الاتصال بفرقة جان ـ ماري في إيون، وتزويدها بالأسلحة والمؤن وتنسيق نشاطها مع فرق جيش باتون الثالث. وكان المطلوب نسف الجسور، ونصب الكمائن، ومهاجمة المستودعات، وتخريب المواصلات وقطع الطرق والسكك الحديدية، وبالايجاز شن عمليات متواصلة لارباك العدو(...). وفي الأسبوع الثاني من أيلول، أصبحت إيون محرَّرة كلياً(...). فعاد فريق بروس إلى باريس، حيث اجتمع كل الذين بقوا على قيد الحياة من أفراد عملية جودبورغ. وقد التقيت هناك بوب أنستيت، وهو رفيق قديم من كلية الحقوق في كولومبيا. ثم انتقلت من باريس إلى انكلترا. أما فافيل وجيري فقد انضما إلى الجيش الفرنسي. بالنسبة لهما، كانت الحرب قد انتهت، على الأقل في أوروبا. وفيما بعد أرسل جيري إلى الهند الصينية حيث قتل هناك سنة ١٩٤٥، في حين أن فافيل كان أوفر حظاً(...). لكن الحرب لم تكن قد انتهت بعد بالنسبة لي. فعهد إليَّ مكتب الاستخبارات الستراتيجية بمهمة جديدة وراء خطوط الأعداء(...): قيادة مجموعة نورسو التابعة لمكتب الاستخبارات الستراتيجية. ويتعلَّق الأمر بمجموعة مؤلفة من زهاء مئة أميركي من أصل نروجي، ارسلوا للهبوط بالمظلات في شمال النروج بعد أن خدموا في فرنسا، من أجل تخريب خط سكة الحديد، الذي كان يستخدمه الالمان لنقل ١٥٠ ألف رجل قادمين من فنلندا، للاشتراك في المعركة النهائية.

لقد خدمه القدر في الشمال الأقصى كما في إيون، وخرج الضابط الشاب كولبي من الحرب بأربعة أوسمة. عن ذلك يقول: «منحت لقاء مهمتي في فرنسا النجمة البرونزية وصليب الحرب؛ ولقاء العملية النروجية منحت النجمة الفضية ووسام القديس أولاف...». أربعة أوسمة، وخيبة أمل بسيطة... وهنا يضيف قائلاً: بالفعل «لقد تكرَّموا واستدعوني إلى

باريس، إلى مقر القيادة العامة لمكتب الاستخبارات الستراتيجية، حيث سررت برؤية والدي الذي كان في العاصمة الفرنسية. اقترحت على روسيل فورغان، أحد قادة مكتب الاستخبارات الستراتيجية، إرسالي إلى اسبانيا، حيث كنت أتصوَّر، أنه من أجل تكملة النصر على الفاشية، يجب البدء بالعمليات ضد الجنرال فرانكو. إلاَّ أن رئيسي سرعان ما صحَّح لي هذا الضلال، وعندما أدركت أن المهمة الأميركية في أوروبا لم تكن محصورة فقط بالبواعث الإيديولوجية. وبعد وقت قصير عدت إلى نيويورك...».

لقد توسعنا إلى حد ما في مذكرات ويليام إيفين كولبي. وقد فعلنا ذلك بكل طيبة خاطر دون أي تعليق انتقادي، ودون أن نطرح بصورة خاصة السؤال حول معرفة ما إذا كان الكاتب، كما يحصل غالباً في نصوص السير الذاتية، ينزع إلى تجميل الحقيقة. وبالفعل فعندما نستند إلى مذكرات كولبي، قبل ٢٠ سنة، من قبل قدامى مكتب الاستخبارات الستراتيجية، وبصورة خاصة إلى مذكرات روجر ولكوت هول، المعروف بكتابته الساخرة، تأخذنا الدهشة بلهجة الثناء الملفتة التي استخدمها هذا الكاتب عندما تحدَّث عن لقائه مع كولبي في النروج... فقد كتب يقول: «لقد كان أحد قدامى عملية جودبورغ وأحد أبرز قادة حرب العصابات الذين كانت تنشئتهم في مكتب الاستخبارات الستراتيجية(...). وطالب سابق في برانستاون، عاد من فرنسا مع مكافآت في الخدمة. فمنذ اللحظة الأولى تفاهمنا بشكل رائع...».

إن تخصيص مثل هذا المكان لشباب كولبي، والطريقة التي وصل بها إلى «الأجهزة الخاصة» بدا لنا مهماً، لأن هذا التطور والأسلوب الذي استخدمته في الحديث هما خاصان بالجو والحالة النفسية لبداية طريق معظم رجالات الجيل الأول لوكالة الاستخبارات المركزية... وفضلاً عن ذلك، فإن حياة «بيل» كولبي في «الوكالة» كانت لها خصائصها أيضاً. لقد كانت حياة سريعة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنه بدأ ترقياته من القاعدة حتى القمة، وفي كل مرحلة من ترقياته، كان كولبي يجد الفرصة لرفع مستوى ممارسته مع توسُّع ميدان مسؤولياته.

لنر إذن ما هي هذه المراحل الرئيسية، ومن ضمنها البداية، منذ الشروع بتجنيد قدامى مكتب الاستخبارات الستراتيجية لحساب «وكالة الاستخبارات المركزية» الناشئة...

بعد عودته إلى نيويورك، أدرك كولبي أن لا عمله في مكتب الاستخبارات الستراتيجية، ولا المكافآت التي حصل عليها، ولَّدت لديه الميل نحو السلاح. ونشير هنا إلى أن ردة الفعل هذه لم تكن غريبة مع كونه تقدَّم رسميا بسرعة، فإن المئات العديدة من الشبان

الذين خدموا تحت أوامر دونوفان، أخذوا ينزعون إلى الأجهزة الخاصة» أكثر من ميلهم إلى مهنة ضابط. وهنا يقول: «أثناء إجازتي في نيويورك يت القنبلتان الذريتان واستسلمت اليابان. وفي ١٥ أيلول، عقدت قراني على بربارة في كاتدئية القديس باتريك في نيويورك. وأعادني هذا الزواج إلى الطريق الصحيح في الكاثوليكية ا أبعدتني عنها بعض الشيء حياتي كعازب وكمظلي منذ ٣ سنوات. وكون والدتي إيرلنا فإنها سرَّت من ذلك كثيراً. وذهبت معي بربارة إلى واشنطن حيث اهتممنا بمستقبا كان قد تقرَّر نقلي إلى وحدة عسكرية، وكذلك مقر عملي في فورلافينورن، ودخلت إمدرسة القيادة. وكوني أصبحت عقيداً في الخامسة والعشرين، كان بامكاني أن أتقدَّم أكثولكن، الحق يقال، إنني لم أكن أنوي ذلك أبداً، وكنت أنتظر بفارغ الصبر الخروج من لش لاستئناف دراسة الحقوق في كولومبيا...».

إذن ها هو العقيد كولبي يعود إلى الدراسة... ول بهذا الصدد: «كنت أمضي النهار والليل في دراسة كتب الحقوق، وارتياد المكتبات، فطعت عن العالم «الرومنطيقي» للأجهزة السرية. ومن وقت لآخر، كان قدامى عملية جبورغ يجتمعون لتذكار الزمان الماضي، أو كان دونوفان يدعونا إلى الغداء، بربارة وأ في شقته في سوتون بالاس. وبالطبع، عندما نلت شهادة الحقوق في شباط ١٩٤٧، اقترعليَّ معلمي السابق العمل لمكتب دونوفان، الواقع في الرقم ٢ من وول ستريت، هذا المكتبي كان يشغل ٣ طوابق حيث يعمل حقوقيون لامعون، على القضايا الصناعية الكبرى الرنة. وكان يعمل أيضاً في هذا المكتب بعض قدامى مكتب الاستخبارات الستراتيجية الن ساعدوا دونوفان في حملته لانشاء جهاز استخبارات دائم(...). ذات يوم اتصل بي يسي في أوروبا الغربية جيرالد ميلر(...) بعد وقت قصير من وصولي إلى واشنطن، ودعا للغداء. لم نتحدَّث كثيراً عن الزمن الماضي، بل فضلنا مناقشة قضايا الساعة. وبما أن انعف الأحداث كان يثير قلقه، فقد تخلّى عن استئناف مهنته كمصرفي في ميشيغان من أجالالتحاق «بالمؤسسة القديمة» ولكن باسمها الجديد وكالة الاستخبارات المركزية. وقد غمته السرية على البقاء في العموميات، إلاَّ أنني أدركت أنه يلمِّح إلى استئناف نشاطاتسابقة. وانتهى به المطاف إلى الاقتراح علي صراحة «التطوّع من جديد» إلى جانبه...».

«التطوّع من جديد»؟ في البداية تردَّد كولبي بعضشيء... ولكنه، يقول: «في حزيران ١٩٥٠ اندلعت حرب كوريا. غيَّر هذا الأمر كلشيء. الحرب الباردة أصبحت ساخنة، والعدوان الشيوعي أصبح خطراً مباشراً(...). وكي اكتسبت خبرة في مكتب

الاستخبارات الستراتيجية، وبوصفي ملتزماً سياسياً ومحباً للمغامرة، خلقت لأكون في وكالة الاستخبارات المركزية...».

إذن، في تشرين الثاني ١٩٥٠، بدأ ويليام إيفين كولبي رسمياً عمله «كضابط» في «وكالة الاستخبارات المركزية...». ونظراً لعمله الناجح في مكتب الاستخبارات الستراتيجية، أعفاه رؤساؤه من التدريب الخاص قبل أن يعيِّنوه، في مطلع عام ١٩٥١، في مركز في الخارج. ومع الأخذ بعين الاعتبار خبرته النروجية، تم إرساله إلى شبه الجزيرة السكندينافية: تحت غطاء «ملحق في السفارة» في ستوكهولم، وكُلِّف بإنشاء «ممثلية لمكتب التنسيق السياسي» في السويد، ومكتب التنسيق السياسي له نشاطات على النطاق العالمي، وقد رأينا كيف أدارة فرانك ويسنر.

بقي كولبي سنتين ونصف السنة في السويد، وفي خريف ١٩٥٣ نُقل إلى إيطاليا، حيث التقى جيرالد ميلر، الذي «طوّعه من جديد»، وكان يومها رئيس «محطة» وكالة الاستخبارات في إيطاليا. وقد اهتم إلى جانبه، لمدة أكثر من ٥ سنوات بـ«العمليات السياسية»... وقال بهذا الصدد إن «برنامج العمل السياسي الذي رئسته فيما بعد، كان المهمة الأساسية للوكالة في ذلك البلد، كما أن ملايين الدولارات التي أنفقت بهذا الصدد كانت أضخم مبلغ لم يسبق لوكالة الاستخبارات أن خصصته لنشاط من هذا النوع(...). وكان الهدف الرئيسي للعملية دعم أحزاب الوسط السياسية(...). ودعماً لجماعة الوسط، كانت وكالة الاستخبارات تقدِّم لهم مباشرة الأموال الضرورية لتمويل النشاطات السياسية العادية: كل مواد الدعاية، وتنظيم المؤتمرات والاجتماعات العامة، والحملات الانتخابية(...). وكثيراً ما كنت أهتم بالصحافة أيضاً...».

ومكافأة لكولبي على الأعمال التي قام بها في روما عيَّنه آلن دالس في بداية ١٩٥٩ مساعداً لنيك ناتسيوس رئيس «محطة» الفيتنام، في سايغون. وبعد مرور سنة ونصف على ذلك، حلَّ كولبي محل ناتسيوس، ثم غادر سايغون في نهاية صيف ١٩٦٢، ليشغل في لانغلي منصب مساعد ديسموند فيتزجيرالد على رأس قسم «الشرق الأقصى». وأصبح منذ ذلك الحين عضواً في هيئة أركان «الشركة». وكان من الطبيعي أيضاً أن يخلف فيتزجيرالد، الذي أصبح بعد أقل من ٦ أشهر رئيساً «لمجموعة خاصة» كلِّفت القيام بنشاطات ضد كوبا.

ونظراً لتعاظم أهمية الفيتنام في الحياة السياسية الأميركية، تحوّلت إدارة عمليات «الوكالة» في الشرق الأقصى إلى منصب رئيسي. فشغله كولبي لمدة خمس سنوات، أي حتى نهاية كانون الثاني ١٩٦٨. أما «القسم» الجغرافي الذي بقيَ الأهم، على الرغم من انتهاء

« الحرب الباردة »، فهو « قسم » الاتحاد السوفياتي و« الديمقراطيات الشعبية »، أي « قسم الكتلة السوفياتية ». وعشية سنة ١٩٦٨ اقترح على كولبي أن يصبح رئيساً له. وقد قبل بالطبع، وأخذ يدرس اللغة الروسية... ولكن أمام مفاجأته الكبرى، وأمام دهشة « مدير الوكالة » في ذلك الحين ريتشارد هلمز، صدر أمر آخر. أمر من أعلى مرتبة، من رئيس الولايات المتحدة بالذات. فقد قرَّر ليندن جونسون شخصياً أن يصبح كولبي مديراً مساعداً لبرنامج « التهدئة » الذي سينفّذ في الفيتنام. وبما أن هذا البرنامج لم يكن رسمياً من اختصاص وكالة الاستخبارات المركزية، تطلّب هذا التعيين منحه «إجازة مفتوحة» من « الوكالة ». ولا حاجة للقول بأن هذه الإجازة كانت أمراً شكلياً. ودامت إقامة كولبي في سايغون من شباط ١٩٦٨ حتى نهاية صيف ١٩٧١، واجه خلالها هموماً أخرى سنتحدَّث عنها فيما بعد، إلاَّ أنها لم تثر لديه القلق بالنسبة لتقدّمه اللاحق في « الشركة ». ومن جهة أخرى، فعندما عاد إلى لانغلي أصبح بالفعل « المدير الإداري لمراقبة الميزانية ».

رتبة جديدة... إلاَّ أن كولبي لم يكن أكيداً منها. لقد تخوَّف من الوصول إلى « الطريق المسدود في المهنة ». لماذا؟ لأن « المدير المراقب للميزانية » هو في التسلسل الصريح الشخصية الثالثة في وكالة الاستخبارات المركزية، بعد المدير العام ونائبه. لكنني كنت في وضع جيد، يمكنني في الواقع من أن أعرف، أن المسؤوليات الكبيرة كانت تقع على كاهل نواب المدير الأربعة، المكلفين بالتخطيط، والتحليل، والتكنولوجيا والدعم. ويبدو أن هذا المنصب غير قادر على أن يوفِّر لي الفرص لتطوير مفاهيمي في الاستخبارات، وخطره كان يكمن في اقتصاره على تمويل نفقات المقر العام في لانغلي...». ها هو الآن يتخوَّف « بعد حياة نشيطة من الغرق في رمال الإدارة الروتينية ». قلق عابر... وبالفعل، فكما اعترف هو شخصياً فيما بعد: « على الرغم من عدم حماسي لقبول هذا المنصب، فإنني الآن لست نادماً على قراري، لأن وظيفة مراقب الميزانية أتاحت لي، أفضل من أي رتبة أخرى، فرصة إلقاء نظرة شاملة على أجهزة المخابرات، ومشاكلها ومنجزاتها، وتشابكها غير المعقول، وإمكانياتها اللا محدودة تقريباً...».

إن عمل كولبي في هذا المنصب لم يدم سوى فترة وجيزة، إذ تسلَّم في كانون الأول من عام ١٩٧٢، المنصب الذي كان يصبو إليه من كل فؤاده: أصبح نائب المدير لشؤون التخطيط، وهذا يعني، سيد « العمل السري »... ويجب القول إن تغييرات هامة حصلت في تلك الفترة في قيادة « الشركة »: في الإدارة العامة خلف جايمس شليسينجر ريتشارد هيلمز، وقرر « نائب مدير التخطيط » السابق توماس كاراميسين اللحاق بصديقه هيلمز. وهكذا:

« عيّنني شليسينجر إذن نائب المدير لشؤون التخطيط، وهو المنصب الذي كنت أحلم به لدى عودتي من الفيتنام، إذ كنت أعتقد أنه ذروة وكالة الاستخبارات المركزية. وبما أن شليسينجر كان يريد في الوقت نفسه أن أساعده في مجمل مهماته، قبلت أن أصبح سكرتيراً « للجنة إدارية » تضم كل نواب المدير. وكان همي الأول، لدى قبولي إدارة شؤون التخطيط، هو تغيير اسمها، إذ كانت هناك رغبة في تغيير جو السرية الذي يغلّف الوكالة، فوجدت من الملائم تغيير اسم نائب المدير لشؤون التخطيط باسم نائب المدير لشؤون العمليات... ».

هنا يمكن أن نتساءل ما إذا كان ويليام كولبي مخلصاً في تأكيده أنه عندما أصبح نائب المدير لشؤون التخطيط، كان يعتقد أنه بلغ « القمة في حياته »؟. ولكن في ٩ أيار ١٩٧٣، أبلغه الجنرال ألكسندر هيغ أن الرئيس نيكسون قرّر تعيينه على رأس « الشركة ». وبالطبع فإن موظف « الأجهزة الخاصة » عندما يصل إلى منصب « المدير العام للوكالة » يعتبر أنه وصل إلى « أعلى المراتب »؛ ومع ذلك يمكن هنا طرح السؤال ما إذا لم تكن هذه « الرتبة » التي منحت له في أوج فضيحة ووترغيت، بمثابة هدية مسمّمة. إن ما يبدو هنا أكيداً، هو أن كولبي لم يطرح هذا السؤال على نفسه... فالنقطة التي أقلقته بعض الشيء كانت « الشكل المرتجل لتسليمه هذه المسؤوليات الرفيعة. وفوجيء أيضاً، خلال أدائه اليمين، يوم ٥ أيلول في البيت الأبيض « بالرئيس نيكسون الذي كان ذا مزاج مرح »، يطلب منه فقط إبلاغه الأحداث الخارجية قبل أن يطلع عليها من التقارير الصحفية ». ولكن في الحقيقة، كل ذلك لم يكن مهماً بالنسبة لكولبي، كالاستنتاج التالي: « لقد سنحت لي الفرصة أخيراً من أجل أن أضع قيد الممارسة الأفكار التي كوّنتها خلال زهاء ٣٠ سنة من العمل في الأجهزة الخاصة... ».

فرصة لم تنجح كلياً... وبالفعل، لم يبق ويليام إيفين كولبي لمدة طويلة على رأس وكالة الاستخبارات المركزية... ففي ٢ تشرين الثاني ١٩٧٥، أعلن الرئيس جيرالد فورد فصله، الذي أصبح فعلياً ابتداء من يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٧٦، وهو اليوم الذي أدّى فيه خلفه جورج بوش اليمين، وكان قبل فترة قصيرة قد افتتح السفارة في بكين. ورفض كولبي منصب ممثل منظمة حلف شمال الأطلسي، في حين أن سلفيه هيلمز وشليسينجر غادرا لانغلي ليصبحا على التوالي، الأول سفيراً (في إيران)، والثاني (وزيراً للدفاع)، أما هو فاختار الأعمال الخاصة. وهنا نضيف أن ما يقارب الثلاثين شهراً التي قضاها في منصب « المدير العام لوكالة الاستخبارات »، أمضى أكثر منها في المثول أمام لجان التحقيق البرلمانية وليس في

« تنفيذ بعض الأفكار التي كوّنها ».

بعد استعراض حياة ويليام كولبي نستنتج أنه لم يكن يتمتع « بجاذبية » آلن دالس، ولا شبه بينه وبين مأساوية ويسنر.

إن شغفه بـ « العمل السري » تحدَّث عنه هو شخصياً عندما أشار إلى « حبه للمغامرة »؛ وعندما قال عن حياته، إنها « حياة رجل نشيط »، وعندما أخذته النشوة « بالإمكانيات اللامحدودة تقريباً » للأجهزة الخاصة. ولا يجب أن يسهى عن بالنا أيضاً أن روجير هول وصفه منذ سنة ١٩٤٥ بأنه « أبرز قائد لحرب العصابات نشأ في مكتب الاستخبارات الستراتيجية ». وتجدر الإشارة هنا إلى أن قول هول هذا ردّده حتى أولئك الذين انتقدوا بشدة تصرفات كولبي. وهكذا فقد وصفه الصحفي لورانس ستيرن بأنه « الرجل الذي قفز بالمظلة وراء خطوط العدو في أوروبا المحتلة، وهو الذي خطَّط ونفَّذ برنامج « التهدئة » في جنوب الفيتنام، وتخطَّى بصبر البيروقراطية السرية لوكالة الاستخبارات المركزية ». كما أن مارشتي وماركس قالا بصدده إن « ويليام كولبي كان الرجل الذي خطَّط وأشرف على العمليات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية في الهند الصينية، خلال القسم الأكبر من الستينات. وبإشرافه، وبموافقة البيت الأبيض، نظمت « الحرب السرية » في لاوس، حيث انضم ٣٠ ألف محارب من الفئات القبلية، من الميوس أو غيرهم، إلى فرق الجيش السري التابع لوكالة الاستخبارات المركزية. وبقيادة كولبي، أشرف ضباط وعملاء من المنظمة، بشكل مستمر، على المعارك ضد الباتيت لاو ـ وبالمناسبة اشتركوا فيها ـ وقاموا بعمليات القصف، وقادوا غارات للكوماندوس ضد أراضي فيتنام الشمالية والصين، حتى قبل اقتراع الكونغرس على قرار خليج تونكين. وكان كولبي يقود ويشرف على كل هذه العمليات السرية بدقة لا متناهية، بمساعدة ٤٠ إلى ٥٠ موظفاً فقط، مما أثار إعجاب زملائه في وكالة الاستخبارات المركزية... ».

لقد تأكَّدت مهارة كولبي « بالمهمات السرية » عندما أصبح على رأس « الشركة ». وقد نتج عن ذلك بعض التململ في الأوساط السياسية في واشنطن، خلال ربيع ١٩٧٣. وفي كتابها عن نهاية ريتشارد نيكسون، نتيجة لفضيحة ووترغيت، قالت نينا سوتون: « في ١٠ أيار أعلن الرئيس أسماء أولئك الذين اختارهم للحلول محل الـ ١٢ من مساعديه المقربين الذين فقدهم خلال الأسابيع السابقة... ». وكان هذا الاختيار مثارة للانتقاد، « إلاَّ أن تعيين ويليام كولبي في إدارة وكالة الاستخبارات كان صدمة لليبيراليين ». لماذا؟ بسبب « اهتزاز نسبة القوى داخل الوكالة: يتألَّف العاملون في وكالة الاستخبارات المركزية من

فئتين مكلفتين بمهات مختلفة « الاستقصاء » و« العمليات »، والصورة السيئة التي اكتسبتها في العالم، تعود بصورة رئيسية إلى الفريق الثاني. وبالمقابل فإن محلّلي الاستقصاءات يعتبرون بصورة عامة من المثقفين وينتسبون إلى العالم الجامعي أكثر مما ينتسبون إلى زملائهم « العملانيين ». وبصورة عامة تعكس إدارة وكالة الاستخبارات المركزية بعض التوازن بين المجموعتين؛ إلاّ أن تعيين ويليام كولبي على رأس الوكالة لا يمكن أن يعني غير انتصار « أصحاب العمليات السرية » على « المثقفين »... ». هناك ما هو صحيح في قول نينا سوتون، إلاّ أنها مع الأسف أخطأت في مرد معظم المشاكل في « الشركة » إلى التعارض الدائم القائم بين « المحللين » ذوي القلب النقي و« أصحاب العمليات » ذوي النفوس السوداء. وفي الواقع فإن الحدود غامضة جداً بين المجموعتين، إذ أن عدداً من « الضباط » انتقلوا من مجموعة إلى أخرى، والعكس بالعكس. وأظهرت مختلف النزاعات السياسية الداخلية ضعف التحليل الذي يريد وضع « أصحاب العمليات » على « اليمين » و« المحللين » على « اليسار » الخ.

وتبدو لنا مداخلة السيناتور هارولد هوغس الأكثر دلالة بين ردّات الفعل التي أثارها تعيين كولبي. ففي الأول من شهر آب أعلن هوغس من على منصة مجلس الشيوخ: « إنني أتخوّف من تعيين رجل كرّس قسماً كبيراً من حياته لتنفيذ العمليات السرية التي تتضمّن استخدام وسائل القوة وتحريك مختلف الشراذم داخل الحكومات الأجنبية... ».

ومع الجهد الذي بذلناه في رسم صورة ويليام إيفين كولبي، فإننا حتى الآن تركنا جانباً واقعاً أساسياً في حياته، أهم عملية قادها، وطمست حياته إلى الأبد، وجعلت منه، في أسوأ معنى للكلمة، أحد نجوم حرب الفيتنام: « برنامج فنيكس ».

نعود إلى شباط ١٩٦٨... « بيل » كولبي كان يدرس اللغة الروسية لرئيس إدارة « قسم الكتلة السوفياتية » عندما صدر أمر من الرئيس جونسون مباشرة لنقله إلى الفيتنام حيث أمضى هناك أكثر من ٣ سنوات. في سايغون عمل كولبي أولاً مساعداً لروبرت و. كومير رئيس .C. O. R. D. S؛ ثم خلفه عندما عُيِّن هذا الأخير في تشرين الثاني ١٩٦٨ سفيراً للولايات المتحدة في تركيا.

ماذا يعني هذا الاختصار .C. O. R. D. S؟ إنه « دعم العمليات المدنية والتطور الثوري » أو « الريفي ». إن هذا التغيير في الصفتين الأخيرتين يُظهر في الحقيقة أن اسم هذا الجهاز لا أهمية له. ومع أن كولبي اعترض عليه بشدة وأكد أنه أخذ « إجازة مفتوحة » قبل وصوله إلى سايغون. فإن أجهزة « دعم العمليات المدنية والتطور الثوري » أو « الريفي » هي في الواقع نتيجة لتعاون الجيش و« وكالة الإنماء الدولية » التي تشرف عليها وكالة

الاستخبارات المركزية. ومهماتها هي رسم وتنفيذ « برنامج » ما سمي بـ « التهدئة ». و« فنيكس » هو واحد من هذه « البرامج ».

لقد قال البعض عنه في البداية إنه « برنامج » ناجح... وعلى هذا النحو، وابتداء من ربيع سنة ١٩٧١ بدأ الصحفي الفرنسي ماكس كلو يتحدَّث عن « نجاح كبير جداً أحرزه الأميركيون بين سنتي ١٩٦٨ و١٩٧٩: عملية « فنيكس ». وأضاف يقول: « لقد أتاح تصفية الخلايا السياسية ـ العسكرية للفيتكونغ، بصورة خاصة في المناطق المأهولة من دلتا الميكونغ. وكانت النتائج، من وجهة النظر الأميركية، ممتازة. فقد أرغمت جبهة التحرير على سحب القسم الأكبر من كوادرها المعروفين لتلافي إبادتهم جميعاً. ونتج عن ذلك ارتباك في تحرّك الشيوعيين. وما لبثت إدارة وجيش سايغون أن احتلَّت المنطقة وبدأت تنفيذ العمل بيدها. هذا ما سمي بـ « التهدئة ». ولكن، بالطبع، فإن هذا النوع من النجاحات هو مؤقت دائماً... ».

أكثر الأنصار العلنيين للتورّط الأميركي في الفيتنام، لم يشاطروا ماكس كلو تفاؤله بصدد نتائج « فنيكس ». كما أن ليمان ب. كيركباتريك، متخرّج من برانستاون ومن قدامى مكتب الاستخبارات الستراتيجية ـ مثل كولبي ـ وشغل مناصب رفيعة في « الوكالة » قبل أن يتركها سنة ١٩٦٥، وسنتحدَّث عنه فيما بعد، كتب يقول: « إننا نجد أنفسنا هنا أمام إحدى الحالات النموذجية للأخطار التي يمكن أن يشكلها العمل السري، وأبدى قلقه من أن تؤدي مثل هذه الأساليب إلى التقليل أكثر من شعبية حكومة سايغون... قديم آخر من « الشركة »، لا ينتسب بالطبع إلى نفس جيل كيركباتريك، انتقد « هفوات » وكالة الاستخبارات المركزية، إلاَّ أنه لم يتعرَّض أبداً لا إلى ما تصبو إليه ولا إلى وجودها، إنه فرانك سنيب، الذي برهن فيما بعد أن هذا « البرنامج » لا يمكن أن يكون سوى مأساة. فكتب يقول إن « روبرت كومير المحلِّل السابق للاستقصاءات في وكالة الاستخبارات المركزية هو الذي صاغ فكرة التطور الريفي سنة ١٩٦٧، عندما كان يعمل مستشاراً في البيت الأبيض. فقد توهَّم، تصفية الجهاز السياسي للفيتكونغ عن طريق الإرهاب المضاد من جهة، وتعزيز مواقع الحكومة عن طريق تنفيذ أعمال عامة كبرى في الأرياف من جهة أخرى. وتجسَّدت الفكرة لدى الفيتناميين بانشاء وزارة خاصة. وأنشأ الأميركيون من جانبهم جهاز مساعدة العمليات المدنية والتطور الريفي. وفي نهاية ١٩٦٧، حلَّ ويليام كولبي، الرئيس السابق للعمليات السرية في وكالة الاستخبارات المركزية في الشرق الأقصى، محل كومير على رأس هذا الجهاز الجديد، بعد أن كان مساعداً له. وأنشىء جهاز « مساعدة العمليات المدنية » ليكون نموذجاً لتوحيد

البيروقراطية. واختير الموظفون العملانيون من بين موظفي البعثة الأميركية في سايغون. وبما أن وكالة الاستخبارات المركزية هي الأفضل تنظيماً والأكثر غنى بين الاجهزة المدنية في السفارة، فقد أشرفت بنفسها على أبرز مشاريع جهاز «مساعدة العمليات المدنية» ومنها «فنيكس». وكما كان كولبي يردِّد دائماً، كان هدف برنامج فنيكس القبض على كوادر الشيوعيين أحياء، من أجل استجوابهم واستخدامهم فيما بعد في أغراض التجسس. لكن خطته كانت معقَّدة جداً بالنسبة لحلفائنا الفيتناميين. ومن وجهة نظر البيروقراطيين، كان الأمر يتعلق بقضية التحديد. فلا أحد من الفيتناميين أو الأميركيين كان قادراً أن يحدِّد كيف يتعرَّف إلى أحد كوادر الفيتكونغ. إن هذا النقص في دقة التحديد أدَّى بفرق عمل فنيكس إلى العمل كما يحلو لها واعتقال كل من يبدو مشبوهاً. وفيما بعد عندما غصَّت السجون، أخذت هذه الفرق تقرّر بنفسها... القانون...».

ويشير سنيب فيما بعد، دون أي تعليق، إلى أن «تجاوزات فنيكس» بدأت تصل إلى الصحافة الأميركية. إن المقالات التي بدأت تنشر حول هذه «التجاوزات» كان لها أهمية خاصة، إذ أيقظت في الوقت نفسه، تيارين من المعارضة داخل الرأي العام الأميركي: من جهة المعارضين للتورط العسكري المتعاظم باستمرار للولايات المتحدة في الفيتنام، ومن جهة أخرى المعارضين لانتهاك عدد من المبادىء الدستورية والحريات الديمقراطية (خصوصاً من قبل وكالة الاستخبارات المركزية). ودون المبالغة في تقدير عدد هؤلاء المعارضين ولا اتساع الأعمال التي يمكن أن يقوموا بها، فإن مجرد التقاء هذين التيارين زاد بصورة ملحوظة أصداء سخطهم. كما أنَّ تورّط وكالة الاستخبارات المركزية، وهي «موضوع» صحفي بطبيعتها، في أفظع أشكال النزاع الفيتنامي أثار بصورة خاصة وسائل الإعلام. وهكذا قفزت الاعترافات حول «برنامج فنيكس» إلى الواجهة عندما أصبح ويليام كولبي مديراً للوكالة، وخصوصاً عندما أصبح «نجماً» من كثرة مثوله أمام لجان التحقيق البرلمانية. ودون التخفيف من مسؤولياته بشيء، يمكن الملاحظة أن الهجمات ضد كولبي كانت عنيفة لدرجة جعلت منه هدفاً ورمزاً: في نفس الوقت كونه رئيس وكالة الاستخبارات المركزية، وعلى حد تعبير جان ـ بيار فاي «مدير أفظع عملية بوليسية في حرب الفيتنام»!

وقبل أن يترك كولبي لانغلي بعدة أشهر، أوجز ميشال دروسنين في «النيوتايمز» في ماذا كان يكمن، حسب متهميه، دور «المدبر» هذا. وكتب يقول «إن فنيكس صُمِّم، ومولّ، وأدير من قبل وكالة الاستخبارات المركزية؛ ويليام كولبي كان المهندس. فهو الذي أشرف على تكوين فرق المرتزقة، وتجهيز فرق كبيرة من رجال الشرطة السرية ذات

الأساليب الوحشية جداً، كما نظَّم مجموعة من مراكز التحقيق على نطاق البلاد بأسرها، متصوِّراً في النهاية أن فنيكس سيستطيع، تحت غطاء شرعي، القيام « بجملة » قتل جماعية واعتقالات سياسية ... ». إن الصحفي الفرنسي فيليب غافي كان في الولايات المتحدة عندما كشف دروسنين النقاب عن الاعترافات. وإليكم التعليق الذي كتبه في « يوميات رحلته »: « حمام دم. هو مقال لميشال دروسنين نشر في مجلة « نيو تايمز » نصف الشهرية، وفيه تفاصيل حول « حمام الدم » هذا - برنامج فنيكس - الذي فضحه نوام شومسكي في مجلة « شانج » الفرنسية. وهذا المخطط هو أبشع برنامج للاغتيال وضعته الولايات المتحدة، حصيلته: ٤٠ ألف فيتنامي قتلوا لمجرد الاشتباه بأنهم يشكِّلون قسماً من البنية التحتية للفيتكونغ. إن النقيب سيدني تول الابن، الذي كان في ذلك الحين ضابطاً في مكافحة التجسس، وهو اليوم سمسار في بوسطن، تحدَّث عن ذكريات رجاله عندما كانوا يأتون إليه حاملين آذان ضحاياهم من الفيتكونغ. مهمته كانت: القتلّ. ونظمت مباريات بهذا الصدد: الوحدة التي تستطيع أن تقتل أكثر من غيرها خلال الشهر تحصل من حاكم مقاطعة فينه لونغ شخصياً على مكافأة بالدولار؛ لهذا السبب كانوا يجلبون الآذان معهم (...). كما أن دماغاً الكترونياً في سايغون كان يحدد كل شهر حصص « الرجال » (...). كان هناك العديد من المسؤولين عن جهاز مساعدة العمليات المدنية والتطور الريفي في الفيتنام، وجميعهم من رجال وكالة الاستخبارات المركزية. إنهم: إيفان ج. باركر الابن، وجون هـ. ماسون، وجون س. تيلتون. هذا الأخير عمل في بوليفيا لحساب وزارة الخارجية في الوقت الذي اغتيل فيه غيفارا هناك سنة ١٩٦٧. وبغية تعزيز فرق القتلة، استقدم مسؤولو برنامج فنيكس مرتزقة من الولايات المتحدة، وكذلك رجال كومندوس من البحرية و« القبعات الخضراء ». ويتحدَّث عضو سابق من الـ ٥ آلاف مرتزق الذين يشكلون « البروفانسيال ركونيسانس يونيت » كيف كان، بالتعاون مع رجلين آخرين، يقتل أثناء الليل أو عند الفجر، أشخاصاً مشتبه بأنهم من كوادر الفيتكونغ، وهم نيام في أسرّتهم. إن كل قتيل كان يجلب له من دولارين إلى ثلاثة دولارات. وكان يعمل بإمرة مستشار من « القبعات الخضراء » بعد أن خضع لتدريب في مخيّم فونغ تو تحت إشرّاف البخرية، حيث تعلَّم على القتل بهدوء أثناء الليل. وكما يقول شارل بوتر، رئيس عمليات الفيلق الأول من سنة ١٩٦٩ حتى ١٩٧١، وهو عميل لوكالة الاستخبارات المركزية يدير الآن مجمعاً عقارياً في فاريفاكس: « إن الشيء الوحيد المهم، هو الجثث! » ...

إن أعمال التعذيب، والاغتيالات، والمكافآت مقابل القتل... الخ، هي أمور أكَّدتها

شهادات عديدة... وفي مجلة « بنتوز » المعروفة، كتب فكتور مارشتي أنه التقى أحد قدامى « فنيكس » الذي أخبره: « كنا نضع مسماراً في الأذن ونطرقه حتى يتكلّم المعتقل أو نحطّم رأسه إرباً. كما كنا نضع الأسلاك الكهربائية على الأعضاء التناسلية ونزيد التيار حتى يتكلّم أو يفقد الوعي... ». ويتحدَّث ميشال ت. كلار عن الشهادة التي أدلى بها ك. بارون أوسبورن، وهو موظف سابق في « البرنامج » أمام لجنة تحقيق فرعية برلمانية، والتي قال فيها: « إنني لم أرَ أبداً فيتنامياً خرج حياً من التحقيق ». وأكد نوام شومسكي وإدوارد س. هيرمان وجود « نظام ثمن الجثث » الذي طُوِّر فيما بعد، ودفعت بموجبه أسعار خاصة تصل حتى « ألفي دولار مقابل كل فرد حي من مقاتلي الفيتكونغ ونصف هذا المبلغ مقابل كل قتيل. وهنا يضيفان: « أصبحت الاغتيالات منتظمة، يدبّرها مجرمون سابقون أو شيوعيون سابقون باعوا أنفسهم لوكالة الاستخبارات المركزية، أو أيضاً من قبل فرق تقودها وكالة الاستخبارات المركزية، جُنِّد رجالها من بين الأقليات الأتنية، والعسكريين الأميركيين، وأشخاص من الصين الوطنية ومرتزقة تايلانديين. ويقول أحد المتطوعين الأميركيين إنه نقل بسيارته شخصين في دلتا الميكونغ ـ هما عبارة عن مجرمين سابقين ـ أخبراه أنهما عن طريق تقديم بعض الجثث من وقت لآخر، حصلوا على مكافآت وفَّرت لهما الحياة الرغدة. وكان نظام « الحصص » يطبَّق على عدة مستويات. وبهذا الصدد يقول ميشال ج. أوهل، وهو ضابط عسكري سابق في الاستخبارات، إن فريقاً تابعاً لفنيكس « كان يقيس نجاحه... ليس « باحصاء الجثث » فحسب، بل بعدد المعتقلين المدنيين الذين أُلقي القبض عليهم... وبضغط من القيادة فإن كل المعتقلين المدنيين، كانوا يعتبرون مقاتلين من الفيتكونغ. وحسب معلوماتي لم يحصل أبداً أن اعترف أحد من هؤلاء الناس أنه كان كادراً منظَّماً (...). فمعظم المعتقلين المدنيين كانوا من النساء والأطفال... ».

إن الكتَّاب الذين استشهدنا بهم: ميشال دروسنين، وفيليب غافي، وميشال كلار، وفكتور مارشتي، ونوام شومسكي، الخ، يعتبرون « يساريين » سياسياً. وعندما نتذكَّر الجدل العنيف الذي أثارته المناقشات حول الوحشية التي صبغت بها كلمة « تهدئة » في بلدان مختلفة خلال العقود الأخيرة، نتساءل ما إذا لم يحصل الشيء نفسه في الولايات المتحدة بصدد « برنامج فنيكس »، وما إذا لم يعترض أنصار التورّط العسكري الأميركي في الفيتنام على بعض الشهادات حول أعمال التعذيب والمجازر. عملياً لم يرفض أحد بصورة شاملة الاتهامات. ونادرة هي الأصوات التي ارتفعت حول « التجاوزات » المقصودة... لماذا؟ لأن الشيء الأساسي أفشته وكالات الأنباء والمحطات التلفزيونية والصحف الكبيرة. وفي ١٩٧١ ـ

١٩٧٢، نشرت أمور رهيبة... إن التحفظ الوحيد الذي صاغه الصحفيون والمعلقون الذين نددوا، أو أسفوا، أو تحدثوا بكل برودة عن عدم الفائدة الدامية «لفنيكس» هو قولهم، دون أي تفسير آخر، إن «الآخرين، مقابلنا، فعلوا نفس الشيء»... ولا حاجة هنا لمضاعفة الاستشهادات. يكفي أن نكرّر هنا العنوان الذي نشرت تحته صحيفة «لوموند» المقتطفات الرئيسية من نص وزعته أكبر وكالة أنباء في الولايات المتحدة، وهي يونايتد برس انترناشيونال، إنه العنوان التالي: ريبورتاج من وكالة يونايتد برس انترناشيونال الأميركية: الاغتيالات وأعمال التعذيب هي العملة المقبولة لإنجاز برنامج «فنيكس» للتهدئة.

وبما أنه من الصعب إحصاء عمليات التعذيب فإن النقطة الوحيدة التي جرى حولها بعض المناقشة هي العدد الفعلي للضحايا. كم هو عدد القتلى في «البرنامج»؟

لقد رأينا غافي يكتب مستشهداً بدروسنين: «الحصيلة: ٤٠ ألف فيتنامي قتيلاً». إن دنيس رانكورت يردّد هذا التقدير لأن بيرمان وهالبرين من جهة، ومارشتي وماركس من جهة أخرى يوردون نفس الرقم: ٤٠٩٩٤ قتيلاً. وعلى كل حال فكما يذكر كل ثلاثة من أصل أربعة من هؤلاء الصحفيين، نقول إن هذا الإحصاء هو من مصدر فيتنامي جنوبي. إنه ليس الإحصاء الذي صدر عن واشنطن، حيث الحصيلة خُفّضت إلى زهاء النصف، وحيث التقديرات كانت تتغيّر كثيراً: «أكثر من ٢٦ ألف شخص» حسب رانكورت؛ «٢٦٣٦٩» ميشال ت. كلار؛ «٢١ ألف قتيل حسب الأرقام الرسمية الإجمالية» إذا ما صدّقنا شومسكي وهيرمان... أما بالنسبة لوكالة يونايتد برس انترناشيونال فقد جاء في النص الذي نقلته «لوموند»: «إذا ما صدّقنا الأرقام الرسمية: خلال أربع سنوات، ٨٣٨٩٩ شيوعياً جرى «تحييدهم»؛ ٢٠٩٣٦ قتلوا؛ و٤٠٩٩٠ سجنوا و٢٢٠٨٣ أقنعوا بتغيير آرائهم...».

رجال شرطة سايغون لديهم كل الأسباب للتبجح، و«مستشارو» واشنطن لديهم كل الأسباب للتقليل من الأرقام، لذا فمن الصعب الاختيار بين الإحصاءين. ومع ذلك فإننا نلاحظ أن ويليام كولبي يعتمد الإحصاء الثاني، مما يجعلنا نميل لاعتماد الأرقام الصادرة عن الفيتناميين الجنوبيين. ويشير بالفعل كل من مارشتي وماركس إلى أنه «وفقاً لشهادة كولبي بالذات في سنة ١٩٧١، أمام إحدى لجان الكونغرس، أن برنامج فنيكس أتاح خلال سنتين ونصف السنة إبادة ٢٠٥٨٧ شخصاً اشتبه بأنهم ينتمون إلى الفيتكونغ...».

وقد جاء في مذكراته في الفقرة بعنوان: «برنامج فنيكس ـ حقائق واتهامات باطلة»، «من بين كل البرامج التي تألفت منها «مساندة العمليات المدنية والتنمية الريفية»، كانت عملية فنيكس موضوع دعاية واسعة جذبت الأنظار مما جعلني أكرّس لها فقرة خاصة،

الهدف منها كان اكتشاف وتدمير الجهاز السري الذي أنشأه الشيوعيون في الجنوب، والبنية التحتية للفيتكونغ. وقد كان اسمي وثيق الارتباط بهذا البرنامج، ولم أعترض على ذلك، لأنني لا أخاف من تحمّل المسؤوليات. لذا سأحاول هنا تبيان الحقيقة. لقد كان همّنا الأول جمع المعلومات عن البنية التحتية للفيتكونغ. ومن أجل ذلك وضعنا سلسلة من الإجراءات والأساليب الصارمة جداً، لتبيان المعلومات الصحيحة من الخاطئة، فزاد عدد رجال جهاز «مساعدة العمليات المدنية والتنمية الريفية» وفرقه إلى حد كبير، لتقديم المساعدة لمسؤولي برنامج فنيكس في وضع قواعد للعمل، ومعاونة السلطات في وضع ملفات كاملة ودقيقة جداً حول المشبوهين، وفصل الحالات التي نحصل بصددها على اثباتات عن الحالات المشكوك بأمرها. وجرى تقسيم المشتبه بهم إلى ثلاث فئات: (أ) المسؤولون وأعضاء الحزب، (ب) الكوادر الأخرى، و(ج) أعضاء القاعدة والمتعاطفون. واتخذ قرار بتجاهل المشتبه بهم من الفئة (ج)، لأن عملية فنيكس كانت موجهة ضد القادة وكوادر البنية التحتية وليس ضد المؤيدين. وبسرعة حسّنت مراكز فنيكس في النواحي معلوماتها عن البنية التحتية للفيتكونغ وبدأت العمل(...) ولكن بالطبع لم يكن هدف فنيكس كتابة مذكرة أكاديمية عن بنية وعدد رجال الجهاز السري للشيوعيين، بل مقاتلتهم. وهنا صادفنا هفوة أخرى منتشرة جداً: لم يتضمن فنيكس أبداً وحدات مقاتلة، وبالتالي، فإنه لم يشن مطلقاً عمليات مباشرة ضد رجال الفيتكونغ، بل كان يكتفي بنقل المعلومات التي يجمعها إلى مختلف الأجهزة التي لديها القوى الضرورية لمحاربة الفيتكونغ(...). وهناك تهمة أخرى وجهت بإصرار ضد فنيكس وضدي: من أجل تدمير البنية التحتية السرية نظّمنا وأشرفنا على حملة اغتيالات منسّقة أدّت إلى قتل نحو ٢٠ ألفاً بينهم الكثير من الأبرياء. يا لغرابة هذا النفاق. ومنذ سنة ١٩٦٩، وزعت تعميماً ضد أعمال القتل وغيرها من الأعمال المنافية للأخلاق، عندما علمت أن أحد أعضاء جهاز «دعم العمليات المدنية والتنمية الريفية» من العاملين في عملية فنيكس طلب نقله من العمل خوفاً من أن يشارك في عمل يتنافى مع مبادئه الأخلاقية(...). وأضاف يقول: «في سنة ١٩٧١ أدليت بشهادة أمام لجنة تحقيق في الكونغرس، ذكرت فيها رقم العشرين ألف قتيل. إلاّ أنني أعلن فعلاً أنه من سنة ١٩٦٨ إلى سنة ١٩٧١، وفي إطار برنامج فنيكس، اختار ١٧ ألفاً من كوادر الفيتكونغ العفو و٢٠ ألفاً قتلوا. وقد استخدمت كلمة «قتلوا» وليس «اغتيلوا»، ووصلت إلى حدّ التدقيق أن ٨٥٪ منهم قتلوا خلال المعارك التي خاضتها القوات الأميركية أو الفيتنامية وأن ١٢٪ فقط قضوا عن طريق الشرطة أو قوات الأمن. وقلت أيضاً إن معظم هؤلاء الـ١٢٪ قتلوا أثناء الاعتقال لأنهم حاولوا الهرب أو

تعرَّضوا بالقوة لمن جاء ليعتقلهم. إن فنيكس لم يكن هدفه قطعاً اغتيال كوادر الفيتكونغ، وهذا ما بيَّنه تعميم سنة ١٩٦٩. بيد أن ملفات لجنة التحقيق احتوت على ترهات لا تحصى مثيرة للضحك. وخلال المناقشة تبيَّن أن كل الأحداث حصلت سنة ١٩٦٦، أي قبل إنشاء فنيكس، وهذا يعني أن رجال استخبارات الجيش الأميركي هم الذين تورَّطوا وليس رجال برنامج فنيكس. وأصبحت هذه الكلمة رمزاً لكل الأوجه السلبية للحرب. وعندما سئلت ما إذا كان أحد من الفيتناميين أو الأميركيين يمكن أن يكون مسؤولاً عن أعمال القتل في إطار برنامج فنيكس، أجبت أنه من الصعب الإجابة على ذلك. وهذا ما استغلته الصحافة وحوَّلته إلى اعتراف.

الفصل الثامن

ريتشارد هلمس ، أو فكرة ما عن الوكالة

« إننا رجال شرفاء! » ـ صوت عذب و« نظرة شرقية » ـ في المصعد الشخصي « لمدير وكالة الاستخبارات المركزية » . . . ـ مقابلة مع هتلر في الألعاب الأولمبية ـ « يعرف أين دفنت كل الجثث . . . » ـ « نيكسون لا يحب وكالة الاستخبارات المركزية . . . » ـ من كان « جورج بروفوند » ؟ ـ سنتان من السجن مع وقف التنفيذ وألفا دولار غرامة ـ في مكتب الرئيس كارتر . . .

إذا ما اعتبرنا أن ولاية « مدير وكالة الاستخبارات المركزية » تبدأ يوم إعلان عزل سلفه ، أو يوم قسمه اليمين ، يكون ويليام كولبي بقي سنتين ونصف السنة على رأس وكالة الاستخبارات المركزية . وهذه مدة قصيرة إذا ما قورنت ، حسبما قال بيار فايان دو فيلماريست ، بولاية آلن دالس التي دامت ١٠٥ أشهر ، وريتشارد هلمس ٨٠ شهراً ، وجون ماك كون ٤٢ شهراً . وعلى الرغم من المدة القصيرة التي شغل خلالها كولبي منصب المدير ـ باستثناء دالس « الأب المؤسّس » ـ فإن ذلك لا يمنعه أن يكون أحد الاثنين من « الأسياد » القدامى « للشركة » اللذين غالباً ما تردّد اسمها ؛ الآخر هو ريتشارد هلمس . ويبدو أن هناك نوعاً من القربى الدائمة ، حتى لا نقول التوأمية بين كولبي وهلمس . نفس الشعوذة مع الحقيقة والكذب . ونفس المحاباة في الازدواجية ، ونفس الاهتمام بالصحفيين ، ونفس النزوع المتناوب إلى دور كبش المحرقة .

في الواقع لقد سبق لنا أن مررنا بريتشارد ماك غراه هلمس ، الذي أطلقت عليه الحاشية لقب « ديك » هلمس . كما رأينا أن هلمس وكولبي هما المديران الوحيدان لوكالة الاستخبارات المركزية بعد آلن والش دالس ، اللذان وصلا إلى القمة بعد أن كرّسا كل حياتهما لخدمة « الوكالة » . وهما الاثنان الوحيدان أيضاً اللذان اعتبرا نفسيهما من « أعضاء العائلة » ، واعتزّا بذلك كثيراً ، ولهذا السبب كثيراً ما شدّدا على الشرف الذي لا يمكن أن يلطّخ ، وتجرآ على التصدّي للرأي العام والحقيقة التاريخية على هذا النحو . ومن المدهش أن نعاين كيف استخدم هذا وذاك التعابير ذاتها في مناسبات مختلفة . . . وأثناء مداخلة أمام

أعضاء « نقابة الصحافة الأميركية » أي أمام مديري الصحف الأميركية، في نيسان من سنة ١٩٧١، أعلن هلمس: « يجب أن تكون الأمة على اقتناع تام بأننا رجال شرفاء متفانون في خدمتها... ». وفي كانون الثاني من السنة نفسها، وفي « نادي الصحافة القومي »، قال هلمس ذاته: « يجب الوثوق بنا. إننا رجال شرفاء ». وقد سبق أن مررنا بتعبير « رجال شرفاء » هذا - إنه العنوان الذي اختاره كولبي لمذكراته... ومنذ ذلك الحين، ودون إهمال رأي فكتور مارشتي الذي قال لأوليفيه تود في سنة ١٩٧٥: « هناك حاجز داخل وكالة الاستخبارات المركزية بين رجال هلمس - القدامى - ورجال كولبي - الجدد » يجب النظر إليه بحذر. إن موضوع خلاف بين القدامى والجدد داخل « الشركة » هو بالطبع أمر مغر، إلاَّ أنه لم يتأكَّد مطلقاً في الواقع.

لِنَعُدْ إذن إلى صورتنا الثامنة... ونبدأ على الفور بما قاله كولبي بصددها. لقد كان « ديك » هلمس بالفعل، بالنسبة « لبيل » كولبي « قبل كل شيء رجل استخبارات »، ما أن وصل إلى سدّة المسؤولية حتى اهتم بصورة خاصة « بالتشديد على الحاجة إلى « إشاعة الاحتراف » في عمليات التجسس والتجسس المضاد وتعزيز الانضباط في ميدان العمل السري »، دون التخلّي عن « اللياقة والاعتبار اللذين لازمتا علاقاته مع قدامى المؤسسة ». كما إن إدوارد جاي أبستين يقول عنه: « إنه رجل أنيق، طويل القامة، هادىء الصوت، له عينان خارقتان »، في حين أن زوجته الثانية سينتيا أسرَّت للصحفي بنجامين ويلس: « يكفي أن أسمع خطواته من وراء الباب حتى أعرف كيف أمضى يومه. بعض الأيام، يكون لديه ما أسميه « نظرته الشرقية » - التي لا يمكن فهمها. عندها أدرك أنه من الأفضل عدم سؤاله عما حصل ولا أبدأ الحديث إلاَّ عندما أشعر أنه مستعد للاجابة، وليس قبل ذلك. ولكن حتى عندما يتكلّم، يبقى غامضاً بشكل رهيب... ».

إن رباطة الجأش المهنية هذه ولدت مع ريتشارد م. هلمس، أم أنه اكتسبها تدريجياً وجعل منها قوقعة؟ يمكن أن نعرف ذلك ذات يوم، إذا ما نشر على غرار أقرانه أو موظفيه، مذكراته... حتى الآن سنقتصر على معاينة « مراقبته الذاتية » كانت ممتازة دائماً، إذ لم يشر سوى لحالة واحدة، استشاط فيها هلمس غاضباً، مناسبة واحدة فقد خلالها رباطة جأشه. وبهذا الصدد يقول توماس باور « مرة واحدة فقط، وقد حصلت في ٢٨ نيسان ١٩٧٥، حين مثل هلمس أمام لجنة روكفلر التي استدعته ليس بخصوص ووترغيت، لكن بخصوص اغتيالات كان يعرف عنها الكثير ولا يريد البوح سوى بالقليل(...). إن الصحفي دانيال نور كان ينتظر خارج قاعة الجلسات وعندما اقترب من هلمس(...) عندها صرخ

هذا الأخير قائلاً « يا ابن العاهرة! » موجهاً كلامه إلى ذلك الذي أفشى بالسر المحرج. « إنك قاتل! القاتل شور هذا هو اسمك! ». ولكن بعد بضع دقائق، استعاد هلمس هدوءه واستمع إلى أسئلة شور ... ».

إن هذا السيل من الشتائم المسعورة يقول الشيء الكثير عن الاهانات التي قبلها بصمت رجل يمثّل تماماً « أعضاء العائلة » ونفسيتهم الجماعية. إلاّ أن مثل هذا الغضب لا يجسّد فقط الشعور بالجور الذي يخالج رجال « الشركة » حتى أمام فضولية مشروعة، كما أنه يخون أيضاً الصعوبة التي يعاني منها « ديك » هلمس أمام القيام بدور نسبه هو إلى نفسه: أن يكون المرء رمزاً لوكالة استخبارات مركزية لائقة ومناسبة، لا يعمل فيها غير « الرجال الشرفاء ». وهكذا، فبعد خمس سنوات من تسلّمه منصب مدير وكالة الاستخبارات المركزية، نشر في « النيويورك تايمز » ما يلي: « كانت إحدى أهم مشاغله في الواقع هي محو صورة المدير القائلة بأنه رجل يتحرّك في السر. فإذا كان السيد هلمس يدير « امبراطورية غير مرئية »، وهو تعبير استخدم أحيانا كاسم لوكالة الاستخبارات المركزية، فإنه هو شخصياً امبراطوراً مرئياً(...) يحب رفقة النساء الجميلات ـ الشابات والأكثر شباباً ـ وهن يجدن فيه مضيفاً رائعاً وراقصاً ممتازاً. ويلومه بعض منتقديه على إقامته علاقات وثيقة جداً مع الصحافة، في حين أن البعض الآخر يقول بأنه يستخدمها لأغراضه ولأغراض الوكالة بنباهة لا متناهية. إن العلاقات « الوثيقة جداً » التي أقامها ريتشارد هلمس مع الصحافة كانت بالطبع أقوى من تلك التي أقامها أسلافه وخلفاؤه على رأس وكالة الاستخبارات المركزية. وكانت أيضاً من طبيعة مختلفة. إنها لم تكن رقصة التردّد التي أداها « النجم » آلن دالس حول وسائل الإعلام من أجل تعزيز شهرته وأساطيره، ولا الرقم القياسي من المقابلات الذي حطّمه ويليام كولبي، إذ ترك دائماً بابه مفتوحاً أمام طالبي الاستفسارات حول النشاطات المشبوهة « للشركة ». وبما أن هلمس كان، لسنوات عديدة، صحفياً محترفاً، عاش على حد سواء حياة المراسل في الخارج و« المطبخ » اليومي لهيئات التحرير، فإنه بذل كل جهده لإضفاء مظهر « الزمالة » على علاقاته مع عدد من زملائه السابقين. وهكذا، فعلى حد قول مارشتي وماركس بدأ هلمس التودّد إلى الصحافة، وأخذ يقيم الحفلات والمآدب على شرف الصحفيين، أفراداً أو جماعات. وعندما كان عليه أن يستقبل الصحفيين، كان يكرّس جزءاً من اجتماعاته الصباحية لمناقشة استقبال واختيار مسؤولين من وكالة الاستخبارات المركزية لمرافقة هذا الصحفي أو ذاك(...). ولم توجه دعوات هلمس إلى أي كان من الصحفيين. همه الأول بصورة خاصة موجّه، على حدّ قول جون فيني من « النيويورك تايمز »، إلى رؤساء التحرير وكبار المعلّقين ».

وهذا أيضاً كان انطباع دايفيد ويز رئيس مكتب « نيويورك هيرالد تريبيون » في واشنطن، إذ قال « في كل مكتب تحرير في واشنطن، هناك واحد على علاقة مع المنظمة على مستوى رفيع ». كما أن مارفين كالب مراسل الـ .C. B. S، والذي حضر لقاءات هلمس مع الصحفيين، قال إن هلمس « كان يتظاهر بصراحة مدهشة. وخلال الحديث كان بإمكانه التلميح إلى أمور كثيرة بومضة عين »(...) وكان هلمس مصدراً ممتازاً للأخبار بالنسبة لكافة الصحفيين. إن المعلّق جوزيف كرافت(...) يوجز على هذا النحو رأي الصحفيين الذين كانوا يترددون كثيراً على هلمس: « كنت أحاول لقاء هلمس كلّما كان الأمر ممكناً، لأنه كان على اتصال بشخصيات رسمية بارزة. لقد كان محلّلاً ممتازاً واسع الاطلاع على كل الأحداث الجارية »(...). البعض الآخر من الصحفيين كانوا يعتبرون أن هلمس هو أحد مصادر أثمن الأنباء الرسمية عن المواضيع كتطوّر الصواريخ السوفياتية او التجارب النووية الصينية. إنه لم يكن من المصرّين على حقيقة الخطر الشيوعي، كما كانت تفعل غالباً « المصادر المطلعة » في البنتاغون، وعلى نقيض شخصيات رسمية أخرى في واشنطن، كان لا يبدو مغرضاً في حديثه حول هذه المواضيع...». وفي سياق هذا الحديث عن علاقات « ديك » هلمس مع الصحافة الأميركية يضيف مارشتي وماركس « في الظاهر لم تكن هناك نوايا مغرضة في العلاقات الوثيقة التي أقامها هلمس مع الصحفيين. فهو لم يكن في قصده أبداً جرّهم إلى مخططات وكالة الاستخبارات المركزية...». إلاّ أن باتريك ج. ماك غارفي، وهو أحد قدامى العاملين في « الشركة »، لا يؤيّد أبداً هذا الرأي... فبعد أن أشار إلى الاهتمام الخاص لوكالة الاستخبارات المركزية بالصحفيين كتب يقول إن « مدعوي الوكالة من الصحفيين كانوا يصعدون في المصعد الشخصي لهلمس إلى الطابق السابع حيث يتناولون الغداء في غرفة الطعام الخاصة به. ثم بعد شرب القهوة، كان خبراء يقدّمون لهم عرضاً حول بعض القضايا الراهنة. وفي الختام كان هلمس يسرّب لهم بعض المعلومات، مع الإشارة إلى أن ما سمعوه هو سرّي جداً(...). وعلى هذا النحو، كان معظم صحفيي واشنطن يأتون لتناول الغداء مع هلمس. وبهذا الشكل، استطاع توسيع شبكة استخباراته في الأوساط الصحفية. لقد أخبرني أحد الذين عملوا في مقصورة المدير أن صحفيين من « النيويورك تايمز » أعلموا هلمس بأن أعضاء غاضبين من وكالة الاستخبارات المركزية حاولوا الاتصال بهم...

على كل حال، هناك شيء أكيد: إلى أي حدّ استطاع الصحفيون أصدقاء مدير وكالة الاستخبارات المركزية عدم تخطّي حدود مهنتهم، علماً أن هلمس كان بارعاً في ممارسة مهنته.

إن كلمة « مهنة » تتردّد دائماً كلّما أردنا الكلام عن شخصية ريتشارد م. هلمس... وهكذا ألم يعيّن على رأس « الشركة » بوصفه « محترفاً ».

وفي هذا الصدد، نرى من المفيد الحديث عن سيرته الشخصية. فقد كتب دايفيد ويز وتوماس روس في هذا الخصوص ما يلي: « ولد يوم ٣٠ آذار سنة ١٩١٣، في سانت دايفيد، بنسلفانيا، من ضواحي فيلادلفيا الجميلة، ونشأ في ساوث أورانج، في نيوجرسي، وهي أيضاً ضاحية جميلة من ضواحي نيويورك وعندما كان في المدرسة، تقاعد والده هيرمان، مدير المبيعات في الكاو، وغادر مع عائلته إلى أوروبا. وأمضى هلمس سنواته الدراسية في فرنسا وفي المانيا، وهو يتحدث اللغتين بطلاقة.

ويضيف بنجامين ويلز إلى هذه السيرة قوله: إن هلمس ولد « في وسط ممتاز. فجده من أمه غاتزماك غاراه، كان مصرفياً مشهوراً على النطاق العالمي، ووالده هيرمان هلمس، كان أحد مديري الكاو، ذهب مع عائلته إلى أوروبا في منتصف العشرينات. ودخل هلمس إلى كلية لو روسي الأنيقة في سويسرا، حيث تعلّم اللغتين الفرنسية والالمانية، وكيفية التصرف بين بنات العائلات الارستقراطية. كما درس أيضاً في المانيا. وتجدر الاشارة هنا إلى اصرار توماس باورز على المستوى الاجتماعي لكلية لو روسي إذ يقول إنها « كلية لكبار العائلات، ومن طلابها محمد رضا بهلوي شاه إيران السابق». إلاّ أن باورز يصرّ أيضاً على واقع أن موارد هلمس المالية كانت محدودة نسبياً: « فلم يكن يخفى على أحد هذا النقص في النقود التي كانت ترسله العائلة، والذي كان يتيح، على سبيل المثال، لرجل كفرنك ويسنر، ترك شيكات معاشه في غرفته دون صرفها لمدة سنة أو أكثر ».

إن النكسات المادية التي أصيبت بها عائلته، لم تمنع مع ذلك « ديك » من استغلال العلاقات التي أقامها خلال دراسته، فأحد رفاقه في مقصورات النوم كان ويليام كوليج بن هوغ بايي المدير العام لوكالة يونايتد برس. وعلى هذا النحو كانت الصحافة المهنة الأولى لريتشارد هلمس.

وأمضى بالصحافة مدة قصيرة نسبياً ـ خمس سنوات ـ إلاّ أنها كانت لامعة، وكما قال السوفياتي فيتالي بيتروشينكو: « لقد عمل في مكتب اليونايتد برس في المانيا. وقام بتغطية الألعاب الأولمبية سنة ١٩٣٦، حيث استطاع إجراء مقابلة خاصة مع سونجاهيني (رياضية نروجية اشتهرت كبطلة عالمية في التزلج الفني)، ومقابلة أخرى مع أدولف هتلر. ويعتبر هذا مأثرة حقيقية لصحفي في الثالثة والعشرين من عمره...». إلاّ أن هلمس ترك بسرعة الصحافة وأوروبا أيضاً، وعاد إلى الولايات المتحدة حيث عمل من جديد في الصحافة، وفي

« انديانا بوليس تايمز ». ومنذ سنة ١٩٣٧ بدأ يتقدّم باضطراد حتى عام ١٩٤١، ثم ترك الصحافة عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية.

التحق هلمس بالبحرية، وفي أيلول ١٩٤٢، عُيِّن في قسم المراقبة في نيويورك المكلّف بكشف تحركات الغواصات الالمانية في شمال الأطلسي. إن الأمر لم يتعلّق بالاستخبارات. كما أن هلمس رفض الدخول في مجال المخابرات. وخلال سنة ١٩٤٢ نفسها اتصل به رئيسه السابق في مكتب اليونايتد برس في برلين فردريك أوشنر واقترح عليه الانتقال إلى مكتب الاستخبارات الستراتيجية حيث يعمل هو شخصياً الآن. لكن هلمس رفض الدخول في منظمة دونوفان. وفيما بعد، قال أوشنر لباورز إن هذا الرفض لم يثر دهشته كثيراً. وبما أنه يعرف هلمس جيداً، ويعرف طموحه، ففي ذلك الحين كان مكتب الاستخبارات الستراتيجية يعتبر بمثابة عمل لا مجال للطموحين فيه.

وبالطبع، إن تفسير أوشنر هذا يرتكز إلى أساس، لكن دون شك، يجب توضيحه... كما سبق أن رأينا، فإن الكثيرين من الشبان الذين دخلوا في تلك الحقبة إلى مكتب الاستخبارات الستراتيجية كانت تحدوهم روح المغامرة ومعاداة الفاشية. إذن في سن الثلاثين كان « ديك » منهمكاً جداً بمستقبله ولا نزوع للمغامرة لديه؛ أمّا بالنسبة لمعاداة الفاشية... فقد عاش هلمس سنتين في المانيا في الوقت الذي بدأت تتسع فيه قوى الهتلرية...

ويقول توماس باورز إن سلاح البحرية هو الذي أرسل هلمس إلى مكتب الاستخبارات الستراتيجية، لأن هذا المكتب كان بحاجة لشخص يتكلّم الالمانية وعلى إلمام بالصحافة، فوقع الاختيار على هلمس. وهكذا ففي آب سنة ١٩٤٣، أُرسل هلمس إلى معسكر تابع لمكتب الاستخبارات الستراتيجية من أجل القيام بتدريبات جديدة، وهذه المرة ليصبح عميلاً سرياً »... إن هذه الوظيفة كانت أمراً عادياً جداً، إذ أن مكتب الاستخبارات الستراتيجية كان يستخدم في ذلك الحين الكثير من الصحفيين. ويشير ليونار موسلي إلى أن هلمس الذي بدأ العمل في محيط آلن دالس، التقى بزميلين سابقين: أندرو بيردينغ، مراسل سابق لوكالة أسوشيتد برس في روما، وجون آواكس، معلّق سياسي سابق في الواشنطن بوست ـ اللذين أصبحا فيما بعد على التوالي: الأول ملحقاً صحفياً لدى جون فوستر دالس، والآخر معلّقاً في « النيويورك تايمز ».

إن محيط آلن دالس، حيث وجد « ديك » هلمس نفسه، إلى حد ما، على الرغم من أنفه، استطاع أن يتكيّف معه جيداً. وكما هو معروف فإن هذا المحيط، هو المكان الذي خرج منه القادة العتيدون للأجهزة السرية في الولايات المتحدة. ويمكن القول أيضاً إن

مستقبل هلمس تقرّر حقاً هنا، بعد أن وُضع على الطريق التي لم يتركها... وكما يقول بنجامين ويلز: «ففي نهاية الحرب كان في برلين ضمَن الفريق المشهور الذي يرئسه آلن دالس(...)، وتعلّم السيد هلمس الكثير من الأشياء. وفي برلين أخذ نجمه يسطع. والاثباتات على ذلك هو حصوله في برلين على نفس الامتياز الذي حصل عليه جيمس إنغلتون في روما، إذ اختير لأن يمثل «الأجهزة الستراتيجية المتحدة» في المرحلة الانتقالية بين حل مكتب الاستخبارات الستراتيجية وتأسيس وكالة الاستخبارات المركزية. وقد جعل منه هذا الاختيار في الواقع أيضاً، أحد رواد المنظمة الجديدة، حيث قال راي كلين عن حق إن السمة الخاصة لوكالة الاستخبارات المركزية الناشئة، هي واقع أن ريتشارد هلمس يشغل فيها المنصب الجديد «كرئيس للعمليات» أي نائباً لفرانك ويسنر.

إلا أن هذه التفاصيل، مع أهميتها، لا تعطينا أية معلومات عن العمل الشخصي الذي قام به هلمس بين سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٥٢، أي خلال السنوات الخمس الأولى ـ أقسى السنوات ـ من «الحرب الباردة». هنا نستشهد بما أوردته مجلة «بلانت» حيث جاء فيها: «دخل ريتشارد هلمس إلى وكالة الاستخبارات المركزية منذ تأسيسها واختفى. ومن المستحيل معرفة ما قام به حتى سنة ١٩٥٢. وفي سنة ١٩٥٢ نفسها ظهر من جديد كمدير لقسم التجسس الخارجي، وأعمال التخريب، وغيرها من العمليات المبهمة، أي ما يسمّى في الوكالة «مكتب الضربات القذرة»... وفي الحقيقة فإن هلمس يحب أن يشاع عنه أنه «رجل استخبارات»، وليس اختصاصياً في «العمل السري». ويبدو أن عمله في تلك الحقبة لم يتميَّز بشيء قطعاً عن عمل «رجال فرانك»، على حد تعبير جون فوستر في حديثه عن العاملين مع ويسنر. وكتب باورز يقول، دون أن يحدّد الحقبة، إن «خبرة هلمس الواسعة في العمليات السرية كانت نتيجة للموقع الفريد من نوعه الذي كان يشغله أيام ويسنر. فبوصفه رئيساً للعمليات، كان صلة الوصل بين أولئك الموجودين «في مكان العمل» وأولئك الذين يتخذون القرارات في واشنطن: كان يوافق، وحتى يختار، نصوص البرقيات التي ترسل «إلى مكان العمل»، لتحديد «الحاجات»، وعن طريقه كانت تمر الاقتراحات الحسية حول العمليات التي ترسل من المحطات المحلية لوكالة الاستخبارات المركزية قبل وصولها إلى جهاز القرار السياسي للموافقة عليها نهائياً...».

من هنا بدأت مسيرة هذا الصحفي السابق إلى أن وصل إلى الذروة، إلى المكتب المشهور في الطابق السابع في مبنى لانغلي. شغله مباشرة بعد ويليام ف. رابورن.

حول هذا الموضوع كتب توماس باورز يقول إن «المستفيد الرئيسي من فشل رابورن

كان ريتشارد هلمس». وأضاف في مكان آخر: «في ربيع سنة ١٩٦٦، وخلال أحد المؤتمرات الصحفية التي كان يعقدها الرئيس جونسون في حدائق البيت الأبيض، قال للصحفيين إن رابورن اختير كوسيط، وإنني طلبت دائماً من رابورن أن يصطحب معه هلمس إلى البيت الأبيض لأنه (هلمس) كان يستعد لتسلّم هذا المنصب».

من الشيّق أن نرى كيف علّق «بيل» كولبي على تسلّم «ديك» هلمس لإدارة «الوكالة». في البداية «تناسى» عمداً وجود رابورن، إذ قال: «جاء ريتشارد هلمس بعد جون ماك كون مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية... ثم عندما أتى على ذكر رابورن قال: «لقد حاول أن يُدخِل إلى الوكالة تقنيات جديدة في الإدارة لم تكن ناجحة، لذا فقد اضطر للتقاعد مرة ثانية. وفي حزيران ١٩٦٦، أدّى هلمس اليمين القانونية في البيت الأبيض. وكان الأول بعد دالس «من أعضاء العائلة» الذين رئسوا الوكالة...».

حصل الاحتفال الرسمي لأداء القسم يوم ٣٠ حزيران. فهل يمكن أن نقول إن يوم ٣٠ حزيران هذا كان يوم عيد بالنسبة لرجال «الشركة»؟ حتى بعض أولئك القدامى من غير المحبذين لخليفة رابورن، ومنهم باتريك ج. ماك غارفي كتب يقول «ساد جو من الفرح في أوساط الاستخبارات عندما عُيِّن ريتشارد هلمس سنة ١٩٦٦ مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية لأن أحد المحترفين أصبح رئيساً لنا!»... وأضاف يقول «إن هلمس يعتبر بين كوادر الأجهزة السرية بمثابة «ملك الجواسيس الحقيقي»، فقد وصل إلى الذروة دون أن يخدم في الخارج وهذه مأثرة، بل ضرب من ضروب العجائب!...».

إن شعبية «ديك» هلمس لدى موظفي «الوكالة» تبدو مدهشة للوهلة الأولى، إلاّ أنها تجد تفسيراً لها في نوع من عامل تحقيق الذاتية. فبالنسبة «للضباط» يعني وصول هلمس إلى هذا المنصب، الإفساح في المجال أمامهم لبلوغ أعلى المراتب، والتربّع حتى على كرسي مدير وكالة الاستخبارات المركزية. أمّا بالنسبة للموظفين الآخرين، فرأوا في هذا التعيين أمراً يسهّل لهم أعمالهم إلى حد كبير.

لقد عرف هلمس بالريبة والحذر، وأفضل مثال على ذلك هو العملية الكوبية. فخلال أشهر التحضير لهذه العملية، التي منيت بفشل ذريع كما هو معروف، في «خليج الخنازير»، كان يبدي على الدوام شكّه في نجاحها. وعلى حد قول مارشتي وماركس «استطاع عدم التورّط في هذه العملية. وبعد مرور عدة سنوات على ذلك، أعرب أيضاً أحد كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية عن دهشته، عندما علم أنه لا يوجد في ملفات «الوكالة» أية وثيقة لها صلة بالتخطيط لهذه العملية وتنفيذها يمكن أن تؤكّد بشكل ما مسؤولية هلمس.

وقد امتنعت هذه الشخصية لهذا السبب عن توجيه أي انتقاد لهلمس، الذي أشرف، مع ذلك أيضاً على قسم كبير من هذه العملية. إلاّ أنه كان يتلافى التوقيع على أية وثيقة تتعلّق بهذه القضية، حتى عندما كانت لا تزال في طور التخطيط...». وفي وقت لاحق، كشف فكتور مارشتي النقاب عن اسم هذه الشخصية، إنه الكولونيل لورانس وايت، الذي قال: «هل تعلمون أنه لا يوجد في كل هذه الوكالة أية قصاصة ورق لها صلة بخليج الخنازير موقّعة من هلمس»؟

شك، حذر، نباهة... أيمكن أن يكون هلمس قد ذهب في الواقع أبعد من ذلك؟ وهل وصل كما يدّعي باورز إلى حد نسف العملية المشهورة؟ كل ما نستطيعه في هذا المجال هو الاستشهاد بأقوال باورز التي جاء فيها: «كان هلمس يعرف كيف يموّه ويقلّل ظاهرياً من دوره الفعلي، لذا أصبح من الصعب تحديد هذا الدور(...). وكمساعد لنائب مدير التخطيط، كان يراقب التمويل، والعاملين، والتوجيهات المرسلة إلى المنفّذين على الأرض، إذن كان في وضع يتيح لـه وضـع العصي في الدواليـب وعـرقلـة خطـة خليـج الخنـازيـر. و«يتصوّر» أحد زملائه ومنافسيه القدامى أن هلمس حاول حماية موقعه، إذ رفض إشراك أفضل عناصر جهازه في العملية. ويقول البعض إنه كان يناقش بهدوء هذه القضية مع مختلف رؤساء الأقسام في إدارة التخطيط ويحثهم على عدم إخفاء شكّهم ومعارضتهم، كما كان يقول أمام دالس بالذات إن «المنفذين» الأكثر خبرة يشكّون في إمكانية تمويه دور وكالة الاستخبارات المركزية».

إن «مدير قسم التخطيط» الذي تحدّث عنه باورز، والذي كان هلمس مساعداً له، هو ريتشارد بيسيل، الذي سنتحدّث عنه مطوّلاً فيما بعد. لقد كان «ديك» بيسيل وثيق الارتباط بآلن دالس. كما أن «ديك» هلمس اعتبر أن هذه الصداقة هي التي أوصلته إلى خلافة فرانك ويسنر كمدير لقسم التخطيط.

إننا لم ننسَ بعد الدور البارز الذي لعبه ويسنر عندما أوشكت «الحرب الباردة» أن تصبح ساخنة. ويمكن أننا قلّلنا من تأثير النتائج، التي أصابت زملاءه والمقربين منه، المترتبة عن أحداث المجر سنة ١٩٥٦، ثم الانهيار العصبي الذي نجم عنها.

نعود إلى هلمس وإلى الحذر الذي كان يبديه دائماً. ففي مناسبات عديدة في حياته تعرض هذا الحذر لتجارب قاسية. ودائماً، على حد قول باورز، حصل ذلك عندما أوكلت إليه قضية دقيقة جداً: التعذيب... «وهناك أشخاص معجبون بهذا الجانب السيء من عمل الأجهزة السرية، ولم يكن هلمس في عدادهم، إلاّ أنه كان يتغاضى عن هذه الأعمال. فمنذ

عدة سنوات، حوالى سنة ١٩٥٥، بدأت تصل إلى آلن دالس تقارير حول المعاملة السيئة التي كانت تحصل في ميونيخ، خلال استجواب بعض المنشقين المشتبه بأمرهم: كاستخدام التربنتين على أعضاء الرجل التناسلية الخ. عندها طلب دالس من هلمس إجراء تحقيق حول هذا الموضوع وإعداد نص قانوني يحظِّر التعذيب. فجاء هذا النص على الوجه التالي: «يحظَّر استخدام التعذيب الكهربائي والكيميائي والجسدي». (بالمقابل التعذيب النفسي كان مقبولاً). ثم كونه يعرف المدة التي يمكن أن تبقى فيها الأوراق في المكاتب، فلا يمكن أن يقبل أي شخص صياغة قانون يقول إن بالامكان استخدام هذه الوسيلة أو تلك. لكن القوانين شيء والواقع شيء آخر. وقبل اختتام تحقيقه، عقد هلمس اجتماعاً لرؤساء أقسام إدارة التخطيط ليسألهم ما إذا كانت لديهم اعتراضات حول القانون المرتقب. كانت هناك اعتراضات؛ الرأي الذي كان سائداً يقول إنه من الأفضل ترك هذا الأمر لتقدير رؤساء الأقسام ورؤساء «المحطات». وقد وجه أحد الذين حضروا الاجتماع السؤال التالي إلى هلمس: «ما هي إذن سلطات رئيس «المحطة»؟ جواب هلمس كان نموذجياً في الغموض: «القيام بعمَله على أفضل وجه ممكن، حتى وصول تعليمات أخرى»...». وبسبب هذا الغموض تعرَّض، بعد أن أصبح مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، لانتقادات حتى من داخل «الشركة».

إن صورة هلمس التي بدأت تفرض نفسها شيئاً فشيئاً داخل «الشركة»، وخصوصاً خارجها، تعرَّضت لأكبر تجربة بعد ١٨ شهراً على أدائه اليمين في البيت الأبيض. ففي يوم ١١ تشرين الثاني ١٩٦٨ استدعي إلى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس الجديد الذي كان قد انتخبه الشعب الأميركي قبل ٦ أيام من ذلك التاريخ، وهذا الرئيس كان ريتشارد نيكسون...

اللقاء كان حاسماً بالنسبة لهلمس. وكما كتب باورز فإن «علاقاته مع نيكسون كانت غير وثيقة العرى وغامضة، وبقيت على هذا المنوال حتى النهاية، أي مدة أربع سنوات بالضبط...». فمنذ ١١ تشرين الثاني، أخذ الرئيس الجديد يفعل كل شيء لمضايقة هلمس، إذ أصدر إليه أمراً غريباً وغير متوقع، وهو الاحتفاظ بقرار إبقائه مديراً، في غاية السرية و«عدم البوح به أمام أحد». وبعد انقضاء أكثر من خمسة أسابيع، أي في ١٨ كانون الأول أعلن القرار بصورة رسمية. ولا حاجة للقول إن ريتشارد هلمس يحمل في نفسه أسوأ الذكريات عن تلك الأسابيع، لأنه كان مضطراً أن يتظاهر أمام معاونيه بأنه قلق على مستقبله...

لقد وصل نيكسون إلى البيت الأبيض ولديه نفور عميق من وكالة الاستخبارات المركزية، على حد قول هيغ سيداي، أحد معلّقي «التايم»، إذ كان يلوم الوكالة بأنها مسؤولة إلى حد ما عن هزيمته في الانتخابات الرئاسية سنة ١٩٦٠. وكان نيكسون يقول لمعاونيه المقربين «إن وكالة الاستخبارات المركزية مهّدت لترشيح جون كندي بنشرها أرقاماً «واهية» عن سباق التسلّح الصاروخي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي...».

وبنفس الأسلوب تحدَّث توماس باورز عن «قضيـة آنـا شينـو»، محرّكـة «اللـوبي الفيتنامي الجنوبي» في واشنطن، والتي شاركت بحماس في حملة نيكسون الانتخابية. وعندما كان ليندون جونسون رئيساً ساورته بعض الشكوك حولها بسبب تحركها مع حكومة ثيو في سايغون، من دون علم السلطات الأميركية. فطلب من وكالة الاستخبارات المركزية وضعها تحت المراقبة. وهذا ما حصل. وأثارت هذه المراقبة امتعاض نيكسون وأدَّت إلى نفوره من هلمس.

وتقدّم لنا مجلة «تايم» أيضاً مثالاً آخر مليئاً بالمرارة حول الاهتمام الذي أبداه نيكسون بمراقبة البريد. فقد كتبـت في ٦ تشريـن الأول سنـة ١٩٧٥ تقـول: «بـالنسبـة لـوكـالـة الاستخبارات المركزية اليقظة دائماً فإن نيكسون شخصياً لم يكن فوق الشكوك إذ فتحت سرّاً رسالة، خلال الحملة الانتخابية سنة ١٩٦٨، بعث بها إلى نيكسون: راي برايس، أحد محرري خطبه وكان وقتها يقوم بزيارة إلى موسكو. وكان مضمون هذه الرسالة حول الآفاق الانتخابية لنيكسون...».

ثم بدأت حملات الرئيس تتصاعد حول «الشركة» ولم تقتصر فقط على الأساليب السيئة التي مارستها ضده في الماضي، بل وصلت إلى «الوكالة» وصلاحيتها... فقد انتقدها أمام هنري كيسنجر قائلا: «إنها مجرّدة من أي تصوّر»، وأمام جون أرليخمان، قال: «ما الفائدة من هؤلاء الـ ٤٠ ألفاً الذين يمضون وقتهم في مطالعة الصحف هناك؟». ثم تحوّلت هذه الانتقادات إلى حملات علنية عندما سرَّبت حاشية الرئيس إلى الصحافة معلومات هي مادة صالحة للمقالات تقول إن هلمس وأعوانه عاجزون؛ ويثبت هذا العجز الأسطر التي صدرت في صحيفة «لوموند» والتي جاء فيها: «وفقاً لما نشرته «النيوزويك» فإن إعادة تنظيم الاستخبارات الأميركية، التي أعلن عنها في ٥ تشرين الثاني، قرَّرها الرئيس نيكسون إثر الأخطاء التي ارتكبتها مؤخراً وكالة الاستخبارات المركزية... ومن هذه الأخطاء، ذكرت المجلة خمسة، أثارت غيظ البيت الأبيض بصـورة خـاصـة. فـالأمـر يتعلّـق بعجـز الاستخبارات السرية في تقييم قوى المقاومة الفيتنـاميـة الشماليـة أثنـاء التـدخـل في لاوس؛

والمعلومات المغلوطة التي أدّت إلى شن غارات غير مجدية على سون ـ تاي وفي الفيتنام الشمالية، والتقديرات غير الصحيحة المتعلّقة بأهمية المعدّات العسكرية التي كانت تنقل عبر مرفأ سيهانوكفيل؛ والاكتشاف المتأخر لصواريخ سام السوفياتية على طول قناة السويس، وتأخير مفاوضات سالت لمدة ثمانية أشهر بسبب المعلومات المتناقضة التي كانت تقدمها أجهزة الاستخبارات... ». إن نية نيكسون الإساءة إلى وكالة الاستخبارات المركزية بتسريبه مثل هذه المعلومات، تأكّدت فيما بعد بالحملات التي شنّها على « الوكالة »، حتى بعد مغادرته البيت الأبيض، عندما اشتكى علناً من عدم فعالية رجال لانغلي؛ والمثال على ذلك هذه الأسطر التي صدرت في « فرانس ـ سوار » بتوقيع مراسلها في واشنطن، لوي فوا، والتي جاء فيها: « تحدّث السيد نيكسون في مقابلته التلفزيونية الثانية، في الأسبوع الماضي، كيف أكّدت له وكالة الاستخبارات المركزية، عشية حرب يوم الغفران، أن الحرب في الشرق الأدنى « غير محتملة ». لذا قرّر مساء الجمعة الذهاب لتمضية عطلة نهاية الأسبوع في فلوريدا، حيث استدعي منها صباح اليوم الثاني! ووجّه الرئيس السابق اللوم إلى فعالية وصلاحية أجهزة التجسس والاستخبارات الأميركية... ».

كيف يمكن تفسير ذلك؟ إن المعلومات التي في حوزتنا غامضة وتفتقر إلى التفاصيل. وفي الحقيقة هناك الكثير من الأمور التي لا يمكن تفسيرها في تصرف هلمس تجاه نيكسون...

أجل، الكثير من الأمور الغامضة، بل الكثير من التناقضات أيضاً... بالفعل إذا ما سلّمنا أن الرئيس سعى دائماً إلى الحطّ من شأن « الوكالة » والمسّ بمديرها، وبما أن المدير لا يستطيع، وليس من واجبه معارضة الرئيس المنتخب، فإن الأمر الغامض هو كيف قبل ريتشارد هلمس هذا الإحراج من قبل نيكسون الذي عامله كما لم يعامل أي مدير لوكالة الاستخبارات المركزية من قبل. وفضلاً عن ذلك، وكما سنرى فيما بعد، لم يحصل هلمس على أية فائدة ملموسة من هذه الإحراجات. بل كان كل مرة يتحمل نتائجها الخطيرة.

القضية الأولى هي « قضية ألسبرغ ». ودانيال ألسبرغ هو من معارضي حرب الفيتنام، كان قد سلّم الى « النيويورك تايمز » مجموعة من الوثائق السرية التي عرفت منذ ذلك الحين بـ « أوراق البنتاغون ». وأثار نشرها منذ ١٣ حزيران ١٩٧١ ضجة كبيرة. كما أحدث سلسلة من المنازعات القضائية، ولا سيما تسريبات من البيت الأبيض حول حياة ألسبرغ الخاصة ومحاولات للحطّ من شأنه. وجرى الحديث عنها كثيراً خلال فضيحة ووترغيت... ومع أن هناك تقارير لوكالة الاستخبارات المركزية، وجدت بين « أوراق البنتاغون »، فإن « قضية ألسبرغ » تبقى قضية سياسية داخلية لا تستطيع « الوكالة » التدخّل بها قانونياً.

وهلمس يعرف ذلك. لكنه قبل الإجابة على الالتماسات غير القانونية لمستشاري نيكسون، مقدماً في الوقت نفسه لهذا الأخير فرصة لتوجيه الاتهام إليه فيما بعد. وهذه الفرصة لم يفوتها نيكسون بالطبع، إذ بعد ٣ أشهر من عزل هلمس، تدخل خليفته علناً في هذا الموضوع. فقد كتب بيار سالينجر في هذا الخصوص يقول إن «السيد جايمس شليسينجر، المدير الجديد لوكالة الاستخبارات المركزية شهد أن سلفه السيد ريتشارد هلمس، أصدر أمراً إلى أجهزته من أجل إعداد ٣ «جانيات نفسية» للسيد ألسبرغ بطلب من البيت الأبيض. وأضاف «كانت غلطة كبيرة» ومجرد لبطة حمار.

والقضية الثانية تندرج أيضاً في إطار حرب الفيتنام، في نيسان ١٩٧٠ هذه المرة، في الوقت الذي كانت فيه القوات الأميركية تستعد للتدخل في كمبوديا بذريعة «القضاء» على «مخابيء» الفيتناميين الشماليين، وبينما كان يستعد الرئيس لاصدار أمر التدخل، بعث محللو وكالة الاستخبارات المركزية إلى مديرهم تقريراً يبرزون فيه شكوكهم الجدية بفعالية مثل هذا الانتهاك للحياد الكمبودي، الذي، حسب رأيهم، «لن يمنع (الفيتناميين الشماليين) من مواصلة القتال». وهو تقدير تأكدت صحته تماماً فيما بعد... ويقول ويليام شاوكروس «إن هلمس بدلاً من أن يرسل هذا التقرير إلى البيت الأبيض، بعث به إلى رئيس مكتب التقديرات التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، أبوت سميث، مع ملاحظة بخط يده: «نراجع ذلك في أول حزيران من أجل أن نقرّر تركه كما هو أو إضافة بعض التعديلات...». ورفض هلمس منذ ذلك الحين تفسير مثل هذا التواضع؛ وأكد أحد أعضاء المكتب في وقت لاحق أن المدير رأى أن إرسال مثل هذا التقرير السلبي إلى البيت الأبيض يمكن أن «يكون له تأثير سيء»، حيث بدأ هو شخصياً ووكالة الاستخبارات المركزية يصادفان بعض التصرفات العدائية.

إن العلاقات السيئة والمصحوبة بالشكوك التي نشأت على هذا النحو بين «الوكالة» والبيت الأبيض تدهورت أكثر أيضاً واكتنفها الغموض بفضيحة ووترغيت... ففي هذه القضية، التي لا نزمع بالطبع معالجتها هنا، فإن الأمر الملفت للنظر هو الغموض الذي يلفّ دور وكالة الاستخبارات بصورة عامة ودور ريتشارد هلمس بصورة خاصة. ومن بين العناصر الغامضة، هناك أمر أكيد، هو أن ووترغيت أدت إلى عزل هلمس، أو بالأحرى، وكي نكون أكثر دقة، استغلّ نيكسون الفضيحة من أجل أن يستبدل في نهاية المطاف مدير وكالة الاستخبارات المركزية، وهذه قضية كان قد قرّرها منذ وقت طويل. هذا ما أكدته كل الصحافة الأميركية، وكذلك قدامى «الشركة» الذين تحدّثوا عن هذا الموضوع. إنه لمن

الشيِّق أن نرى كيف جرى الاعراب عن هذا الرأي وأن نتناول على هذا النحو « لماذا » عزل المدير.

بالنسبة لكاتب افتتاحية « التايم » هيغ سيداي « وراء التغيير »، كان هناك « مقاومة » هلمس. كما أن ويليام كولبي تحدَّث أيضاً عن هذه المقاومة، وسمَّاها « الرفض »، عندما كتب يقول: « إن الستراتيجية التي اعتمدها هلمس(...) جنَّبت(...) الوكالة الانزلاق في دسائس نيكسون وفريقه لخنق الفضيحة والافلات من العقاب العادل على جرائمهم. ودفع ريتشارد هلمس ثمن هذا الرفض. وفي مطلع كانون الأول، دعي من قبل الرئيس إلى كامب دايفيد. واعتقد الجميع في لانغلي، أن الأمر يتعلَّق بمناقشة ميزانية الوكالة، التي كانت تعاني من بعض العجز في ذلك الحين. إلاَّ أن لقاء كامب دايفيد لم تكن له أي صلة بالميزانية، بل جرى الحديث في الواقع عن الستراتيجية التي اعتمدها هلمس بحذر، والتي منعت فريق نيكسون من استخدام الوكالة لتغطية المساوىء التي ارتكبها. لذا قرَّر نيكسون إرسال ريتشارد هلمس إلى سفارة طهران وعيَّن جايمس شليسينجر مكانه على رأس وكالة الاستخبارات المركزية... ».

لكن هل من الممكن أن نحدِّد ماذا « قاوم » هلمس، وماذا « رفض »؟. باورز يفعل ذلك مستشهداً بأصدقاء مدير وكالة الاستخبارات المركزية، داخل « الشركة » الذين بعد أن أكَدوا « أنه لم يكن هناك أي سبب آخر للعزل غير ووترغيت »، يضيفون: « رفض هلمس وقف التحقيق الذي باشرته الشرطة الاتحادية ـ وذلك(...) كان أمراً سهلاً جداً بالنسبة له ـ فعزله نيكسون انتقاماً لنفسه... ». وفضلاً عن ذلك فإن باورز بالذات كان أكثر دقة أيضاً عندما كتب يقول: « بكلمتين، ووترغيت كانت تريد أن تجعل من وكالة الاستخبارات المركزية كبش المحرقة. ويبدو أن هلمس شعر بهذا الخطر منذ البداية. وتعامل مع ووترغيت كما لو أنه يتعامل مع الكوليرا، إذ عزل الوكالة عن كل الذين أُصيبوا بالعدوى... ». إن الكثيرين من الذين درسوا قضية ووترغيت عن كثب تولَّد لديهم الانطباع بأنه هذا هو الدور الذي كان يريد نيكسون من هلمس أن يلعبه. وكما قال كلود كرويس: « الشانتاج كان واضحاً: المطلوب تحميل وكالة الاستخبارات المركزية مسؤولية فضيحة ووترغيت، وهو أمر يتيح وقف التحقيق باسم الأمن القومي... ». وهكذا ففي ٢ شباط ١٩٧٣، أقسم جايمس ر. شليسينجر اليمين في البيت الأبيض كخليفة لريتشارد هلمس.

بعد عدة أسابيع من الراحة والتفكير، بدأ « ديك » هلمس يستعد للسفر. إنه لم يترك فقط مكتبه في الطابق السابع في لانغلي، بل ترك شقته الشخصية أيضاً، إذ إنه سيقطن أكثر

من أربع سنوات في الجانب الآخر من العالم، في العاصمة الإيرانية. وهذه المرة لم يكن مسافراً سرياً، كما اعتاد أن يفعل خلال أكثر من ربع قرن. فعلى العكس من ذلك، صعد إلى الطائرة كمندوب ديبلوماسي رسمي للولايات المتحدة الأميركية ليلتحق بمقر عمله في الخارج. وفي الحقيقة لم يكن مسروراً جداً في نظرته عبر نافذة الطائرة وهو يبتعد عن شواطىء أميركا الشمالية؛ فهو يعرف جيداً أنه بالنسبة لأولئك الذين ودّعوه وبالنسبة لأولئك الذين سيستقبلونه، هو رجل مزعج، « أرسله الرئيس إلى سفارة طهران » كي لا يراه أبداً في البيت الأبيض، على حد قول كولبي. وبالطبع، يمكن القول إن خسارته كانت نسبية، إذ ليس مصيرا سيئاً أن يصبح « السيد السفير »، خصوصاً في بلد المصالح الأميركية فيه واسعة والقوة الأميركية مسيطرة بشكل جلي. بيد أنه من الصعب تصوّر المشاعر التي كانت تخالجه آنذاك...

لكن « ديك » هلمس هو رجل يتغلّب على « الصدمات ». فقد ترافقت إقامته في طهران مع توطيد وتعزيز مواقع « الشركة » في كل الشرق الأدنى. وبالتأكيد فعندما أجبر على الاختيار أمام نيكسون، اختار « إيران »، لأنه، على حدّ قول باورز، يعرف أن منصب سفير في هذا البلد هو « منصب مهم جداً يستطيع أن يجد فيه شيئاً للعمل ». كما أن رئيس « المحطة » في عاصمة الشاه كان أحد أكثر القدامى خبرة في « الوكالة »: نيكولاس ناتسيوس. وسبق لناتسيوس أن عمل في « محطات » مهمة جداً: سيول من سنة ١٩٦٢ إلى ١٩٦٥، بيونس آيرس من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٩، وفي لاهاي من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٢.

إن المصادفة التي تحدّثنا عنها بين إقامة الشريكين هلمس ـ ناتسيوس في العاصمة الإيرانية وتعزيز وكالة الاستخبارات المركزية في كل المنطقة هي أكثر من واضحة. فقد كتب عادل وحيد يقول: « بعد الهزيمة الأميركية في الفيتنام، احتشد في إيران أكبر عدد من العسكريين الأميركيين خارج الولايات المتحدة(...) ولدى زيارته طهران في سنة ١٩٧٢ قرّر نيكسون تزويد الشاه بأسلحة من الجيل الجديد لم تكن قد وضعت بعد حيّز الخدمة في سلاح الطيران الأميركي(...). وبعد مرور سنة على ذلك عيّن ريتشارد هلمس المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية سفيراً في إيران وانتقل المقر العام لهذه الوكالة من نيقوسيا إلى طهران. وعلى هذا النحو فقد أقيم جهاز يتيح للدول الغربية، وخصوصاً الولايات المتحدة، الإشراف على الثروات المحلية، وضمان أسواق التصريف لمنتجاتها وتحويل الخليج إلى قاعدة للمراقبة... ». وفضلاً عن ذلك، فمع وجود هلمس كسفير فإن إنهاء عملية تحويل السفارة في طهران إلى مقر حقيقي « لمحطة » « الشركة » لا يطرح بالطبع أية مشكلة. و« المحطة » الإيرانية أصبحت نموذجية في نوعها. إن هذا التغيير المكشوف لم يبقَ دون نتائج، إذْ بعد

مرور عدة سنوات، حصلت الثورة في إيران. فقد كتب اندرو ماندرستام يقول: « بعد وصول آية الله الخميني إلى الحكم، سحبت الحكومة الأميركية عدداً من « ديبلوماسييها » من طهران. كما أن مئات الآلاف من الوثائق السرية التي كانت موجودة في السفارة الأميركية أرسلت إلى الولايات المتحدة أو أتلفت. ويمكن القول إنه نتيجة لذلك خفض عدد رجال وكالة الاستخبارات المركزية في طهران إلى أدنى حد أثناء الاستيلاء على السفارة من قبل الطلاب الإيرانيين. ولكن بسبب الأهمية الستراتيجية والاقتصادية التي تمثلها إيران، تركت وكالة الاستخبارات المركزية بعض موظفيها في طهران، على الرغم من المخاطر المترتبة على ذلك... ». وهكذا تحدّث عدة مبعوثين خاصين، أمثال جان - لوي موريون، عن أن « العديد من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية، على ما يبدو، موجودون سراً اليوم في إيران ».

ومن هنا يتبيّن أن المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية لم يغيِّر أبداً « عمله »، وانه لم يجد نفسه غريباً في أرض فارس. لكن يبقى هناك أمر غامض: علاقاته الشخصية مع الشاه. فكما رأينا سابقاً ارتاد نفس المدرسة في سويسرا. إلاّ أن الشاه، عندما كتب مذكراته في المنفى، تحدّث فيها عن « صديقه كرميت روزفلت، المبعوث الخاص لوكالة الاستخبارات المركزية »، لكنه لم يذكر فيها ولا مرة اسم هلمس. صحيح أن « كيم » روزفيلت ساهم شخصياً في الماضي في إعادة الشاه إلى عرشه، والصحيح أيضاً أن « ديك » هلمس كان ممثلاً لسلطة تقوم بين الشاه ورؤسائها علاقات شخصية متينة جداً.

لقد غادر هلمس طهران نهائياً في حزيران سنة ١٩٧٧. وخلفه ويليام هـ. سوليفان، وهو أيضاً كان ديبلوماسياً صدامياً، وشغل في الماضي منصب سفير للولايات المتحدة في الفيليبين ولاوس. وبعد الثورة في إيران وذهاب سوليفان، اقترحت واشنطن إبدال هذا الأخير بوالتر ل. كوتلر. ورفضت السلطة الإيرانية الجديدة هذا التعيين. ومما جاء في هذا الرفض: « لقد حصلنا على معلومات عن تصرّف كوتلر عندما كان سفيراً في زائير. ولمسنا أن تصرفه هو من الطراز الاستعماري ويبدو أنه غير معتاد على معاملة محدثيه على قدم المساواة. إننا لا نريد سوليفان آخر ولا هلمس آخر. إيران تغيَّرت ويتوجَّب على أميركا الاعتراف بهذا الواقع... ».

لكن يبدو أن هلمس لم تكن لديه ذكريات سيئة عن طهران. فبعد أن ترك منصبه كسفير، توجه بالذات نحو أصدقائه الإيرانيين وأسَّس شركة للعلاقات العامة اسمها: « شركة السفير »، وذلك في خريف سنة ١٩٧٧، هدفها « مساعدة الإيرانيين على تأسيس أعمال في

الولايات المتحدة». إلاّ أن هدفها لم يتحقق إذْ اندلعت الثورة في إيران. وهذه الثورة، كانت على حد قول باورز «مفاجأة تامة» لهلمس.

إن الصورة التي حاولنا رسمها حتى الآن بيّنت لنا أن ريتشارد هلمس، شخص يعيش يومياً وبعمق حياة «وكالته»، إلاّ أنها تبقى ناقصة. باستثناء ترقّيه في العمل وخوضه النزاعات الداخلية في «الوكالة»، كما تلقي الظلال على ما يمكن أن يكون أو يظهر بمثابة اختصاصه، أو حتى عمله الخاص... فهلمس لم يكن لديه مخطط «سبلنتر فاكتور» كآلن دالس، ولا «أجاكس» ككرميت روزفيلت، ولا «مغسايساي» كلانسدال ولا «فنيكس» ككولبي، بل كان لديه مخطط عنوانه «التزوير». وبالفعل فقد اتسم «مؤلف» هلمس بهذه السمة المتناقضة كونه نشر من قبل الحكومة الأميركية ولم يرد في كتاب سيرة حياته.

لنر قبل كل شيء ما قاله آلن دالس في سنة ١٩٦٣. فقد كتب يقول: «لقد جمع السوفيات مسؤولية التخطيط وعمليات التضليل في قسم خاص في جهاز أمن الدولة، أطلق عليه اسم «مكتب التضليل». واهتم هذا الجهاز بصورة خاصة، خلال السنوات الأخيرة بصياغة وترويج ما زعم أنه وثائق رسمية أميركية، وإنكليزية، أو وثائق تم الحصول عليها من بلدان أخرى في العالم الحر. وكان هدف هذه العملية إظهار سياسة وأهداف هذه الأمم بشكل غير صحيح وكاذب. وفي سنة ١٩٦١، أحال السيد ريتشارد هلمس، الموظف الكبير في وكالة الاستخبارات المركزية، على إحدى لجان الكونغرس الاثباتات حول هذا النشاط. واختار من الوثائق المزورة ٣٠ وثيقة ذات مغزى بصورة خاصة كانت قد نشرت بين ١٩٥٧ و١٩٦٠. وقال إن الأجهزة السرية الروسية تملك تقليداً مزمناً في التزوير. إذ قبل ستين سنة اختلقت «بروتوكولات صهيون» من أجل التمهيد لمعاداة السامية. والسوفياتيون ورثوا هذا التقليد بشكل جيد عن أسلافهم القياصرة. وأشار السيد ريتشارد هلمس إلى أن الهدف الوحيد لهذه الوثائق المزورة الآن هو الحط من شأن الغرب، ولا سيما الولايات المتحدة، أمام العالم، وبذر الشكوك والخلافات بين الحلفاء الغربيين، ودق إسفين بين شعوب البلدان غير الشيوعية وحكوماتها عن طريق ترويج فكرة أن هذه الحكومة هي ألعوبة في يد الولايات المتحدة...».

إن رأي مارشتي وماركس، اللذين أفصحا عنه، بعد ١١ سنة، لم يتفق مع هـذا الطـرح تماما. فقد قالا: «في ٢ حزيران ١٩٦١ ـ أقل من شهرين بعد عملية خليج الخنازير الفاشلة ـ استعرض ريتشارد هلمس أمام لجنة فرعية للأمن الداخلي في مجلس الشيوخ، التزويرات التي تروجها الدعاية السوفياتية. وشمل حديث هلمس ٣٢ وثيقة مزورة «أظهرت بمظهر أنها

بلاغات صادرة عن مندوبين رسميين للولايات المتحدة، أو أنها موجهة إليهم». منها ٢٢ وثيقة، هدفها تقديم إثباتات عن مخططات أو مطامع إمبريالية لدى الأميركيين؛ كما تحدَّثت ١٧ وثيقة عن تدخل مباشر للولايات المتحدة في الشؤون الداخلية لمختلف بلدان العالم الحر؛ و١١ وثيقة تحدَّثت عن تدخلات واشنطن في الشؤون المتعلقة ببلدان آسيوية. وهناك وثيقة تتحدث عن اتفاق سري مزعوم بين وزارة الخارجية ورئيس الوزراء الياباني كيشي، يمكن بموجبه استخدام القوات اليابانية على كل الأراضي الآسيوية. وهناك أيضاً وثيقة جاء فيها أن القوات المسلحة لكافة البلدان الموقعة على معاهدة منظمة جنوب شرق آسيا أصبحت كلياً تحت تصرف مخططات سياسة الولايات المتحدة في جنوب شرق آسيا. وذلك تناول وثيقتين مزورتين تزعمان تقديم الإثبات على أن حكومة الولايات المتحدة تخطِّط للإطاحة بحكومة سوكارنو؛ وتهدف الوثيقتان الأخيرتان، على عكس التكذيبات الرسمية، إلى إظهار حكومة الولايات المتحدة بأنها تدعم سراً المتمردين على حكومة سوكارنو. إن هذين المثالين الأخيرين المتعلقين بأندونيسيا لها أهمية خاصة. فالبحث السريع للوثائق التي قدمها هلمس يشير إلى أن الوثائق مزوّرة، إلاّ أن الوقائع التي نجمت عنها كانت صحيحة تماماً. فمنذ سنة ١٩٥٨، ساندت وكالة الاستخبارات المركزية بنشاط المحاولات التي بذلت للإطاحة بحكومة سوكارنو، وهلمس بالذات كان على علم تام بذلك. وهو يعرف أن «التكذيبات الرسمية» التي ألمح إليها هي مجرد تخرّصات للناطق باسم حكومة الولايات المتحدة. وفي الحديث عن «الأكاذيب السوفياتية» كان هلمس يريد تمويه الحقيقة واستبعاد كل إمكانية لمناقشة الكذب المستمر الذي ترتكبه وكالة الاستخبارات المركزية باسم الأمة الأميركية بأسرها...».

ودون أخذ ملاحظات مارشتي وماركس بعين الاعتبار، استوحى جون بارون، إلى حد كبير، أفكاراً من أعمال هلمس عندما نشر كتاباً بالاشتراك مع ألكسندر سولجنيتسين، فكتب فقرة تحت عنوان «التضليل». وهناك صحفيون أيضاً استوحوا بدورهم من بارون في معالجة مختلف الأحداث على طريقة هلمس. وعلى سبيل المثال نذكر جان ـ بول بيكابر، الذي كتب في مقالة بعنوان: «نهضة النازية الجديدة غير المؤكدة في جمهورية المانيا الاتحادية، هي من صنع دعاية ألمانيا الشرقية» إن «الإثباتات قد دلَّت (وفقاً لكتاب جون بارون) على أن نشوء «النازية الجديدة» غالباً ما كان من صنع عملاء من الشرق ومجموعات يسارية متطرفة...».

وبالطبع عندما قرأ هلمس ذلك أبدى ارتياحه للأصداء الدائمة والبعيدة التي نجمت عن العرض الذي قدمه سنة ١٩٦١. وتجدر الإشارة إلى أن هلمبس عندما كان ينظِّر أمام

أعضاء مجلس الشيوخ عن فن « التزوير » كان قد أصبح خبيراً في هذه المادة. فقد انطلق في حديثه، ليس مما يعرفه عن « تزويرات » أخصامه، بل أيضاً انطلاقاً من خبرته الخاصة، التي اكتسبها عندما كان يشرف على « تزويرات » مأثورة ـ أشهرها دون شك الصيغة « المصنوعة في وكالة الاستخبارات المركزية » للخطاب الذي ألقي في ٢٤ شباط ١٩٥٦ أمام جلسة مغلقة للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، والذي دخل منذ ذلك الحين في التاريخ تحت اسم « تقرير خروتشيف ».

إن مجرد الإعلان عن وجود نص يتهم ستالين بالشكل الذي أصبح معروفاً، أثار ردات فعل كبيرة في العالم، فمن المؤكد أن هذا الأمر أثار بدوره حمية وكالة الاستخبارات المركزية. وكما كتب بنجامين ويلز يقول، فإن « آلن دالس أعلن أنه يمنح مئة ألف دولار لمن يستطيع الحصول على نسخة من هذه الوثيقة، وبعد مرور ٣ أشهر، ومقابل مبلغ أقل بكثير، حصل عملاء السيد هلمس(...) على نسخة من مصادر أوروبية شرقية. بعض قادة وكالة الاستخبارات المركزية أراد المحافظة على سرية ما حصلوا عليه من أجل أن يستغلوا، بالطرق الديبلوماسية الكلاسيكية، الخلافات التي كشفها هذا التقرير في العالم الشيوعي. فيما أصر البعض الآخر على نشر هذا الاتهام ـ الذاتي للنظام السوفياتي، وهذا ما فعله في نهاية الأمر السيد دالس. وبعد ٤ أيام سلّم « التقرير السري » بكامله إلى « النيويورك تايمز » طبقاً لقرار سياسي مشترك من وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية... وفي الوقت الذي كان فيه كبار موظفي الصحيفة يدرسون النص، كان خبراء السيد هلمس، ينسّقون مخططاتهم مع التاريخ المرتقب للنشر، ويعدّون صيغة « التقرير » الخاصة بهم، وهي صيغة ملفّقة في جزء منها. إن الخطاب الذي ألقاه السيد خروتشيف لم يتضمّن أي شيء عن السياسة الخارجية السوفياتية. وعن طريق الحصول بسرعة على معلومات حول نوايا الكرملين بصدد بعض البلدان الأجنبية، وهي معلومات تم الحصول عليها من مصادر سرية، تضمّنت أحكاماً حقيقية يهاجم فيها قادة سوفيات حكام وحكومات بعض البلدان غير المنحازة، استطاع رجال هلمس تكوين ٣٢ فقرة أضيفت إلى النص الأصلي. ونشر النص الأصلي في « النيويورك تايمز » يوم ٥ حزيران سنة ١٩٥٦، ويومها بالذات سرّبت وكالة الاستخبارات المركزية صيغتها المعدّلة، وأظهرتها كما لو أن الأمر يتعلّق بتكبير كليشيهات تم الحصول عليها سراً بواسطة آلة « جاسوسية » اسمها مينوكس. وجرى توزيع هذا النص في العالم بأسره، وفي بعض النقاط الستراتيجية، مما جعل عدداً من وزارات الخارجية الأجنبية تبذل قصارى جهدها خلال أشهر عديدة، لمعرفة أي نص هو الأصلي... ».

إن قضية «تقرير خروتشيف» لا يجب أن تولِّد الانطباع بأن عمليات «التزوير» اقتصرت على الميدان السياسي. ففي «محطات» وكالة الاستخبارات، كان الموظفون في المناصب المحلية، كل في نطاق عمله، يقوم بمبادرات، يقدِّم لنا عنها فيليب إيج، مثالاً نموذجياً... نحن الآن في كيتو، يوم ٢٤ أيار سنة ١٩٦٣. والعملية التي كانت تعدها «المحطة» تكمن في محاولة إخراج قائد شيوعي من (الأكوادور)، هو أنطونيو فلوريز بنيتيز، الموجود في كوبا، والذي سيعود قريباً إلى بلاده. ويضيف إيج: «جون باكون وأنا اقترحنا على دين تحضير وثيقة محرجة نتظاهر بأننا وجدناها بجوزة أنطونيو فلوريز بنيتيز لحظة وصوله إلى المطار (...). أعجب دين بالخطة، وأعطانا الضوء الأخضر. وهذه الوثيقة ستكون تقريراً مزوّراً موجهاً إلى الكوبيين من قبل فلوريز وإيتسيفيريا حول منظمتيهما وخططهما للثورة. وأضفنا إليه كل ما نعرفه عن المنظمة، والباقي حصلنا عليه من المعلومات التي تم الحصول عليها بواسطة التلفون وتقارير كارديناس وفارغاس. ومن أجل تحضير دعايتنا اللاحقة، أصرّينا بصورة خاصة على نشاطات عملاء فلوريس في وزارة الدفاع، وفي جهاز مواصلات الجيش، والحرس الشخصي لاروسيمينا، والأرشيفات الرئاسية...». ويواصل إيج الحديث عن عملية التزوير هذه: نحن الآن في ٢٦ أيار: «عطلة نهاية الأسبوع كانت مشحونة بالعمل. باكون وأنا كنا قد وضعنا الصورة النهائية «لتقرير فلوريز» وسلّمناها إلى ميك بوربانو الذي كتب النص النهائي بالإسبانية (...) وانتقلنا إلى مرحلة التنفيذ... في السفارة كان دين ينظِّف أنبوب معجون للأسنان أفرغه من محتواه ثم أدخل فيه نص التقرير... وحملت أنا هذا الأنبوب إلى سفيلا: الذي سيسلمه إلى ريندون، أي الشخص الذي سيدسّ الأنبوب بين متاع فلوريز. على كل حال ريندون لم يغادر المطار قبل وصول فلوريز...». ويوم ٢ حزيران: «وقع فلوريز في الفخ. وبينما كنت ألعب الغولف صباحاً أعلمت بأن العملية تمت بنجاح كما كان متوقعا».

عندما نفذ هذا الاستفزاز في كيتو عاصمة (الأكوادور) في ربيع سنة ١٩٦٣، كان هذا البلد جزءاً من «حمى» الولايات المتحدة، لكن ريتشارد هلمس الذي أصبح منذ أكثر من ١٥ شهراً «نائباً لمدير التخطيط»، لم يعد هذا البلد يشكل بالنسبة له نقطة حساسة، لأن العمل الذي سيقوم به رجال وكالة الاستخبارات المركزية أصبح عملاً روتينياً. ويوجد على مكتبه تقارير أخرى حول قضايا أخرى من نفس نوع «تقرير فلوريز» إذن «تزويرات» يومية أخرى.

ومع هذه الممارسة، وهذه الخبرة، يصبح من المنطقي أن يذهب قادة «الشركة» بعيداً

من أجل استغلال كل الإمكانيات التي يمكن أن تتوفّر في هذا المجال. وأفضل مثال لإظهار المستوى الذي وصلت إليه هذه النشاطات هو الأفلام الخلاعية التي دبّرت بشكل يظهر فيه « أبطالها » بمظهر شخصيات سياسية عالمية.

بهذا الصدد يقول جيم هوغان إن « وكالة روبرت أ. ماهو وشركاه » تأسّست سنة ١٩٥٤(...) وكانت تهتم بعمليات وكالة الاستخبارات المركزية، الدقيقة جداً، أي الأعمال القذرة: الدعارة، والخلاعة، والاغتيالات ـ كل ذلك في معظم الحالات كان يحصل على الأرض الأميركية(...). وهذه المؤسسة كانت نشيطة جداً وجنت أرباحاً طائلة إذ كانت تُستخدم كغطاء لوكالة الاستخبارات المركزية وتقدم الداعرات إلى زبائن هذه الوكالة، كما كانت تقوم ببعض « الأعمال الصغيرة » الغريبة. ومن هذه « الأعمال » مثلاً قيام ماهو بانتاج فيلم خلاعي يظهر زعيماً شيوعياً (المفروض أن يكون الماريشال تيتو) عارياً من الثياب مع فتاة جميلة عارية هي أيضاً. وقد مثّل دور « تيتو » مستخدم لدى ماهو أُخضع لعمليات ماكياج خاصة. أمّا الفتاة فكانت زوجة هذا المستخدم، أظهرت بملامح جاسوسة جذابة من الـ K. G. B. قام معها الزعيم الشيوعي، على حد قول مصادر أكيدة، بمغامرة في موسكو. وكان هدف وكالة الاستخبارات المركزية من هذه العملية، توزيع نسخ من الفيلم في يوغوسلافيا ـ والترويج بأن الروس هم مَنْ وراء هذا الفيلم. ولم يعرف لماذا لم يسرَّب هذا الفيلم. ويبدو أنه بقي في خزائن وكالة الاستخبارات المركزية.

لقد جاء في التقرير الرسمي الصادر عن « لجنة تشرش » والذي نشره مجلس الشيوخ: « إن رئيس قسم المساندة أعلن من جهة أخرى أمام اللجنة، أنه بطلب من وكالة الاستخبارات المركزية، قام ماهو في هوليوود بتصوير فيلم يصف رحلة قام بها إلى الاتحاد السوفياتي رئيس دولة أجنبية برفقة إمرأة. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية تريد تسريب هذا الفيلم والترويج بأنه من إنتاج سوفياتي. إلاّ أن الفيلم لم يستخدم أبداً. واعترف ماهو بأنه وجد شخصاً يشبه رئيس الدولة المعنية وأنه أنتج الفيلم... ». إلاّ أن آلان جوبير عندما يستشهد بهذا المقطع من « تقرير تشرش » لم يقل إن « رئيس الدولة الأجنبية » هو الماريشال تيتو. وفي ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٧٦ كتب في « الواشنطن بوست » يقول: « إن هذا المخطط كان ضد الرئيس الأندونيسي سوكارنو(...) والهدف منه تعكير علاقات سوكارنو مع الحكومة السوفياتية: كان من المفروض توزيع الفيلم في أندونيسيا وتوليد الانطباع بأنه من صنع السوفيات... ». نفس الفكرة أيضاً تحدَّث عنها باورز، إذْ قال إن الشخصية المقصودة كانت حقاً سوكارنو. إذن تيتو أم سوكارنو؟ هناك جوابان ممكنان لهذا السؤال، لكن

الجواب الثاني يبدو لنا من بعيد أقرب إلى الحقيقة، إذْ إن هوغان وباورز، كل منهما كتب كتابه اسناداً إلى وثائق جدية، وفي بعض الأحيان استناداً إلى شهادات مباشرة... الفرضية الأولى: أحد الذين كشفوا النقاب عن وجود الفيلم أخطأ في تحديد شخصية رئيس الدولة المقصود، ومن هنا نشأ هذا الغموض. الفرضية الثانية: انطلاقاً من سيناريو نموذجي، كان من المتوقع تصوير مجموعة من الأفلام يتغيَّر «أبطالها» لأن الأمر يتعلَّق بهذا الزعيم أو ذاك في البلدان «غير المنحازة» الذين كانت تتمنى وكالة الاستخبارات المركزية تسميم علاقاتهم مع السوفيات.

وبالمقابل هناك نقطة يبدو أن الجميع اتفقوا حولها وهي أن الأفلام «الخلاعية» التي أنتجتها «الشركة» لم تستخدم. لماذا؟ الشخص الوحيد الذي يعطي الجواب هو باورز الذي كتب يقول إن أحد أعضاء وكالة الاستخبارات المركزية كشف النقاب أمامه عن أن «الوكالة» تفتقر إلى البنية التحتية الضرورية لاستغلال مثل هذه الأفلام...

إن ريتشارد هلمس، الذي انطلق من القاعدة ووصل الى منصب مدير «الوكالة»، بقي في هذا المنصب مدة أطول من المدة التي قضاها استاذهم جميعاً آلن دالس. وقد شارك بشكل أو بآخر في كل العمليات التي اتسم بها تاريخ وكالة الاستخبارات المركزية منذ نشوئها. وعندما صعد إلى الطائرة في طريقه لتسلّم منصب السفير في طهران، لم يكن يتوقع فترات صعبة في حياته، وأنه سيواجه، بعد أقل من ٥ سنوات، تجربة لم يسبق لرجل من طرازه أن مرّ بها.

لنر الوقائع.

في منتصف خريف سنة ١٩٧٧، وزعت وكالة «الأسوشيتد برس» الأميركية، نبأ نشر في عدد كبير من الصحف. في باريس نشرت صحيفة «لوموند» الصيغة التالية: «صدر في ٤ تشرين الثاني حكم بالسجن لمدة سنتين مع وقف التنفيذ على المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية وتغريمه بمبلغ ألفي دولار لأنه أخفى على لجنة تابعة لمجلس الشيوخ كل ما يعرفه عن نشاط الوكالة في الشيلي. ولدى تلاوة الحكم، أعلن القاضي قبول المصالحة التي وافق عليها البيت الأبيض لصالح السيد هلمس، إلاَّ أنه شدَّد على أنها المرة الأخيرة التي يقبل بها بالعفو عن مسؤول ينتهك القانون...».

بعد مرور أسبوع على ذلك، كتب ريتشارد ستيل في «النيوزويك» يقول: «تحاول الحكومة منذ ١٩ شهراً أن تحدّد ما إذا كان عليها الشروع بملاحقة هلمس لأنه ضلّل لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ، بصدد محاولات وكالة الاستخبارات المركزية الإطاحة

بالرئيس الماركسي في الشيلي، سلفادور ألليندي. ففي شباط وآذار ١٩٧٣، نفى هلمس صراحة كل مساندة قدمتها وكالة الاستخبارات المركزية إلى معارضي ألليندي. إلاَّ أن لجنة ثانية في مجلس الشيوخ اكتشفت فيما بعد أن وكالة الاستخبارات المركزية قدَّمت ٨ ملايين دولار إلى أعداء ألليندي خلال السنوات الثلاث التي سبقت مقتل رئيس الشيلي أثناء الانقلاب الذي أطاح به...».

إن ريتشارد ستيل عندما يقول إن «لجنة ثانية لمجلس الشيوخ اكتشفت فيما بعد أن وكالة الاستخبارات المركزية... الخ» فإنه يبسِّط الأمور. فكيف استطاع أعضاء مجلس الشيوخ «اكتشاف» وقائع متعلِّقة بـ «الشركة» ومعروفة منها فقط وقرَّرت عدم الكشف عنها. في الحقيقة إن أعضاء مجلس الشيوخ لم «يكتشفوا» سوى المعلومات التي قدَّمها إليهم مسؤولون في «الوكالة». إن السؤال الذي يطرح نفسه على الفور هو بالطبع: من هم المسؤولون؟ ولماذا؟ وسرعانِ ما نجد أنفسنا أمام نزاع يقسم إلى اليوم رجال وكالة الاستخبارات المركزية.. نزاع بمجمله يعارض أصدقاء هلمس بأصدقاء كولبي، مع فارق بسيط أن أنصار الأول يبدو أنهم أكثر عدداً من أنصار الثاني. وهنا تجدر الإشارة إلى مسؤولية كولبي وتورّطه في الدعوى المقامة ضد هلمس.

يقول أصدقاء هذا الأخير، إن كولبي بالفعل هو الذي قدَّم إلى السلطات القضائية الملف الذي عجَّل الملاحقة... ويعود السبب في ذلك إلى «مجوهرات العائلة» المشهورة، هذه «الموسوعة» الخاصة المؤلفة من ٦٩٣ صفحة، حيث يجري الحديث عن كل الأسرار «المزعجة» تقريباً لوكالة الاستخبارات المركزية، والتي ألمحنا إليها في بداية هذا الكتاب.

إذن نعود من جديد إلى الأشهر الأولى من سنة ١٩٧٣... كان جايمس ر. شليسينجر قد حلَّ محل هلمس بادئاً أقصر مدة قضاها مدير على رأس «الوكالة» (خمسة أشهر بالضبط: من ٢ شباط حتى ٢ تموز). في تلك الفترة كان كولبي قد أصبح نائباً لمدير قسم التخطيط. فقد كتب توماس باورز، ويؤيده في ذلك هلمس وأصدقاؤه «في أيار سنة ١٩٧٣ قرَّر مدير وكالة الاستخبارات المركزية في ذلك الحين جايمس شليسينجر، بنصيحة من كولبي الذي كان قد صاغ شخصياً التعميم، إصدار الأمر إلى موظفي وكالة الاستخبارات المركزية إعلام مكتب المفتش العام، الذي كان وقتها ويليام برو، بكل ما يمكن أن يعتبر انتهاكاً للقانون أو النظام الداخلي لوكالة الاستخبارات المركزية(...). ومن الأمور التي وصلت إلى كولبي وإلى المفتش العام(...) مذكرة تؤكِّد أن هلمس كذب أمام الكونغرس بصدد الشيلي. وإذا ما صدَّقنا مذكراته، حاول كولبي في البداية تجاهل هذه القضية، ولكنه ما لبث

أن قال إن تحقيقاً داخلياً كان ضرورياً من أجل تلافي اتهامي بأنني تكتَّمت على جريمة. وبالاتفاق مع كولبي، شكَّل برو فريقاً من ٣ أشخاص لدراسة شهادة هلمس(...). وتوصَّل الأشخاص الثلاثة إلى الاستنتاج بأن وكالة الاستخبارات تورَّطت إلى حد بعيد في الشيلي وأن هناك تناقضاً بين الوقائع والشهادة. ولكن عندما صاغ الفريق تقريره ذهب بعيداً ووصف صراحة شهادة هلمس بأنها شهادة زور، وحصل ذلك بفعل إلحاح من قبل توم لالور، وهو أحد المحلِّلين الذين شاركوا في التحقيق. مرة أخرى حاول كولبي إهمال التقرير، إلاَّ أنه قرَّر في نهاية الأمر إبلاغه إلى وزير العدل في ذلك الحين لورانس سليبرمان. إن لاري هوستون «القنصل العام»، الذي كان على وشك التقاعد، وجون وارنر الذي كان يستعد للحلول محله، أيَّدا أن لالور والعضوين الآخرين في الفريق ليسوا حقوقيين وأنهما استخدما كلمة شهادة زور في غير محلها الخ. إن ما حفظ لم يكن الحجج الحقوقية لهوستون ووارنر، بل واقع أنهما صديقين لهلمس، وأنهما رفضا قبول فكرة أن تندِّد وكالة الاستخبارات المركزية بنفسها... ومن جهة أخرى كان لالور عنيداً وأصرّ: شهادة هلمس كانت شهادة «زور» ويجب أن تبقى في النص. ولم يرد كولبي استخدام سلطته ضد لالور، وأرسل التقرير إلى وزير العدل، في كانون الأول سنة ١٩٧٤، دون تعديل...».

إن الصلاحيات التي رفض استخدامها كولبي لمنع ملاحقة هلمس، كانت صلاحيات مدير وكالة الاستخبارات المركزية، لأنه عندما أحيل التقرير إلى العدالة، كان قد مضى ١٨ شهراً تقريباً على حلول كولبي محل شليسينجر في كرسي الإدارة. ولكن هل كانت هذه الصلاحيات كافية، وهل كان بإمكان مدير وكالة الاستخبارات المركزية تجميد العملية التي أدّت إلى اتهام أحد أسلافه؟ هذا ما ينكره كولبي في حديثه عن الوقائع في المرافعة التي يمكن اختصارها في ما يلي: «لم يكن باستطاعتي أن أفعل أي شيء آخر...». من أجل فهم هذه المرافعة، يجب الاطلاع على نشاط «الشركة» الهادف إلى منع انتخاب سلفادور ألليندي وقيام نظام «الوحدة الشعبية» في الشيلي، هذا النشاط الذي قام على مرحلتين كل منها تحمل إسماً كودياً. الإسم الأول هو «السبيل رقم واحد»، والاسم الثاني «السبيل رقم اثنين». المرحلة التي نتحدّث عنها، كان «السبيل رقم واحد» قد كشف النقاب عن وقائع عديدة فيها، ولكن مجرّد وجود «السبيل رقم اثنين» كان مجهولاً تماماً.

فقد كتب ويليام كولبي يقول إن «موجة الانتقادات التي اشتعلت بعد ووترغيت أفلتت من عقالها بعد الإطاحة بألليندي. وكانت قد قامت حملة تحاول صراحة أن تزرع في الرأي العام فكرة أن وكالة الاستخبارات المركزية قد شاركت في أحداث الشيلي. ومجلس

الشيوخ في مماطلته في التحقيق حول الشركات المتعددة القومية كان يبتغي دراسة العلاقات الخاصة القائمة بين شركة «I. T. T» وبين سفير الولايات المتحدة ومركز وكالة الاستخبارات المركزية في سانتياغو، فخلال ربيع سنة ١٩٧٣، كان شليسينجر قد واجه التحقيق، وبقيادته كنا قد شهدنا أمام لجان المراقبة التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، دون أن نأتي على ذكر «السبيل رقم اثنين». نفس الموضوع أثير خلال الجلسات اللاحقة وكان ريتشارد هلمس في منصب السفير في إيران، إلاَّ أن الصحافة لم تهمل موضوع وفاة ألليندي يوم ١١ أيلول سنة ١٩٧٣، بل نشرته على صفحاتها الأولى في كافة البلدان. في ذلك الحين حصل مندوب ماساشوستس من اللجنة الفرعية للشؤون الأميركية لدى لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب على استدعاء لي في ١١ تشرين الأول من أجل الإدلاء بشهادتي حول الشيلي...».

لبَّى كولبي هذا الاستدعاء، وفي اعتباره أن «لجنة الشؤون الخارجية الأميركية» ليست مخوَّلة الاطلاع على الأمور السرية، وفي الواقع لم يقل شيئاً. وأضاف: «اقتصرت الجلسة على مناظرة كلامية بين هارينغتون وبيني. واكتفيت ببيانات واقعية حول الأحداث في الشيلي. في حين كان هو على عجلة من أمره لطرح أسئلة حول دور وكالة الاستخبارات المركزية، وهي أسئلة رفضت بكل بساطة الإجابة عنها. وبالتالي شرع هارينغتون بالضغط على لجنة المراقبة التي كان يرئسها ندجي. ودون حماس خاص، دعا ندجي بالفعل إلى عقد دورة سرية للجنة الفرعية التابعة للاستخبارات في نيسان ١٩٧٤. وأجبت على الأسئلة المتعلِّقة بالدور السياسي السري لوكالة الاستخبارات المركزية، قبل وبعد انتخاب ألليندي ـ عمليات «السبيل الأول». لكن كانت عملية «السبيل الثاني» قد حصلت. وهي لم تدم فعلياً سوى ستة أسابيع وأوقفت بعد تسلُّم ألليندي مهام منصبه؛ واستمرينا في سعينا لتدبير انقلاب. وكان الرئيس نيكسون قد أصدر أمراً إلى هلمس والوكالة للمحافظة على السرية المطلقة لهذه القضية. وبعد أن أدليت بشهادتي حول عملية «السبيل الأول» وأجبت على كل الأسئلة بالتفصيل، شعرت بنفسي وضميري أن الأمور لا يمكن أن تقف عند هذا الحد. فقبل وبعد الإدلاء بالشهادة كنت قد تعهدت بكل إخلاص لأعضاء اللجنة ولندجي شخصياً، أن أطلعهم على كل ما كان يحصل في وكالة الاستخبارات المركزية بما في ذلك الأحداث التي لا يمكن أن يشكّوا فيها. كنت أمام الحائط...».

بعد التفكير، قرَّر كولبي تخطي هذا الجدار، قدَّم إلى المندوب لوسيان ندجي «موجزاً» عن «السبيل الثاني»... وأضاف قائلا: «لكن الأمور لن تبقى هنا. وواصل

هارينغتون حملته مستنداً إلى قانون مجلس النواب القائل بأنه يحق لأي كان من أعضائه الاطلاع على تحقيقات كل اللجان. وبعد مرور عدة أسابيع، أطلعني ندجي هاتفياً أنه مضطر فعلياً لتلبية طلب هارينغتون. لكنه أكّد لي أنه سيطلب من هارينغتون قسم اليمين من أجل المحافظة على الطابع السري للملف... وتبيَّن أن هذا الطابع السري كان نسبياً جداً إذْ « قبل المناقشة بعدة أيام، « سرِّبت » إلى « النيويورك تايمز » رسالة، كتبها هارينغتون، توجز شهادتي السرية. ومن جديد هبّت عاصفة حقيقية بصدد وكالة الاستخبارات المركزية والشيلي(...). إن رسالة هارينغتون والعاصفة(...) كان لها نتائج مضنية جداً بالنسبة لي. وهنا مجرَّد تساؤل عمّا إذا كان سلفي ريتشارد هلمس، الذي بذل الكثير من أجل تحضيري للمهام التي أشغلها، لم يكن قد انتهك القانون. وخلال استجوابه عندما كان سفيراً في إيران، طرح عليه أعضاء مجلس الشيوخ بعض الأسئلة المحرجة حول نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية في الشيلي. وعلى ضوء الاعترافات الأخيرة، تساءل البعض حول ما إذا قال كل الحقيقة. وحتى داخل وكالة الاستخبارات المركزية وجه أحد المطلعين على عملية « السبيل الثاني »، تمشياً مع تعميم شليسينجر ـ كولبي، مذكرة إليّ يطالب فيها بإجراء تحقيق من أجل تحديد ما إذا كان هلمس مسؤولاً أم لا عن شهادة الزور. لو فعلت ذلك لوجدت نفسي سجيناً لنزاع جديد بين الماضي والمستقبل. إن هلمس الخادم المطيع لرئيسه ومهنته، بذل كل جهده للمحافظة على السر الذي أمر بحمايته. ورداً على تعليماتي الصريحة فإن الشخص الذي اقترح إجراء تحقيق، كان هو أيضاً يقوم بواجبه. فتلبية هذا، يعني إنكار الماضي؛ وحماية ذاك، يعني إحراج المستقبل. لقد كنت وسأبقى على قناعة تامة أن ريتشارد هلمس لم يفعل أي شيء يستأهل المحاكمة. لكنني كنت أعرف جيداً لو قررت المحافظة على سرية الملفات لكنت أظهرت أمام كل مستخدمي وكالة الاستخبارات المركزية، أن توجيهات شليسينجر وكولبي، مع كل الأقوال المعسولة حول دخول الأجهزة السرية الأميركية عصراً جديداً، ليست سوى هباء منثوراً، لأن تنفيذها كان يعود إليّ بالدرجة الأولى. لذا طلبت من المفتش تكليف ٣ موظفين من الوكالة بدراسة شهادات هلمس وإبلاغي استنتاجاتهم خطياً. والتقرير الذي وصلني بعد بضعة أسابيع لم يسهِّل الأمور أبداً، لأنهم لم يتوصلوا إلى أي استنتاج حاسم. وفي إعلان عجزهما عن تقرير ما إذا كان هناك اختلاف كبير بين الوقائع والشهادة، طلب مني الثلاثة استشارة وزير العدل. ولا شيء يدعو للدهشة في أنني استغنيت عن هذه الاستشارة. وتوجهت أولاً إلى محامي وكالة الاستخبارات المركزية، وطلبت منه إعطاء رأيه خطياً. وحسب هذا الرأي كان هناك يقين تقريباً بأن هلمس ليس مسؤولاً عن شهادة زور، ولفت انتباهي إلى اتفاق عقد سنة ١٩٥٤ بين

الوكالة ووزارة العدل ينص على أن الطابع السري المحتم لنشاطات وكالة الاستخبارات المركزية يخولها أن تقرِّر وحدها ضرورة إحالة أو عدم إحالة الجرائم المحتملة التي تطَّلع عليها إلى الدوائر العدلية. وعلى هذا الأساس، كتبت أنا شخصياً مشروع مذكرة(...). وفي النهاية اقترحت التخلي بكل بساطة عن القضية. ولكن بقي أمامي شيء أخير أفعله: إحالة مشروعي إلى الموظفين الثلاثة الذين خوَّلهم المفتش العام تقديم تقرير، لأنني لم أكن أرغب في توليد الانطباع بأنني قررت في النهاية خنق القضية. وبكثير من الشجاعة وبإجماع رائع، كان جوابهم أن الأمور لن تقف هنا».

يُلاحظ أن رواية كولبي تختلف بعض الشيء عن رواية باورز. وهذا الاختلاف يصبح ملموساً أكثر انطلاقاً من النقطة التي وصلنا إليها. وبالفعل فقد قال كولبي إنه قبل أن يبلغ أي شيء للعدالة، ذهب شخصياً لزيارة وزير العدل وأكد أنه لدى دخوله إلى مكتب سليبرمان كان مهتماً بتسوية الأمور دون أن يقع في وضع يمكن أن يلام عليه «لأنه يسعى إلى خنق القضية». فهو كان ينوي بلوغ ذلك عن طريق «اتفاق» سنة ١٩٥٤. لكنه وجد نفسه أمام وزير عدل متشدد قال له حرفياً: «بيل أنت حقوقي. لا تكن بسيطاً. فالاتفاقات المعقودة لا تهمني. كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أنه من المستحيل اليوم إعطاء أي امتياز لوكالة الاستخبارات المركزية يسمح لها أن تقرر من جانب واحد ما إذا كان من الممكن ملاحقة موظفيها أم لا. إنها غباوة، وأنا أفهم تماماً الخط الذي يمكن أن يشكله إفشاء أسراركم أمام المحاكم. قد يكون من الواجب اتخاذ قرار لتلافي مثل هذه المحاكمة. لكن ليست وكالة الاستخبارات المركزية مَنْ تقرر ذلك...».

كيف كان جواب مدير وكالة الاستخبارات المركزية ويليام كولبي أمام وزير العدل سليبرمان؟ كولبي لم يوضح ذلك، إذ اكتفى بالقول: «لم أكن قادراً على النقاش معه. وحتى أقول كل شيء، كنت مؤيداً لرأيه. ودون إلحاح، حدثته عن القضايا التي أثارتها شهادة هلمس، مع التشديد حسب رأيي، أنه لم يكن هناك بالتأكيد أية شهادة زور. إستمع اليَّ باهتمام ثم طلب مني تسليمه الملف. وأمام تأكيده على المحافظة على سرية هذه الوثائق، وافقت وذهبت في عطلة. وفي اليوم التالي، اتخذت الإجراءات الضرورية لإحالة الملف إليه. البعض لم يغفر لي أبداً هذا العمل. إن عدداً من المسؤولين في الوكالة - في طليعتهم هلمس وإنغلتون - أعلنوا أنني طعنت سلفي من الخلف، وهو المحسن إلي وصديقي. أما أنا فعلى اقتناع بأنني قمت بواجبي (...). وفضلاً عن ذلك كنت متيقناً أن هلمس لا يواجه أي خطر حقيقي (...). والبعض لا يزال يقول حتى اليوم إنه لم يكن من الواجب إحالة الملف.

إلى سليبرمان وقبلت هذا اللوم كثمن دفعتـه مـن أجـل إقـامـة جهـاز استخبـارات يحترم الدستور . . . » .

. في مكان آخر غير مكاتب لانغلي ، ارتفعت حدة المناقشات بين أولئك الذين يؤيدون وأولئك الذين يعارضون تصرف كولبي تجاه هلمس. هو مقر « جمعية قدامى العاملين في وكالة الاستخبارات المركزية .ان هذه الجمعية المفتوحة أمام كل الذين انتسبوا إلى عصبة الاستخبارات أسسها سنة ١٩٧٦ دايفيد اتلي فيليب ، أحد قـدامـى وكـالـة الاستخبـارات المركزية . وفيليب هذا هو صحفي سابق عمل لمدة ربع قرن في الوكالة ، وعندما تقاعد سنة ١٩٧٥ كان رئيساً « لقسم نصف الكرة الغربي » أي أميركا اللاتينية وأميركا الوسطى ، إبتداء من كاب هورن حتى حدود الولايات المتحدة مع المكسيك . وقبل أن يصل إلى هذا المنصب كان قائداً لمجموعة التدخل الخاصة التي أنشئت لتنفيذ عملية « السبيل الثاني » . وخلال عمله لمدة ربع قرن ، فإنه لم يكن مجرد موظف ، بل صديقاً لهلمس وكولبي . وفي نهاية مذكراته ، تحدث عن زيارة قام بها إلى الدارة التي يقطنها كولبي الأن في بوتسدا (ماريلاند) في ضاحية واشنطن الشمالية ـ الغربية . . .كان الربيع « جميلاً » . عبر النافذة كان من الممكن رؤية « كنيسة لابوتي فلور » . ففي حين خرجت بربارا كولبي لشراء بعض المرطبات ، تحدث رجلان فيما بينهما ؛ تحدثا من جديد عن قضية هلمس . وفي نظرة تائهة باتجاه الكنيسة ردد المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية القول : « لا لم يكن امامك خيار آخر ، لا ، لم يكن باستطاعتي أن أفعل غير ذلك . . . » .

وإذا كانت هذه المناقشات حول كولبي . والتي اشترك فيها هو شخصياً ، قد أغنت معارفنا حول الجو الداخلي « للشركة » وعقلية أعضائها ، إلا أنها لم تغير شيئاً من واقع أنه منذ اللحظة التي سلّم فيها كولبي ملفات « السبيل الثاني » إلى سليبرمان ، وجد هلمس نفسه في دوامة قضائية دفعت به من الاتهام إلى المحاكمة . وإذا ما أخذنا بعين الأعتبار الجو السياسي الذي كان مخيماً على الولايات المتحدة في ذلك الحين ، يصبح من الجلي أن هذه الدوامة كان لا يمكن إيقافها دون إيجاد فضيحة جديدة ، تضاف إلى الفضائح التي كانت الصحافة الأميركية تندد بها يومياً آنذاك : فكل من يتحمل مسؤولية التدخل سيتعرض فوراً للتنديد ، لذا كان من المستحيل مجرّد تصور ، ان قائداً سياسياً أو موظفاً كبيراً قد يأخذ على عاتقه خنق القضية . وكما يقال ، أخذت العدالة مجراها . . . إن ريتشارد هلمس ، هذا المتهم المطيع ، هو بالطبع متهم غير عادي : إنه أول عضو ، بل أول مدير « للأجهزة الخاصة » الأميركية ، يلاحق أمام القضاءالأميركي . ففي الظروف التي اتهم بها بالادلاء « بشهادة زور » كان عقاب هذه الجريمة يمكن أن يؤدي إلى ٥ سنوات من السجن . لذا ، سنرى الآن كيف أخذت العدالة مجراها ؟ .

في محيط وزير العدل، (الذي يشارك في الولايات المتحدة بمناقشات «مجلس الأمن القومي»، فهو بالتالي على معرفة تامة بمسائل وكالة الاستخبارات المركزية)، بدأ القلق يظهر بسرعة. لكن انطلاقاً من اللحظة التي بدأ يتصور فيها أنه معرَّض فعلياً للإقامة في السجن والإهانة المترتبة على ذلك، كان من المستحيل القول بأن هلمس لن يشن هجوماً معاكساً. وهذا الهجوم المعاكس يمكن أن يكون رهيباً بصورة خاصة، لأنه لا يوجد أبداً أي ميدان ولا أية شخصية في الحياة السياسية أو عالم الأعمال لا يملك مدير وكالة الاستخبارات المركزية أسراراً حولها، وهذه الأسرار اذا ما أفشيت بكل هذه البساطة ستكون في أدنى حد مزعجة في حدها الأدنى، وفي أسوأ الأحوال ستكون قاضية. ومن جهة أخرى، أصيب رجال القضاء بالخوف من كشف النقاب عن الأسرار، مما أدى بهم إلى اعتبار هذا المتهم المتمرد بمثابة كبش محرقة، ولهذا راحوا يفتشون عن وسيلة لتبرئته. ومع ذلك استغرقت، التسوية وقتاً طويلاً: ٣ سنوات تقريباً..ويجب القول إنه بين تأليف مجموعة «مجوهرات العائلة» والحكم على هلمس، انقضى أكثر من ٤ سنوات. شهدت غلياناً سياسياً، وتعاقب خلالها ٣ رؤساء: ريتشارد م. نيكسون، وجيرالد فورد، وجيمي كارتر، وكذلك اطلع على ملف القضية وزيران آخران للعدل بالإضافة إلى سليبرمان، هما: ادوار هـ. ليفي وغريفين ب. بيل. وأخيراً نعرف أن المحامي الذي اختاره هلمس للدفاع، وهو ادوارد ب. ويليامس، رجل مخضرم في الكواليس السياسية ومع ذلك فقد استغرقت مفاوضاته المتعاقبة هذا الوقت.

وإذا صدقنا جيم هوغان، فإن هذا الوقت لم يذهب هباء منثوراً. فقد كتب يقول «خلال المفاوضات مع وزير عدلية كارتر، ألمح ويليامس وهلمس بكل وضوح إلى أن الدفاع عن المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية يستوجب كشف النقاب عن أسرار كثيرة تلقي الضوء على قطاعات واسعة تتناول الأمن القومي (ولا سيما الشيلي). وهذه الاعترافات لو حصلت لكانت خدمة كبيرة لزبائن آخرين لدى ويليامس (...). وأمام هذا الواقع اضطر وزير العدل غريفين بل ومساعده (...) بن سيفيلتي على التراجع أمام ويليامس واعتبار ما فعله هلمس جنحة. إن تفسير هوغان هذا ليس مبالغاً فيه على ما يبدو، إذا ما قورن بما قاله مراسل «لوموند» الدائم ميشال تاتو عن هذه القضية: «إن رغبة الرئيس كارتر لتطهير الإدارة والخلاص من الفضائح الماضية التي تصل إلى حد يهدد وجود الدولة. وقد رأينا ذلك في الشكل الذي تصرف به وزير العدل السيد غريفين بل بالاتفاق مع الرئيس لحسم قضية المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية، السيد ريتشارد هلمس الذي اتُّهم بالكذب أمام لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ، سنة ١٩٧٣، بصدد الأحداث في الشيلي (...)،

واستجوب مَن الكونغرس في ربيع ١٩٧٣ ـ قبل الانقلاب في سانتياغو ـ ووفقاً لقرار الاتهام الذي صاغه وزير العدل، فإنه لم يقدم « جواباً كاملاً ولا دقيقاً، كما ينص القانون ». ومع ذلك خولت الحكومة المذنب الاستفادة من الأسباب التخفيفية، المرتقبة في العدالة الاميركية. وأعلن السيد هلمس بأنه لم « يعترض » على الاتهام الرسمي، وهذا يعني من جانبه لا تكذيب ولا اعتراف. ومع قبولها هذا البيان، لم تصر وزارة العدل على اتهام المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية بالكذب، مما كان سيؤدي إلى فتح دعوى. وأعلن وزير العدل أن هذا الأمر لو حصل لكان مكلفاً جداً بالنسبة للولايات المتحدة. إذ كان سيعرض للخطر أسرار الدولة. وفي تأكيده على موافقة الرئيس كارتر على هذا القرار، أعلن السيد باويل الناطق باسم كارتر أنه من الطبيعي « التأكيد على سلطة القانون، والكونغرس مع حماية المصالح المشروعة للأمن القومي ...

وهكذا انتهت القضية يوم ٤ تشرين الثاني بإصدار حكم بالسجن لمدة سنتين على ريتشارد ماك غاراه هلمس مع وقف التنفيذ، وبتغريمه مبلغ ألفي دولار.

ومن وجهة نظر السلطة السياسية، قدمت التسوية ثمارها، إذ لم تؤد إلى الإفشاء بأي سر. إلا أن القاضي باركر أصدر بياناً رسمياً أعلن فيه، أنه إذا استمر الموظفون بتجاهل القانون فإن « مستقبل البلاد سيصبح في خطر ».

وفي الدقائق التي أعقبت إصدار الحكم، صعد « ديك » هلمس في السيارة وسلك طريق بوتسدا (ماريلاند). ولم يكن الأمر يتعلق بزيارة إلى كولبي، بل من أجل حضور وليمة أقيمت في « كينوود كاونتري كلوب ». وليمة يحضرها ٤٠٠ من قدامى « الشركة »، أصبحوا متقاعدين الآن. وعندما دخل إلى قاعة الطعام، وقف هؤلاء الـ ٤٠٠ احتراماً لوجوده... وفي ركن من الغرفة وضع فوق بيانو سلتين فارغتين، سرعان ما امتلأتا بشيكات تفوق قيمتها ألفي دولار، وهو المبلغ الذي غُرِّم به.

ولا حاجة للقول بأن الحكم الذي أصدره القاضي باركر كان موضوع تعليقات واسعة في الصحافة الأميركية: كان بمثابة إشارة لاندلاع جدل آخر حول دور وكالة الاستخبارات المركزية. ونشرت الصحف أيضاً تصريحات للمدير السابق للوكالة. إن جورج بوش الذي كان قد غادر الطابق السابع في لانغلي قبل بضعة أشهر من ذلك التاريخ، اعتبر أنه كان بالإمكان « حفظ القضية ». أما ويليام كولبي فكان يردد بهذا الصدد، أن السيد هلمس، هذا الفقير وقع في فخ تغيير قوانين اللعبة أثناء حصول المباريات.

الفصل التاسع

راي كلين ، او قمة العمالة

هو من قدامى هارفارد وخريجي أوكسفورد ـ حيث نجد ويليام لانجر . . . ـ . . وأيضاً آلن دالس (للقيام بجولة حول العالم) ـ « الشكل السري لنشاطاتنا » ـ حول الزراعة السوفياتية ـ متحف للاستخبارات ـ « اللوبي الصيني كان قوياً جداً . . . ـ فوق قمم الهيالايا ـ الشركات الجوية التابعة للشركة ـ الغي تمثال لتروخيليو ـ لنستخدم السلاح الصامت في العمل الرئيسي ـ الاغتيالات السداسية في سيول ـ غواتيمالا ، ١٩٥٩ ، والبرازيل ، ١٩٦٤ ـ بابا دوبولس « عميل لوكالة الاستخبارات المركزية منذ ١٩٥٢ » ـ « لجنة انحطاط الصحة » ـ مؤتمر باندونغ ـ حمام دم في أندونيسيا ـ إعترافات خوسي فيغيزس ـ يوميات طريق « تشي » ـ ثلاثة رؤساء في المكسيك ـ كتاب محظور : صعود موبوتو .

وهكذا ، فمن الصعب القول إننا تركنا ريتشارد هلمس ، ونحن ننتقل الآن إلى الصورة التاسعة ، صورة راي س. كلين. والأصعب من ذلك هو اننا غالباً ما قدمنا كلين بمثابة « الخصم » الرئيسي ، بل الأوحد ، لهلمس في « الوكالة » .

خصمه ؟ في الحقيقة ، ودون أي نية للتقليل من شأن الدور الذي لعبه في تاريخ « الشركة » هذا الشخص الذي غالباً ما سمي « الدكتور كلين » ، تبدو هذه الخصومة ، لدى بحثها ، مشكوكاً فيها . ومع كون كلين أصغر سناً بخمس سنوات من هلمس ، إلا أنهما عملا معاً في مكتب الاستخبارات الستراتيجية منذ سنة ١٩٤٣ ، وتركا « العصبة » معاً سنة ١٩٧٣ . وكانا لمدة ٣ سنوات « نائبين للمدير » : كلين « نائب للمدير لشؤون الاستخبارات » وهلمس « نائب للمدير لشؤون التخطيط » .

ولد راي كلين سنة ١٩١٨ ، في أندرسون تاونشيب (إيلينوي) . وبعد دراسة باهرة في انكلترا ، أصبح بروفسوراً في سن ال ٢٢ سنة . لإن ما شاهده وسمعه عندما كان طالباً في

أوكسفورد أديا إلى إقناعه بأن الرئيس روزفيلت هو على حق في رغبته الدخول في الحرب لمساندة بريطانيا. وقال فيما بعد إن لديه «نزعة تدخلية». كما أن الهجوم الألماني ضد الاتحاد السوفياتي، والغارة اليابانية على بيرل هاربور رسّخا لديه قناعة، أنه من الواجب فعل أي شيء. وفي ربيع سنة ١٩٤٢ أصبح راي كلين «محلّلاً» في بحرية الولايات المتحدة. وعلى غرار صديقيه في هارفارد، آرثور شليسينجر وماك جورج بوندي، سمع الحديث عن مكتب الاستخبارات الستراتيجية، فانتقل إليه في حزيران سنة ١٩٤٣. وفي منظمة دونوفان. ما لبث ان أصبح تحت إمرة «رئيس الأبحاث والتحليل»، ويليام لانجر. وبعد ذلك لحق بلانجر إلى وكالة الاستخبارات المركزية...

لكن عندما ترك لانجر الوظيفة وعاد إلى التعليم العالي، بقي كلين الشاب وواصل عمله كمحلل في القسم الذي يديره شيرمان كنت. وفي سن الـ ٣٣، أي في تشرين الأول سنة ١٩٥١، أرسل إلى منصب في الخارج: إلى لندن، حيث انضم إلى جهاز الاتصال مع الأجهزة السرية البريطانية. وبعد سنتين من العمل في العاصمة البريطانية، عاد إلى واشنطن، حيث أصبح يصوغ مواضيع الاستخبارات حول الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية. وبقي في هذا العمل حتى نهاية سنة ١٩٥٧ وانقطع عنه مرتين للقيام بمهمات. المهمة الأولى، سنة ١٩٥٥: شارك في الوفد الأميركي إلى المؤتمرات الدولية التي عقدت في جنيف تحت غطاء ديبلوماسي. والمهمة الثانية، كانت حقاً استثنائية: اختير لمرافقة مدير وكالة الاستخبارات المركزية آلن دالس في جولة تفتيشية تنقل خلالها من «محطة» إلى «أخرى»، واستغرقت شهرين في أواسط سنة ١٩٥٦، وكانت عملياً جولة حول العالم. وبما أن كلين معجب كثيراً بدالس، وبما أن هذا الأخير يقدر صفاته، فقد عجلت هذه الجولة في ترقي كلين. وبعد مرور سنة على ذلك، اقترح عليه فرانك ويسنر رئاسة «محطة» هامة. فقبل بالطبع، وأصبح رئيس «محطة» تايبه، عاصمة الصين الوطنية.

هناك بدأ يمارس ما تعلمه خلال هذه البانوراما الحقيقية من «العمل السري» أثناء جولته حول العالم مع دالس. ونجح كلين في فورموزا حيث بقي هناك أكثر من ٤ سنوات. وقد انصب كل عمله على تدبير مختلف العمليات ضد الصين الشيوعية، التي كان يحلم الأميركيون في الماضي إعادة غزوها بواسطة تشانغ كاي شيك. وعندما عاد إلى لانغلي في حزيران ١٩٦٢، رقي كلين إلى منصب نائب المدير لشؤون الاستخبارات.

بعد أن أصبح في هذا المنصب، وهو في سن الـ ٤٤، بدأ راي كلين يحلم بالوصول إلى قمة «عصبة الاستخبارات». ومن جهة أخرى فإن الصلاحيات التي في حوزته لا يستهان بها.

إن الأهمية الجوهرية التي يرتديها « العمل السري » لا يجب أن تجعلنا نهمل أهمية « الاستقصاء »؛ فالاستقصاء يبقى إحد الأسباب الرئيسية لوجود « الوكالة »، وتشكل ابحاثها وتحاليلها قسماً كبيراً من العمل اليومي لهذا الجهاز.

وكما كتب ستيوارت السوب وتوماس برادن، فإن « كلين على عكس هلمس، لم يضع أية عملية سرية ولم يكن له أي عميل في الخارج. وعندما اعتبر آلن دالس أن أقل من ٢٠٪ من الاستقصاءات تأتي من التجسس، كان محقاً في هذا الاعتبار. وفريق محللي كلين يهتم بالـ٨٠٪ الباقية. ولهذا السبب فقد ضم هذا الفريق اختصاصيين في كل الميادين، ابتداء من الاختصاصيين في الأمور المموهة ـ القادرين أن يحددوا انطلاقاً من عناصر التمويه، طبيعة الجسم المموه، لاسيما عندما يتعلق الأمر بالصواريخ الستراتيجية ـ حتى الاختصاصيين بالحالة الصحية لنيكيتا خروتشيف. والمهمة الرئيسية لكلين كانت تكمن في السهر على وصول الاستقصاءات المجمعة إلى الرجال القادرين على استخدامها. فكلين مثلاً هو الذي اتصل هاتفياً بالبيت الأبيض، ليقول إن هناك اثباتات « قنية وأكيدة » حول وجود الصواريخ السوفياتية في كوبا. وكلين أيضاً كان مكلفاً بتقديم التقارير كل صباح إلى الرئيس. ولهذا السبب يتوجب على مساعديه الوصول إلى مكاتب وكالة الاستخبارات المركزية الساعة الثالثة صباحاً، من أجل الاطلاع على آخر البرقيات وصياغة النشرة...

ويكمل دايفيد ويز وتوماس ب. روس هذه اللمحة بقولها: « دور قسم الاستقصاء هو الحصول على أكبر كمية من الأنباء، « واختلاق » معلومات المعلومات »، أي كتابة التقارير حول الوضع الاقتصادي، والسياسي، والاجتماعي، والحكومي لكافة بلدان العالم. ويتألف القسم من ٣ مجموعات فرعية رئيسية: الأولى تضع الآفاق الطويلة الأجل حول ما يمكن الحصول عليه في القطاعات التي تعاني من أزمات؛ وتقوم الثانية بدراسة يومية للوضع، والثالثة أنشأها كلين بعد تعيينه بقليل، وعليها اكتشاف « النقوب » فيما تفعله وتجمعه وكالة الاستخبارات المركزية. وتبجّح كلين ومساعدوه باستقلالهم وانفصالهم عن القضايا العملانية. فهم يقيّمون المعلومات الصادرة عن قسم التخطيط في وكالة الاستخبارات المركزية في روح من التجرد الشامل بالنسبة للاستقصاءات التي تصلهم من الحكومة. وهم يدعون بأن لا مصلحة شخصية لهم في اللعبة، وليس عليهم حماية أية عملية، وأنهم في مثل هذه الظروف يقدمون تقارير موضوعية أكثر من أي جهاز حكومي آخر...

إن هذا النفوذ، العادي بشكل من الأشكال، « لنائب المدير لشؤون الاستخبارات » زاده رأي كلين الشخصي وزناً غير عادي إذ استغل الجو المضطرب والعابر في « **الشركة** » **وشخصية**

المدير الجديد لوكالة الاستخبارات المركزية من جهة، ولا يجب أن يسهو عن بالنا أنه عند وصول « جماعة كندي » إلى السلطة، أصبح لكلين أصدقاء أقوياء في البيت الأبيض من جهة أخرى.

ولكن بعد مرور ٣١ شهراً على عملية « خليج الخنازير » دوّت في دالاس الرصاصات المعروفة، وخلف لينـدن ب. جونسون الرئيس الراحل. ومع أن كلين لم يكن مهدداً مباشرة، إلا أنه لاحظ تلاشي الدعم الذي كان يحصل عليه من الرئاسة.

وعلى الرغم من هذه المرارة، فعند حلول الأشهر الأولى من سنة ١٩٦٥، وحان وقت تغيير جون ماك كون، قرر كلين أن يبقى متفائلاً. وفيما كتب يقول إن « ماك كون قال لنا قبل ذهابه إنه شدد أمام الرئيس جونسون أن خلفه يمكن أن يكون من بين ٣ من أقرب مساعديه: ديك هلمس، وليمان كيركباتريك وأنا شخصياً...». لكن سرعان ما غاب هذا الأمل. وكما نعرف لم يجر اختيار لا هلمس، ولا كيركباتريك، ولا كلين. الاختيار وقع على نائب الأميرال ويليام « ريد » رابون الذي أصبح مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية. وهو اختيار « أقلق » كلين، الذي سرعان ما رأى فيه نتيجـة « الأسـاليـب الغـامضـة » للـرئيس جونسون.

إن تحمل وجود نائب الأميرال الغليظ هذا على رأس « الوكالة » كان أمراً صعباً جداً لراي كلين. وبعد أن فقد صبره أمام وجود مدير وكالة الاستخبارات المركزية، نقل كرئيس « لمحطة » فرانكفورت في ألمانيا الغربية. وبالطبع فإن هذه « المحطة » الواقعة على ضفاف الماين هي أهم محطة في أوروبا الغربية. إلا أن رئاسة هذه « المحطة » بعد تسلمه منصب نيابة المدير لشؤون الاستخبارات لا تعني ترقية... هل كان كلين، كما أكد، هو الذي طلب الانتقال إليها؟ أم أنه « نُفي » إلى هناك؟ على كل حال بقي كلين هناك ٣ سنوات، حتى صيف ١٩٦٩. وعندما عاد إلى واشنطن كان ذلك من أجل تقديم استقالته من وكالة الاستخبارات المركزية... من وكالة الاستخبارات المركزية وليس من « عصبة الاستخبارات »، إذ عُين في تشرين الثاني سنة ١٩٦٩ « مديراً لمكتب وزارة الخارجية للاستقصاء والابحاث ».

ومع مدير يملك إدارياً « رتبة وامتيازات مساعد وزير الخارجية »، فإن هذا المكتب ليس بالجهاز الذي يُستهان به، لكن أعضاءه الذين يفوق عددهم الـ ٣٠٠ شخص، يقتصر عملهم على تقديم التقارير إلى وزارة الخارجية. وعندما تسلم هذا المنصب ابتعد راي س. كلين عن الحياة اليومية « للأجهزة الخاصة » ليجد نفسه أكثر في جو شبابه الجامعي. وهكذا بدأ يعود

إلى مهنته الأصلية، وهي عودة أصبحت نهائية في شتاء ١٩٧٣ - ١٩٧٤ عندما عُيِّن مديراً للدراسات في « سانترفور ستراتجيك انـد انترناشيونال ستاديز » في جامعة جورج تاون.

هل هناك حاجة لأن نشرح هنا معنى كلمة « جامعي »... عندما عاد كلين إلى دراساته المحببة، لم يتبع خطوات سلفه روبرت آموري، الذي ختم حياتـه النشيطـة كـأحـد مـديـري « ناشيونال غـاليري أوف آرت ». فجمـع بين نشـاطـات استـاذ العلـوم السيـاسيـة، ومـؤرخ الديبلوماسية وفيلسوف الاستقصاء. كان يقصد من ذلك التحليق فوق « الأجهزة الخاصة » حتى لا تغيب عن نظره ودون قطع العلاقة معها.

ويكفي أن نقرأ مذكرات راي كلين حتى نلاحظ أنه يعتبر نفسه أحد أولئك الذين بنشاطهم الشخصي ساهموا في بناء وتحسين وكالة الاستخبـارات المركـزيـة، وبصـورة أشمـل « عصبة الاستخبارات »... إن أهم عنصر بارز في حياته كان إقامته من بداية سنة ١٩٥٨ حتى حزيران ١٩٦٢، في فورموزا حيث شغل منصب « رئيس لمحطة الشركة ». وهذا ما سنتحدث عنه. وسنرى لماذا...

في نهاية سنة ١٩٤٩، بعد قيام نظام اشتراكي في الصين، لجأ كل ما تبقى من جيش الكيومينتانغ إلى جزيرة فورموزا. وبعد أن تدفق إلى هذه الجزيرة عدد كبير من المهاجرين المعادين للشيوعية، أسس قائدها تشانغ كاي- شيك في بداية ١٩٥٠ « جمهورية » وأعلن نفسه رئيساً لها. وعلى الرغم من كل الحقائق أصر معظم أعضاء منظمة الأمم المتحدة، حتى تشرين الأول ١٩٧٢ على الاعتراف بأنها الصين « الشرعية » وأنها أحد « الخمسة الكبار » الأمر الذي تذرعت به حكومة الولايات المتحدة من أجل تحويلها إلى أحد حصون « الحرب الباردة ». فلا غياب الحرب الباردة، ولا بداية « الانفراج » وضعت حداً لهذه الحالة التي استغرقت زهاء ربع قرن. والأسباب السياسية لهذا الوضع جلية، لكن يجب أن نضيف أن هذا الحصن أصبح أكثر قوة إذْ كان يستفيد من دعم « لوبي صيني » نشط جداً في الولايات المتحدة. والأمر الذي له دلالته في هذا الصدد هو الرئيس الأسبق هاري ترومان أعلن: « يبدو أن معظم الناس لم يفهموا أن « اللوبي الصيني » كان قوياً جداً في هذا البلد عندما كنت في البيت الأبيض. فالعديد من النواب وأعضاء مجلس الشيوخ كانوا على استعداد لتنفيذ تعليماته لأنه ينفق ملايين الدولارات... » إن هذا القول لترومان أكده بصورة واسعة عدد من الكتاب. فبعد أن وصف رونالد ستيل هذا « اللوبي » بأنه « زمرة من الجنرالات السابقين، ورجال الأعمال الفاشلين، ومحترفي معاداة الشيوعية »، أصر على واقع أن مجموعة الضغط هذه استطاعت لمدة طويلة « خنق مبادرات وزارة الخارجية ». وهذا الاستنتاج الأخير

مهم بالنسبة لنا، لأنه يفسّر جزئياً، لماذا كان النشاط الديبلوماسي مشلولاً نسبياً، وأن وكالة الاستخبارات المركزية كانت لها اليد الطولى، خلال الخمسينات وحتى الستينات في واشنطن، في كل الشؤون الصينية.

فمنذ ذلك الحين سنشهد مهرجاناً حقيقياً «للعمل السري»... فقد كتب ستيل يقول: «بفضل مساعدة أميركية تبلغ زهاء ٣ مليارات دولار، بدأ تشانغ بناء ماكينة حربية تتيح له غزو البر الصيني: ٥٠٠ ألف رجل تدربهم الولايات المتحدة على قاب قوسين من ماو(...). وابتداء من سنة ١٩٥٣، كرست وكالة الاستخبارات المركزية كل جهودها لتحضير القوات الوطنية في هذه الجزر، تحت غطاء شركة تجارية اسمها «المؤسسات الغربية». ولم يستطع أحد أن يكتشف أي نوع من التجارة تمارسه هذه الشركة التي تعمل باستمرار. فقد كانت تؤمن التنظيم، والمعدات، والتدريب رجال تشانغ، الذين كانوا يستخدمون الطائرات للإغارة على البر الصيني. وكانت الشركة بالذات تستخدم فريقاً من المرتزقة، يعيش في عزلة داخل ثكنات حديثة...». ويقول ريتشارد دايكون: «بعد حرب كوريا، لم توقف وكالة الاستخبارات المركزية نشاطها ضد الصين. فمن فوق قمة جبل وراء تايبه، كان أحد اختصاصيي القوات الجوية الأميركية يبث باللغة الصينية وباستمرار برامج نحو البر الصيني. كما أن طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت (الاستطلاع الستراتيجي) كانت تصوّر منشآت الصواريخ؛ وهذه الأهداف غالباً ما كانت تمليها وكالة الاستخبارات المركزية، وكلما انقضى الوقت، كان المسح الجوي لأراضي الصين يتسع أكثر فأكثر. ففي سنة ١٩٧١، أفادت مصادر عديدة أن طائرات التجسس الأميركية كانت تصل حتى عمق ٣٠٠ كلم داخل الأراضي الصينية.

فمنذ ذلك الحين سنشهد مهرجاناً حقيقياً «للعمل السري»... فقد كتب ستيل يقول: «بفضل مساعدة أميركية تبلغ زهاء ٣ مليارات دولار، بدأ تشانغ بناء ماكينة حربية تتيح له غزو البر الصيني: ٥٠٠ ألف رجل تدرّبهم الولايات المتحدة على قاب قوسين من ماو(...). وابتداء من سنة ١٩٥٣، كرّست وكالة الاستخبارات المركزية كل جهودها لتحضير القوات الوطنية في هذه الجزر، تحت غطاء شركة تجارية اسمها «المؤسسات الغربية». ولم يستطع أحد أن يكتشف أي نوع من التجارة تمارسه هذه الشركة التي تعمل باستمرار. فقد كانت تؤمن التنظيم، والمعدات، والتدريب لرجال تشانغ، الذين كانوا يستخدمون الطائرات للإغارة على البر الصيني. وكانت الشركة بالذات تستخدم فريقاً سرياً من المرتزقة، يعيش في عزلة داخل ثكنات حديثة... ويقول ريتشارد دايكون: «بعد حرب كوريا، لم توقف وكالة الاستخبارات

المركزية نشاطها ضد الصين. فمن فوق قمة جبل وراء تايبه، كان أحد اختصاصيي القوات الجوية الأميركية يبث باللغة الصينية وباستمرار برامج نحو البر الصيني. كما أن طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت (الاستطلاع الاستراتيجي) كانت تصوِّر منشآت الصواريخ؛ وهذه الأهداف غالباً ما كانت تمليها وكالة الاستخبارات المركزية، وكلما انقضى الوقت، كان المسح الجوي لأراضي الصين يتسع أكثر فأكثر. ففي سنة ١٩٧١، أفادت مصادر عديدة أن طائرات التجسس الأميركية كانت تصل حتى عمق ٣٠٠ كلم داخل الأراضي الصينية. ورفضت وكالة الاستخبارات المركزية تأكيد أو نفي هذه التقارير. إلاَّ أن الصحافة أعلنت أن « فرقاً أرسلت إلى عمق عدة مئات من الكيلومترات في عمق مقاطعة يونان في جنوب الصين ». وقيل إن هذه الفرق جُنِّدت، وجُهِّزت من قبل وكالة الاستخبارات المركزية للتسلّل إلى الأراضي الصينية من أجل الحصول على معلومات حول تحركات الجيش والتطورات السياسية... ».

عندما وصل راي س. كلين إلى تايبه في مطلع سنة ١٩٥٨، كان اسم التغطية « للمحطة » قد أصبح « مركز الارتباط البحري » وليس « المؤسسات الغربية ». إذن بعد أن تحوّل كلين إلى بحّار أتى ليشغل منصب مدير « مركز الارتباط » هذا للأسطول الأميركي المرابط بصورة دائمة في عاصمة الصين الوطنية. وبالفعل فإن قسماً من عمله كان يكمن في القيام برحلات عبر مضيق فورموزا الفاصل بين تايوان والبر الصيني. والتزم كلين بتكتم نسبي في مذكراته، حول هذه الرحلات وحول عمليات أخرى جرت بقيادته. فالقليل الذي قاله عنها، يكفي، مع ذلك، لإعطاء فكرة عن الوسائل التي استخدمت فيها. فقد قال إنه كان ينزل بالمظلات أو من زوارق مطاطية، « صينيون شجعان » خلال الليل على الشاطىء الصيني. اعترف هو شخصياً أن معظمهم كانوا يُقتلون أو يقعون في الأسر في بداية العملية. كما رأيناه يشارك في « مبادرات بطولية » تضمن البعض منها تحليقات طويلة فوق المنطقة الشمالية الغربية من الصين، وحتى عبر قمم الهملايا، وصولاً إلى المجال الجوي السوفياتي. ويقول إنه ألقى فوق البر الصيني مناشير تعد « بمكافآت مادية ذهبية » لأولئك الذين يهربون ومعهم « معدات عسكرية أو وثائق »، وأنه سيغتبط باستقبال « ضابط صيني شاب » من الجيش الشعبي خيَّبت آماله « القفزة الكبرى إلى الأمام » فاختار القفز إلى غرفة القيادة في طائرته من أجل الهبوط بها على أراضي فورموزا، وأن الطائرة - « ميغ ١٥ » - ستكون لوكالة الاستخبارات المركزية بمثابة هدية من السماء. وكان يراقب إدارة واستخدام الشركات الجوية التابعة « للشركة » إذ كان يصافح طياريها وهم يتحدون أكبر الأخطار... الخ.

وبعد مرور عدة سنوات على انتقال راي كلين من الشرق الأقصى إلى فرانكفورت، قدَّم « نائب مدير التخطيط » السابق ريتشارد بيسيل، في واشنطن، يوم ٨ كانون الثاني ١٩٦٨، تقريراً سرياً، كشف النقاب عنه صدفة، وهو تقرير سنتحدَّث عنه مطوّلاً فيما بعد. وجاء في هذا التقرير بصورة خاصة: « حصل في بعض البلدان أن كان مندوب وكالة الاستخبارات المركزية أحياناً أقرب مستشار لرئيس الدولة ـ وعلى الأقل في حالة واحدة ـ كان رفيقه الدائم في جلسات السكر... ». ومع أن هذا التلميح بقي غامضاً بالنسبة لغير المطَّلعين، إلاّ أنه كان جلياً تماماً لرجال لانغلي وأصدقائهم. وبعد كشف النقاب عن تقرير بيسيل، ألقى كل من مارشتي وماركس المزيد من الضوء عليه، وبعد ٦ سنوات بقولهما: « الصين الوطنية هي مثال آخر عن البلدان التي تقيم وكالة الاستخبارات المركزية علاقات خاصة مع زعمائها. ففي تايوان لم تكن هذه العلاقات الخاصة مع الرئيس تشانغ كاي-شيك، بل مع ابنه وخليفته رئيس الوزراء تشانغ شين ـ كيو. إن الرئيس السابق لمحطة وكالة الاستخبارات المركزية راي كلين، والذي بقي حتى آخر سنة ١٩٧٣ مديراً لأجهزة الأبحاث والاستقصاء لدى وزارة الخارجية، اكتسب شهرة أسطورية بين موظفي الأجهزة السرية، بعد جلسات السكر برفقة تشانغ الابن... ».

في سنة ١٩٤٧، عندما اقترع أعضاء مجلس الشيوخ والنواب على « قانون الأمن القومي »، أعطوا لأحد النصوص قوة القانون وهو ما زال قائماً حتى اليوم باسم « ميثاق الشركة » ويشكل في الوقت نفسه، ميثاق تأسيسها وقانونها الداخلي وأسلوب عملها. لذا فعندما يتعلَّق الأمر بالبحث والاستقصاء من أجل حماية « الأمن القومي »، أو من أجل العمل السياسي السري، فإن المهمة الموكلة للجهاز الجديد، هي بكلمتين، أن يعمل بأمر من الرئيس، في كل مكان وكل زمان وبكافة الوسائل، من أجل تنفيذ ما تراه السلطة التنفيذية مناسباً لمصالح الولايات المتحدة. وبما أن لها مثل هذه المهمة العالمية، فمن المنطقي أن تسعى « الأجهزة الخاصة » الأميركية إلى ضمان أكبر قدر من حرية العمل الممكنة في أكبر عدد ممكن من البلدان. كما أن مدة هذه الحرية واتساعها تخضع بالطبع لأهمية الأشخاص الذين ينفذونها، وخصوصاً لمستوى التسلسل الذي يصل إليه هؤلاء الأشخاص في جهاز الدولة. إن الموظفين الكبار هم الأكثر فعالية: وهكذا أصبح كل رؤساء الحكومات ورؤساء الدول، نظرياً على الأقل، الهدف الرئيسي لنشاط رجال « العائلة ». وعملياً هناك عدد منهم أكبر مما كنا نتوقع.

بالطبع حصل في مختلف الأمكنة وفي مختلف الأوقات أن كان حاكم بلد ما يسيَّر من قبل عملاء أجانب، لكن ما لم يحصل هو أن جهازاً يملك وسائل مثل وكالة الاستخبارات

الأميركية، يجعل من هذه المراقبة في القمة إحدى مهماته الدائمة والبارزة.

إن تحسين تقنيات وكالة الاستخبارات المركزية في ميدان العمالة في القمة، يبدو أيضاً في الشكل الذي استطاعت، على مرِّ السنوات، تطوير أساليبه. فبالتعاون مع وزارة الخارجية والبنتاغون، استفادت من اشتداد «الحرب الباردة» في أوروبا، ومن النزاع العربي ـ الإسرائيلي، ومن مكافحة «العدوى الكاستروية» في أميركا اللاتينية ومن العمليات التخومية التي جرت في حرب الفيتنام، التي أدَّت إلى نشوء حالة من التبعيّة الاقتصادية والعسكرية المتعاظمة، وشدَّدت الطوق الذي وقع فيه عدد من السياسيين، وخاصة سياسيو العالم الثالث. وهكذا فقد استطاع ميشال كلار الحديث عن «الأنظمة العميلة». كما أن هناك عبارة أقوى استخدمها الطبيب الأكوادوري من رجال العصابات جيم فيلاسكيز، في الكتاب الذي أصدره باسم بابلو توريز المستعار، قبل أن يقتل في كيتو برصاص القمع، والعبارة هي: «الحكومات العميلة». وفي الواقع خصل في بعض الحكومات، أن لا يكون الرئيس وحده العميل، بل ووزراؤه أيضاً. وأخيراً، فإن التطوير الأكثر شهرة لهذا الأسلوب والأكثر ضمانة على المدى القصير، تبيَّن أن: إيجاد ما يجب أن نسميه «الكراكوزات» ـ الذين يسهل تسييرهم لأنهم وجدوا من أجل ذلك ـ هو مجرَّد وهم. والطريف هنا، أن الصحفي الأميركي أموري رانكور الذي لا صلة له مطلقاً بالأفكار اليسارية، وهذا أقل ما يمكن أن نقوله، قدَّم أفضل وصف لتكوين «الكراكوزات»، عندما كتب يقول: «يبدو القادة السياسيون المحليون وكأنهم خارجون من عملية فرز طبيعي و«ديمقراطي»؛ وفي الحقيقة هم ليسوا سوى صنائع لموظفي واشنطن، يمكن بسرعة تحويلهم إلى جنرالات، ورؤساء وزارات ورؤساء جمهورية، لديهم كل الاستعدادات لإطاعة أوامر أسيادهم فيما وراء المحيط...».

إن هذا الوصف الموجز لصناعة الكراكوزات، يجعلنا بالطبع نفكر ببغماليون «العميل السري»، أي إدوارد ج. لانسدال، وأبرز ما أنتجه: الفيليبيني رامون مغسايساي والفيتنامي الجنوبي نغو دين ديم... وواقع أن لانسدال استطاع الظهور بمظهر النجم في هذا الميدان لا يجب أن ينسينا، أنه بضجيج أقل وبفعالية أكثر، لعب رجال آخرون من وكالة الاستخبارات المركزية نفس الدور وصنعوا نماذج أخرى لمغسايساي وديم...

في مطلع سنة ١٩٧٨، اتهم زعيم الحزب الليبيرالي في الفيليبين بأنه عميل لوكالة الاستخبارات المركزية، فدافع عن نفسه قائلاً إنه لم يعمل «للوكالة» بل عمل «معها»، وأنه فعل ذلك بأوامر من رؤساء الجمهورية الـ ٣ المتعاقبين.

أما جنوب الفيتنام فكانت حالة خاصة إذ أن الأميركيين كانوا يمارسون فيها السلطة

مباشرة. لذا عندما كانوا يريدون تغيير الحكّام كانت وكالة الاستخبارات المركزية تلجأ إلى تدبير الانقلابات. إن الأمثلة التي سنوردها لا تزال ماثلة في ذاكرة العديد من الأشخاص.

غواتيمالا سنة ١٩٥٤... أرادت حكومة جاكوبو آربينز انتهاج سياسة تقدمية ومناقشة سيطرة الشركات الزراعية الأميركية الكبيرة. فخرجت وكالة الاستخبارات المركزية من الظل (وأخرجت من جيبها) الكولونيل المطلوب واسمه كارلوس كاستيلو آرماس. وكانت هذه أول عملية كبيرة يشترك فيها دايفيد آتلي فيليبس، ضمن الفريق القيادي الذي كان يجنّد المرتزقة لحساب «الوكالة» من أجل تسوية قضية آربينز. وبعد عشرين سنة على ذلك، عندما روى هذه العملية التي أصبحت «كلاسيكية» في نوعها، لم يخف فيليب أنه لا يزال يحفظ ذكرى جيّدة عنها، وأنه فخور بأن يروي كيف جرى استقباله وتهنئته بهذه المناسبة من قبل الرئيس آيزنهاور. لكن دعابة سوداء ظهرت في قوله: «آرماس كان رئيساً سيئاً، تساهل أمام الرشوة في حكومته التي كانت تريد الاهتمام بشركة «يونايتد فرويت» أكثر مما تهتم بشعبها...».

ولم يرضِ وصول الرئيس جواو غولار إلى السلطة عام ١٩٦٤، كما أن مظاهر الاستقلال في ذلك البلد أثارت قلق واشنطن فأطاحت بغولار.

اليونان، ٢١ نيسان ١٩٦٧... هو اليوم الذي أدّت فيه مؤامرة عسكرية برئاسة الكولونيل جورجيو بابادوبولوس إلى إقامة «نظام الكولونيلات» في أثينا. ففي صبيحة يوم الانقلاب أطلقت «الجبهة الوطنية المعادية للديكتاتورية» نداء يبدأ بما يلي: «الفاشية خربت الوطن. إن الملك وجنرالاته ووكالة الاستخبارات المركزية يعتقدون أن شعبنا سيصمت بالعنف والإرهاب...». وبعد أقل من أسبوعين، كتب جو آلكس موريس يقول في «النيويورك هيرالد تريبيون»: «الضباط ينفون، إلاّ أن العديد من اليونانيين المتمرسين بالسياسة مقتنعون بأن وكالة الاستخبارات المركزية أو البنتاغون ضالعتان في هذا الانقلاب...». وبالفعل، فكما قال فكتور مارشتي فيما بعد، فإن «بابادوبولوس نفسه كان عميلاً لوكالة الاستخبارات المركزية منذ سنة ١٩٥٢». فكل شيء كان مرتقباً. وبهذا الصدد كتب قسطنطين تسوكالاس يقول: «لقد لعب ريتشارد بارنوم، وهو عميل مهم لوكالة الاستخبارات المركزية، دوراً كبيراً في إسقاط باباندريو في تموز ١٩٦٥، وكان قد عاد إلى أثينا في مطلع سنة ١٩٦٧. وكان يعمل بواسطة شركة ايسو ـ باباس(...). وباباس نفسه لم يكن يخفي معتقداته، أي أن اليونان «أصبحت بحاجة لديكتاتورية عسكرية». وفضلاً عن ذلك تبيَّن أن مؤسسة باباس في بوسطن، التي يديرها شقيق باباس، تعهدت بنقل الأموال التي خصصتها وكالة الاستخبارات المركزية

إلى اليونان. والأمر الذي له دلالته، هو أن أحد موظفي باباس، بافلوس توتوميس هو الذي أصبح وزيراً للداخلية بعد نجاح الانقلاب...» و« الشركة » لديها بدائل لبابادوبولوس... فعندما رأت أنه لم يعد يخدم أهدافها، أبدلته، ويقول ديمتري آناليس في يوم ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٣ : إن « الجيش طرد ج. بابادوبولوس. وأصبح الجنرال غيزيكيس رئيساً للجمهورية اليونانية. وشكّلت حكومة « أميركية ـ يونانية » برئاسة المحامي في شيكاغو، أندرو تسوبولوس... ». وفي مكان آخر يقول المؤلّف نفسه: « إن حكومة مؤلّفة من عملاء معروفين لوكالة الاستخبارات المركزية (وزير الداخلية توتوميس، وغيره) يرئسها محام أميركي سابق، من أصل يوناني، هو بدوره عميل أيضاً تسلمت الحكم في البلاد ».

الشيلي في الأيام الأخيرة لصيف ١٩٧٣... إن الحكومة التي شكّلت بعد الإطاحة بسلفادور الليندي تقدّم مثالاً آخر عن « الحكومة » العميلة. فحتى دون الحديث عن الجنرال أغوستو بينوشيت والعسكريين المشهورين، فإن وضع وزير كوزير الخارجية هيرنان كوبيلوس، هو ذو دلالة كبيرة... إن مختلف المظاهرات التي أثارتها زيارته إلى باريس، في أيلول سنة ١٩٧٩، تجعلنا ننكب على ماضيه. وهكذا فقد كان « ضابطاً في البحرية الحربية، وشارك بجهود وكالة الاستخبارات المركزية من أجل الإطاحة بحكومة سلفادور ألليندي، واشترك السيد كوبيلوس من سنة ١٩٧٠ وحتى الانقلاب في أيلول سنة ١٩٧٣، في إدارة صحيفة « المركوريو ». وخلال جلسة مغلقة في الولايات المتحدة أكّد مسؤول أميركي سابق في شركة «I. T. T.» في الشيلي، في تشرين الثاني ١٩٧٨، أن السيد كوبيلوس كان له « اتصالات » مع وكالة الاستخبارات المركزية في سانتياغو وأن أموالاً مخصّصة للإطاحة بحكومة سلفادور ألليندي نقلت بواسطته. وكذّبت حكومة الشيلي هذه الأنباء، التي كشفت صحيفة « لوس أنجلوس تايمز » النقاب عنها، لكن المحامي بيريليز أكّد أن لديه وثائق تثبت تعاون السيد كوبيلوس مع وكالة الاستخبارات المركزية...».

يتبيّن من سردنا لهذه الأمثلة المشهورة أن « إنتاج » و« تركيب » مثل هؤلاء العملاء يشكل عملاً فظاً بالمقارنة مع استعمالهم في القمة الذي هو أكثر دقة. ومن هنا ندرك لماذا حاول نفس قادة « الشركة » الحفاظ على سرية عملائهم على مثل هذا المستوى. فباستثناء بعض « التسريبات » الموجهة نلاحظ أن كشف النقاب عن الأسرار المتعلّقة برؤساء الدول العملاء كان يحصل دائماً على الرغم من أنف « الوكالة » وضد إرادتها. إن شطب المقاطع التي يرد فيها أسماء مشهورة كان أحد الأسباب الرئيسية للإجراء الذي باشرت به « الشركة » وأخضع بموجبه كتاب مارشتي وماركس من قبل العدالة الأميركية للمراقبة قبل صدوره. وأشار

مارشتي إلى أن « المحاكم منعتني من كشف النقاب عن هوية بعض الزعماء السياسيين الهامين الذين ظهروا في أدوار وكالة الاستخبارات المركزية... ». وهكذا يلاحظ، أنه حتى عندما يتعلّق الأمر بمجرّد اعتبارات عامة، يصبح قدامى « الشركة » في كتابة مذكراتهم أو مقابلاتهم، أكثر تكتماً ما أن يصل الأمر إلى هذا الشكل الأعلى من الاستخدام. إن النصين الوحيدين « النظريين » اللذين وجدناهما حول هذا الموضوع هما لريتشارد بيسيل وميلز كوبلان؛ وبالنسبة لبيسيل، فإن الأمر يتعلّق بمحاضرته في ٨ كانون الثاني ١٩٦٨، والتي كان من المفترض أن تبقى سرية، وجاء كشف النقاب عنها بالصدفة.

أول ما سنلاحظه أن الأحاديث التي سنستشهد بها، مكتوبة بأسلوب غير مباشر؛ وذلك يعود لكونها غير مأخوذة من نص المحاضرة بحد ذاتها، بل من التقرير حولها. وقد جاء في هذا التقرير « سأل أحدهم المحاضر ما إذا لم تكن إقامة علاقات من هذا النوع هي من اختصاص الموظفين الديبلوماسيين. فأجاب السيد بيسيل: حسب الإمكانيات، كان ذلك يحصل. لكن في بعض الحالات الخاصة، كالتي حصلت في بعض الجمهوريات، كان رؤساء الدول يقيمون « علاقات خاصة » مع مندوبي وكالة الاستخبارات المركزية، لأن رئيس الجمهورية كان يريد ذلك. وكان مندوب وكالة الاستخبارات المركزية يطلع الخارجية على هذا الأمر، بواسطة « الوكالة ». حظي هذا الأمر دائماً بالموافقة التامة لوزير الخارجية. أما السفير الموجود في ذلك البلد فلم يكن يبلّغ بأي شيء. ومع ذلك طرحت مسألة عندما جرى تعيين مساعد وزير الخارجية ـ الذي كان يتلقّى برقيات مندوب وكالة الاستخبارات المركزية ـ سفيراً في البلد المعني؛ إلاّ أن السفير الجديد حاز على إعجاب رئيس الجمهورية، الذي طلب إقامة « علاقات خاصة » معه. وإذا ما استثنينا هذه الحالة الخاصة فعلاً، يبدو في شكل عام، أن السفير بقي المندوب الرسمي للولايات المتحدة، يقدِّم تقاريره مباشرة إلى جهاز الشؤون الخارجية عن علاقاته مع الحكومة المعتمد لديها. ومن جهة أخرى يستطيع مندوب وكالة الاستخبارات المركزية إقامة علاقات شبه رسمية مع شخصيات حكومية، إذ كان بالإمكان المحافظة على سريتها، سواء في البلد نفسه أم بين الأجهزة الرسمية لوكالة الاستخبارات المركزية. وفضلاً عن ذلك، عندما يترك رئيس الدولةالمسرح أو يغيِّر موقفه فجأة، فإن نقل رئيس « المحطة » يمكن أن يحصل بسهولة، في حين أن استدعاء سفير الولايات المتحدة هو أمر محرج... ».

إن مداخلة بيسيل كانت مخيِّبة للآمال بعض الشيء، لأنها اقتصرت في الواقع على الوجه « الديبلوماسي » للقضية. أما نص ميلز كوبلان ففائدته كونه أكثر مباشرة، خصوصاً في تناوله لممارسة العمالة. لكن السيء فيه، هو اقتصاره على العالم الثالث.:. وكتب كوبلان يقول:

« ... غالباً ما يصر العميل على محاولة إقناعنا بأنه يستحق الأموال التي يحصل عليها منا لمجرَّد أنه « مؤيِّد للأميركيين ». ولكن منذ أن أصبح « التأييد لأميركا » يعني في الكثير من بلدان العالم الثالث مجرَّد الظهور بمظهر الأقل عداء لأميركا، مما تتطلبه الظروف، كان رأي معظم رؤساء « المحطات » هو أن العملاء « المؤيدين لأميركا » ليسوا غير فعَّالين فحسب، بل خطرين أيضاً. وبما أن مثل هذه الأمور غير مسموح لها أن « تنتهي بأضرار كبيرة »، لذا يتوجَّب على رئيس « المحطة » استخدام أمهر الأساليب التي في حوزته... ».

ودون أن يذكر الأسماء، تحدَّث كوبلان عن « العملاء المؤيدين لأميركا » والذين « أصبحوا غير فعَّالين فحسب، بل خطرين أيضاً ». المدهش هو أن نستنتج كيف استخدم مارسيل نيدرغانغ في كتاب صدر قبل ٨ سنوات تقريباً نفس التعبير عندما كتب يقول: « لم يعد تروخيليو نهائياً يرضي واشنطن. وبعبارة أوضح أصبح ضرره أكثر من فائدته... ». لكن أحداً لم يبلغ الشخص المعني بهذا التغيير. وهكذا انتهى ذلك الشخص الذي حكم جمهورية الدومينيكان مدة ٣١ سنة، والذي كان يطلب من الصحف عندما تذكر اسمه أن تكتب حرفياً ما يلي: « فخامة الجنرال الدكتور رفايل ليونيداس تروخيليو مولينا، الرئيس المعظَّم للجمهورية، المحسن للوطن وباني الاستقلال المالي ». ويقول نيدرغانغ: لقد « قتل « المحسن » كالكلب على طريق مقفرة يوم ٣٠ أيار ١٩٦١ الساعة العاشرة مساء. ووجدت جثته التي مزَّقها الرصاص، غداة اليوم التالي في صندوق سيارة أحد قتلته. وكانت قد أُخفيت في مرآب دارة مهجورة في الحي السكني في العاصمة. ووجد في مكان الجريمة، بقايا زجاج، وبقعة من الدم، وقبعة الجنرال... ».

لكن التروخيليوية لم تنته مع تروخيليو، لأن الولايات المتحدة لم تصفِّ الديكتاتوريات من أجل تحرير البلاد من تدخلها، بل على العكس، من أجل أن تضمن هناك حماية أفضل لمصالحها. وبين ليلة وضحاها، جرى التظاهر باكتشاف قتلة « المحسن ». وقبل ٧ أشهر من عملية الاغتيال أرسل الديبلوماسي هنري داربورن (عمل، بصورة استثنائية، وفي الوقت نفسه لوكالة الاستخبارات المركزية ولوزارة الخارجية) المكلَّف باستخدام منفذي عملية الاغتيال - (وهم كالعادة من غير المواطنين الأميركيين، بل من سكان البلاد ومن المعارضة) - تقريراً إلى واشنطن ولانغلي، بتاريخ ٢٧ تشرين الأول سنة ١٩٦٠ جاء فيه: « لو كنت دومينيكياً، والحمد لله لم أكن من الدومينيك! - لكنت وافقت كل الموافقة على خطة لاغتيال تروخيليو، كخطوة أولى ضرورية لإنقاذ بلدي، ولكنت اعتبرت هذا الأمر من واجبي كمسيحي أتذكرون دراكولا: تطلَّب الأمر طعنه بسكين في القلب من أجل وضع حد لجرائمه. إن الموت

المفاجىء هو على كل حال حل إنساني أكثر مما عرضه عليَّ ذات يوم السفير البابوي، الذي كان يعتقد أنه من الواجب الصلاة من أجل أن يموت تروخيليو إثر مرض طويل ومؤلم...».

مثال آخر هو «الكولونيل العراقي» ذو المنديل المبلَّل «بمادة تؤدي إلى عجز جسدي». في الواقع، إن الأمر لم يكن يتعلَّق «بكولونيل عراقي»، بل برئيس الدولة العراقية المشير عبد الكريم قاسم. وفضلاً عن ذلك فإن الذي أطاح به وأعدمه يوم ٨ شباط ١٩٦٣ كان المشير عبد السلام عارف، وذلك بمساعدة ودعم من وكالة الاستخبارات المركزية... حول هذا الموضوع كتب توماس باورز يقول: «في شباط سنة ١٩٦٠ كانت الحكومة تحاول أن تقرِّر الموقف الذي ستتخذه بصدد المشير عبد الكريم قاسم، فاقترح رئيس قسم التخطيط للشرق الأدنى تدبير عملية تؤدي إلى إصابة عبد الكريم قاسم «بعجز جسدي» عن طريق منديل مسمَّم يحضره «قسم التخطيط للشؤون التقنية». وخلال شهر نيسان تمت الموافقة على الاقتراح من «رئيس قسم التخطيط للعمليات» ريتشارد هلمس الذي اعتبر مجرَّد إصابة عبد الكريم قاسم بعجز جسدي» هو أمر «مرغوب جداً»...». ولم تتحقَّق هذه الأمنية لأن العملية فشلت، فجرى اللجوء إلى أساليب أكثر تقليدية، فتقررت الإطاحة به. هذه المرة نجحت العملية، وقال بصددها كلود جوليان: «عندما أصدر المشير عبد الكريم قاسم القانون ٨١ الذي يعيد للدولة ٩٥٪من امتيازات شركة نفط العراق، احتجَّت واشنطن بشدة. ثم انسحب العراق من حلف بغداد. وفي شباط سنة ١٩٦٣ قام المشير عبد السلام عارف بانقلاب بمساعدة وكالة الاستخبارات المركزية، وحصل ما هو معروف. وأعقبت هذه «الثورة» مجزرة حقيقية للعناصر الشيوعية والتقدمية، وكان سفير الولايات المتحدة يزوِّد الميليشيات بأسماء الأشخاص غير المرغوب فيهم...».

إن «المجزرة الحقيقية» التي تحدَّث عنها كلود جوليان ليست حالة فريدة؛ إذ في العراق أيضاً لم تقتصر عملية تصفية رئيس الدولة والعناصر الشيوعية والتقدمية، بل تخطَّت ذلك إلى السكّان بأسرهم. فقد جاء في أحد تقارير «لجنة تشرش» ما يلي: «أعلن مدير قسم التخطيط السابق ريتشارد بيسيل أثناء التحقيق معه أن وكالة الاستخبارات المركزية «أزمعت» اغتيال سوكارنو، إلاّ أن التحضيرات لهذه العملية اقتصرت على العثور على «عميل» بمقدوره قتل سوكارنو. وسلّمت الأسلحة إلى مجموعات منشقَّة عن سوكارنو، ولكن كما قال بيسيل، لم تكن هذه الأسلحة مخصصة للاغتيال...». إن آلان جوبير، بعد أن استشهد بهذا المقطع، يضيف قائلا: «تجدر الإشارة إلى أن وكالة الاستخبارات المركزية استطاعت في النهاية الإطاحة بسوكارنو وأن النهج السياسي الجديد أدّى إلى قتل أكثر من ٨٠٠ ألف شخص، من الشيوعيين

والمشتبه بأنهم شيوعيون...». وفي الحقيقة لن نستطيع أبداً معرفة الرقم الصحيح للرجال والنساء والأطفال الذين قتلوا خلال حملة الإرهاب التي حصلت في شتاء ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦، بعد أن تسلّم الحكم في جاكرتا أولئك الذين سمّاهم بيسيل بكل وقاحة بـ «المجموعات المنشقّة». ومع أن «الوكالة» لم تقتل فعلاً أحمد سوكارنو، لأنه مات تحت وطأة المرض أثناء إقامته الجبرية سنة ١٩٧٠، إلاّ أن ما بين ٠,٤٪ و٠,٧٥٪ من سكان أندونيسيا تعرّضوا لمجازر، كان مدبّروها من العسكريين والزمر المسلّحة التي استولت على الحكم، بمساعدة ودعم من وكالة الاستخبارات المركزية، وعندما انتهت حمامات الدم في جاوا، وبورنيو، وسوماترا، وفي آلاف الجزر الأخرى في الأرخبيل، أصبح المركز الفعلي للقرار السياسي هو السفارة الأميركية و«محطة الوكالة»، وليس القصر الجمهوري.

هنا تجدر الإشارة إلى أننا ألمحنا في مكان آخر من هذا الكتاب إلى الفيلم الخلاعي المزوَّر الذي أنتجته وكالة الاستخبارات المركزية وكان بطله سوكارنو. ولكن مع عدم توزيع هذا الفيلم، فمن الممكن جداً اعتباره مؤشراً على إصرار «الوكالة» على بلوغ «هدف سوكارنو» مهما كلّف الثمن، وهو إصرار لا نكتشف كنهه إذا لم نضعه في سياقه التاريخي.

لقد كتبت مجلة «افريقيا ـ آسيا» تقول: «عندما أصبحت أندونيسيا مستقلة سنة ١٩٤٥، انتخب سوكارنو رئيساً لمدى الحياة. وبعد مرور عشرين سنة على ذلك في ليل ٣٠ أيلول ـ ١ تشرين الأول سنة ١٩٦٥، فشلت محاولة انقلاب ضده. ومدبّر هذه المحاولة كان الكولونيل أوتونغ، قائد الحرس الجمهوري، ومجموعة من الضباط التقدميين. إن هؤلاء الرجال، الذين شكّلوا حركة ٣٠ أيلول، كانوا يريدون الوقوف في وجه مجلس الجنرالات الرجعي. وهو منظمة هدّامة تحميها وكالة الاستخبارات المركزية كانت قد أعدّت في ٥ تشرين الأول محاولة انقلاب للسيطرة على السلطة. إن انتفاضة ٣٠ أيلول قمعها الجيش بسرعة، وتسلّم العسكريون بقيادة الجنرال سوهارتو شؤون البلاد. فمنذ زمن طويل كانوا يصفون سوكارنو بأنه متساهل جداً مع اليسار، وخصوصاً مع الحزب الشيوعي الأندونيسي. وفي ٥ تموز ١٩٦٦، سحبوا منه الرئاسة مدى الحياة وطلبوا منه تقديم تقرير حول الدور الذي لعبه في حركة ٣٠ أيلول، ثم في شباط ١٩٦٧، أرغموه على التخلي عن «سلطات الحكومة» للجنرال سوهارتو، هذا الجنرال الذي عُيِّن في السنة التالية رئيساً ووضع سوكارنو في الإقامة الجبرية. وبقيادة سوهارتو، نظّم الجيش منذ الأشهر الأخيرة لسنة ١٩٦٥ حملة وحشية ضد الشيوعيين وأنصار سوكارنو: ٥٠٠ ألف شخص على الأقل لاقوا حتفهم (بعض المعلومات تقول مليوناً)، وأُلقي بمئات الآلاف في السجون أو في معسكرات الاعتقال. وهذا ما سمّاه العسكريون «النظام

الجديد »، وهو نظام ما زال حتى اليوم يعيث فساداً في كل أندونيسيا(...). وفي كانون الثاني ١٩٦٧ انتهج النظام الجديد سياسة « الباب المفتوح » أمام الرساميل الأجنبية، مما أدَّى إلى نهب حقيقي لثروات البلاد وتعاظمت الفوارق بين الفقراء والأغنياء(...). وجاء في تقرير وضع سنة ١٩٧٧ من قبل « لجنة العفو الدولية » أن « وضع المعتقلين السياسيين في أندونيسيا لا يطاق. إن الأساليب التي تستخدمها الحكومة والمجازر التي ترتكبها بحق المعتقلين لم يسبق لها مثيل حتى الآن ». ومع أن أندونيسيا قبلت رسمياً الإعلان الشامل لحقوق الإنسان، إلاَّ أن مبادئه بقيت حبراً على ورق هنا. فحرية الصحافة لا وجود لها، والمعارضة لجأت إلى العمل السري، والعقوبات ضد كل نشاط « غير مشروع » لا تطاق...».

إن هذه اللمحة الموجزة عن الوضع في أندونيسيا، والتي توضح نتائج عمل « الشركة » تبقى غير كاملة إذا أغفلنا حدثاً يكمن في أساس هذا النشاط. وهو حدث أساسي في تاريخ ما بعد الحرب: مؤتمر باندونغ. وبالفعل ففي هذه المدينة على جزيرة جاوا، وخلال أسبوع ١٧ ـ ٢٤ نيسان ١٩٥٥، استقبل أحمد سوكارنو وفود زهاء ٣٠ أمة معظمها كان قد حصل حديثاً على استقلاله. فقد كتب جاك غوديشوت بهذا الصدد يقول: « ضم هذا المؤتمر فقط مندوبي بلدان آسيوية (٢٩ بلداً)، وأفريقية (٦ بلدان فقط). وأكد على المساواة بين الأجناس، وضرورة النضال الأفرو ـ آسيوي ضد الهيمنة الغربية. ورسم سياسة استقلال اقتصادي بين الشعوب الأفرو ـ آسيوية تقوم على التعاضد؛ والتطور التقني بفضل بعثات ترسلها منظمة الأمم المتحدة، مؤلّفة من تقنيين ينتسبون إلى بلدان ليبرالية وديمقراطية شعبية على حد سواء. إلاَّ أنه شدَّد على النضال في سبيل انعتاق البلدان التي لا تزال تحت نير الاستعمار، ومن هذا الواقع حصل على تأييد الكتلة السوفياتية أكثر من الغرب...». إن ما أوجزه البروفسور غوديشوت بالكلمات التالية: « النضال ضد الهيمنة الغربية » كان له وقع سيء في الدول الغربية. وكان من المزعج جداً بالنسبة لوزير الخارجية الأميركية جون فوستر دالس وشقيقه مدير وكالة الاستخبارات المركزية آلن ولش دالس، رؤية سوكارنو وهو يستقبل مئات المندوبين على أرض جاوا، ويعلن أمامهم: « وحدتنا منبثقة من عبودية مشتركة مارسها الغرب علينا ومن حقد مشترك ضد الاستعمار، مهما كان مظهره، في أشكاله القديمة وملامحه المعاصرة...». إن الشقيقين دالس والرئيس آيزنهاور ليسوا بحاجة لمحللي وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية حتى يستنتجوا ما تحدَّث عنه جان لاكوتور: « إن المؤتمر الذي جسَّد مفهوم العالم الثالث، وضع وثيقة تندِّد بالاستعمار والتمييز العنصري، وبسباق التسلّح. ويطلب البند السادس من البيان الختامي « الامتناع عن المشاركة في اتفاقات دفاعية جماعية تخدم مصالح دولة

عظمى »(...). وامتد مبدأ باندونغ، الذي هو فعل الإيمان السياسي للشعوب الإسلامية والمسيحية في أفريقيا، حتى شمل كل الأراضي الواقعة تحت الاستعمار. وكان جيل جديد من رؤساء الدول أمثال عبد الناصر، وسوكارنو، ونهرو، ونيكروما... ».

لقد سمحنا لأنفسنا في سياق ما استشهدنا به، استخدام صيغة الحاضر لما كتبه لاكوتور بصيغة الماضي. لكن، بالنسبة للشقيقين دالس، فإنه حاضر مطلق... وكما يقول توماس باورز « سرعان ما أصبح سوكارنو في نظرهما نموذجاً لما يعتبره الأميركيون « عدواً » في الخمسينات. وليس سوكارنو وحده، بل وجمال عبد الناصر أيضاً. وأصبح معروفاً الآن ومن مصادر مؤكّدة، وخصوصاً من جون ستوكويل في سنة ١٩٧٨، أن وكالة الاستخبارات المركزية هي التي دبّرت سنة ١٩٦٦ الانقلاب الذي أطاح بغوامي نيكروما.

وبدت روح باندونغ لا تطاق في واشنطن عندما اشترك في المؤتمر مندوبون من بلدان كالفيليبين وجنوب الفيتنام. وهنا جرى التساؤل حول إمكانية انتشار العدوى إلى « حلفاء » الولايات المتحدة. وأصبح أحمد سوكارنو « الهدف » الدائم « للشركة ». وهكذا بدأت المعركة، في البداية كان الفشل حليفها، لكنها في النهاية استطاعت الانتقام لنفسها بعد زهاء عشر سنوات.

إن رواية توماس باورز الذي حصل على معلومات من بعض قدامى « الشركة » حول أعمال وكالة الاستخبارات المركزية ضد سوكارنو، جاءت لا تتناقض بشيء مع غيرها. ودون الاستناد ظاهرياً إلى مؤتمر باندونغ، أشار باورز في البداية إلى أن جون فوستر دالس أبدى عداءه لكل أولئك الذين وصفهم « بالزعماء القوميين غير المسؤولين ». ثم أضاف: « سوكارنو هو مجرَّد واحد منهم. وعبد الناصر هو آخر. شأنهما شأن نهرو وغوامي نيكروما وعدد كبير غيرهم. وأبدى دالس عزمه، في مجالسه الخاصة، أن يبيِّن لسوكارنو أن العداء للولايات المتحدة لا يمر دون عقاب. وكان مدعوماً في ذلك بقوة من قبل سفير سابق في أندونيسيا، هو هوغ س. كومينغ، الذي عندما كان في جاكرتا، حظَّر على معاونيه قراءة كتاب جورج كاهين « النزعة القومية والثورة في أندونيسيا »، لأنه اعتبر هذا الكتاب معادياً. وبعد أن تسلَّم « مكتب الاستقصاء والأبحاث التابع لوزارة الخارجية » سنة ١٩٥٧، أخذ يرسل دون كلل مذكرات مقلقة تدعو إلى القيام بأي عمل ضد سوكارنو قبل فوات الأوان... ومرة أخرى كلفت بذلك وكالة الاستخبارات المركزية. وخلال صيف ١٩٥٦، أرسل إلى جاكرتا رئيس « محطة » جديد سبق له أن عمل في مكتب الاستخبارات الستراتيجية هو فال غوديل. وفي تلك الحقبة كان على رأس « قسم التخطيط للشرق الأقصى » موظف سابق أيضاً من مكتب الاستخبارات

الستراتيجية سُبق له أن عمل في أثينا في أوج الحرب الأهلية، هو ألفرد أولمير، وكان يطمح إلى أن يحلّ ذات يوم محل فرانك ويسنر « كنائب لمدير قسم التخطيط ». وفي نهاية سنة ١٩٥٦ قال ويسنر لأولمير: « لقد حان الوقت لنضع رجلي سوكارنو في النار! ». إلاّ أن أولمير كان يواجه مشكلة: من أجل تلقين درس لسوكارنو، كان على وكالة الاستخبارات المركزية، أن تجد من يتعاون معها، وفي شهر نيسان التالي لعب الحظ لعبته. أحد مندوبي الضباط المنشقين في القوات المرابطة في سوماترا اتصل بوكالة الاستخبارات المركزية، في جاكرتا، وأدّى هذا الاتصال تدريجياً إلى طلب الأسلحة، والمال والدعم السياسي ».

وفي هذا الصدد يقول باورز إن واشنطن كانت لا تريد، في البداية على الأقل، القيام بانقلاب، بل بممارسة ضغط شديد والتهويل بالعصيان المسلح... وأضاف: إن « الأخوين دالس لم يبغيا بالضبط الإطاحة بسوكارنو، بل كل ما يراد منه كان إرغامه على حظر الحزب الشيوعي الأندونيسي، وطرد الروس، والعودة إلى المعسكر الأميركي. وداخل وكالة الاستخبارات المركزية، تقرَّر دعم المتمردين في جيش سوماترا، لاستخدامهم كوسيلة ضغط. وفي سنة ١٩٥٧، بدأت وكالة الاستخبارات المركزية بإرسال الأسلحة إلى المتمردين في سوماترا، كما أرسلت إلى هناك بواسطة غواصة أحد خبرائها العسكريين مع مساعده الاختصاصي في الراديو(...). إلاّ أنه على الرغم من الحماس الذي أبداه دالس لفكرة ممارسة الضغط على سوكارنو، وعلى الرغم من اليقين الذي كان لدى آلن دالس بصدد أن متمردي سوماترا هم وسيلة ممتازة لبلوغ ذلك، لوحظ في محيط « نائب مدير قسم التخطيط » قيام معارضة من قبل أولئك الذين كانوا يشكون بإمكانية نجاح سياسة المتمردين. وهذه المعارضة صدرت بصورة رئيسية عن ديسموند فيتزجيرالد، مسؤول الحرب السياسية وشبه العسكرية في « قسم التخطيط للعمل السري ». وكانت معارضته بسبب عدم معرفة عدد المتمردين، الحذر الذي تبديه وزارة الخارجية(...) مما يؤدي إلى شلل العملية... ». ويضيف باورز أن ريتشارد هلمس جارى ديسموند فيتزجيرالد في تشاؤمه، معتبراً أن العملية « لا أمل لها في النجاح ». وتبرر هذا التشاؤم: « وأخيراً هذا ما حصل. فقد أرسل المتمردون إنذاراً إلى سوكارنو رفض الرد عليه في شباط سنة ١٩٥٨، فأعلنوا استقلال جزيرة سوماترا. وفي الأيام التي أعقبت ذلك، حاصرت بحرية سوكارنو المتمردين، وشن الطيران غارات ضدهم وتحرّك جيشه إلى سوماترا. عندها أعطت وزارة الخارجية(...) موافقتها من أجل أن ترسل وكالة الاستخبارات المركزية إلى المتمردين خبيرين آخرين، أحدهما أنطوني بوشبني الملقب بـ « طوني بو »، الذي كان قد درَّب جيوشاً خاصة لوكالة الاستخبارات المركزية في الشرق الأقصى. إلاّ أن كل الخبراء لم يكن

باستطاعتهم إنقاذ المتمردين، فأخذوا يتقهقرون وانسحبوا من سوماترا إلى جزر أخرى. وأصبح أمل وكالة الاستخبارات المركزية الوحيد هو صمود أعوانها على جزيرة أو جزيرتين من أجل استخدامهم « كوسيلة ضغط » في المستقبل على سوكارنو. ولكن، يوم الأحد ١٨ أيار تمّ إسقاط طائرة من طراز « ب - ٢٦ » يقودها آلن لورانس بوب، من طياري وكالة الاستخبارات المركزية، بعد أن قصفت خطأ كنيسة. وبعد أن وصل خبر ما حلّ ببوب إلى واشنطن، قرر آلن دالس تعليق العملية وبعث برسالة مؤثرة إلى الخبراء العسكريين الموجودين مع المتمردين؛ وهكذا منيت العملية بالفشل.

نعرف أنه في فترة التمرّد في سوماترا، كان راي كلين رئيساً « لمحطة » تايبه، عاصمة فورموزا (تايوان). ونعرف أيضاً من موسلي، أنه هو الذي أرسل قاذفات « ب - ٢٦ » لقصف القوات النظامية الأندونيسية. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى إصرار موسلي بالذات على أهمية موقع كلين في ذلك الوقت. وبعد أن ذكر أن سنة ١٩٥٨، كانت السنة الأخيرة لفرانك ويسنر في منصب « نائب مدير قسم التخطيط » أضاف يقول إن « أكبر عملياته كانت تجري في تايوان حيث أقيمت بإشراف رئيس « المحطة » قاعدة لطائرات « يو - ٢ » من أجل الاستطلاع فوق الصين والتيبت ومنشوريا، بحثاً عن المنشآت النووية وقواعد الصواريخ. إن أحد أهم نشاطات كلين كان تجنيد الجواسيس الصينيين لإنزالهم فيما بعد بالمظلات على الأراضي الصينية... ». وإذا كنا نصر بفضل موسلي على حياة « الدكتور كلين » في فورموزا، فذلك حتى نبيِّن الطابع المخادع لموقفه عندما طلب من « عقلاء » و« فلاسفة الاستقصاء » إغفال أمر تورّطه الكبير في العمل السري. وإذا ما أخذنا أندونيسيا كذريعة نراه يكرِّر القول: « إن دور محطتي في الفشل الأندونيسي اقتصر على تقديم المساعدة غير المباشرة، لكنني أتذكَّر أن سياستنا انقلبت رأساً على عقب، من تقديم المساعدة للمتمردين، إلى التسامح تجاه سوكارنو، من أجل إطلاق سراح طيارنا الأسير. وبهذا الصدد كانت سلطات واشنطن تعتقد أنه ليس بمقدورها التعرُّض لردَّات فعل سياسية مترتبة على افتضاح تورّطها؛ إن هذه العملية الأندونيسية أظهرت جيداً إلى أية درجة من الصعب على مجتمع ديمقراطي أن يلعب دوراً عسكرياً شبه سري في حرب أهلية... ». وانطلاقاً من هذه الاعتبارات حول « المجتمعات الديمقراطية » فإنه من اللاذع أن نرى كيف يستخدم كلين هنا تعابير مثل « المتمردين » وخصوصاً « الحرب الأهلية ». بالفعل هناك بعض « الشجاعة » في التلميح أنه سنة ١٩٥٨ كانت أندونيسيا فريسة « لحرب أهلية » وأنها تطورت إلى « تمرّد » حقيقي ضد الحكومة الشرعية ورئيسها أحمد سوكارنو. لقد رأينا مع باورز في مكان آخر من هذا الكتاب المصاعب

التي واجهتها «الوكالة» في جاكرتا حتى استطاعت العثور على حفنة من «الضباط المنشقين» من أجل تدبير انشقاق في سوماترا. ورأينا أيضاً بأية سهولة وضعت السلطات الشرعية حداً لهذا التمرد المزعوم. إن «الدكتور كلين» يعرف بالطبع كل ذلك، لكن محاولة خلق الاعتقاد «بحرب أهلية» حقيقية، جاءت لأنه يريد أن يؤمّن بذلك قرّاءً لمذكراته. فقيام «حرب أهلية» مزعومة في أندونيسيا سنة ١٩٥٨، المقصود فيها التخفيف إلى أقصى حد من دور وكالة الاستخبارات المركزية: إذ لا تعدّ هي المبادرة بالاضطرابات بل مجرّد قوة ارتكاز.

... بعد الحديث عن ظروف اغتيال «شي» في خريف سنة ١٩٦٧، كتب مارشتي وماركس يقولان: «خلال الصيف التالي، بدأ الحديث فجأة عن يوميات تشي، وسرعان ما وجدت هذه اليوميات مع رفاقه في هافانا، واستطاع المعجبون به من الأميركيين التحقّق فوراً من صحتها، ونشروا محتواها في مجلة «رامبار» رغم معارضة وكالة الاستخبارات المركزية والحكومة البوليفية، التي نشرت منها فقط بعض المقتطفات من أجل تعزيز مواقفها ضد أنصار غيفارا والثوار. وفي هذا الجو من التصريحات المتناقضة والجدل الغامض، اختفى وزير الداخلية البوليفي خلال شهر تموز، وسط ضجة تقول إنه هو شخصياً الذي سلّم الوثيقة. وبوصفه وزيراً للداخلية كان آرغيداس رئيساً لأجهزة الاستخبارات البوليفية التي كانت على علاقات وثيقة مع الاستخبارات الأميركية. وآرغيداس نفسه كان عميلاً لوكالة الاستخبارات المركزية. وفيما بعد عرف أن آرغيداس لجأ إلى الشيلي، حيث طلب حق اللجوء السياسي. إلاّ أن سلطات الشيلي سلّمته إلى المسؤولين المحليين لوكالة الاستخبارات المركزية، وعلى عجل أرسل الضابط الذي كان قد جنّد آرغيداس من واشنطن من أجل إقناعه بتقديم اعترافات. لكن آرغيداس اتخذ موقفاً علنياً ضد «الوكالة» إذ ندّد بنشاطاتها في بوليفيا. واتهم نظام بارينتوس بأنه مجرّد أداة في يد الأميركيين، وانتقد الأسلوب الذي انتهجته هذه الحكومة في قضية غيفارا؛ ثم اختفى من جديد، في حين أثارت تصريحاته أزمة سياسية كبيرة في بوليفية. وعدة مرات، خلال بضعة أشهر بعد سنة ١٩٦٨، ظهر آرغيداس: في لندن، ونيويورك والبيرو. وفي كل مرة كان يظهر فيها، كان عملاء من وكالة الاستخبارات المركزية يفرضون عليه الصمت عن طريق التهديدات أو اغداق الوعود. واعترف الوزير السابق بأنه هو الذي كشف النقاب عن مضمون يوميات «تشي» لأنه، على حدّ ما أعلن، وجد تبريراً للهدف الثوري، في بوليفيا، وفي بلدان أخرى من أميركا اللاتينية، وهو إجراء تغييرات اجتماعية، وسياسية واقتصادية، لصالح الطبقات المضطهَدة. وفي نهاية المطاف، وأمام ارتباك وكالة الاستخبارات المركزية وحكومة بارينتوس، اعترف آرغيداس بأنه هو شخصياً كان منذ سنة ١٩٦٥ عميلاً لوكالة

الاستخبارات المركزية، وأن قادة بوليفيين آخرين كانوا يتقاضون أيضاً معونات سرية من الوكالة. ووصف ظروف تجنيده، متهماً وكالة الاستخبارات المركزية بأنها هددته بكشف ماضيه كمناضل طلابي متطرّف وتدمير حياته السياسية إذا رفض التعاون معها. ومع ذلك توصّلت وكالة الاستخبارات المركزية إلى قاعدة معيّنة للتفاهم مع آرغيداس، الذي عاد طوعاً إلى بوليفيا، وكان السبب المعلن لعودته هذه، هو من أجل إحالته للمحاكمة. وأثناء الطريق بين ليما ولاباز، أسرّ لمراسل «النيويورك تايمز»، أنه إذا ما حلّ به سوء، هناك شريط مسجّل، يتضمّن كل تفاصيل الاتهامات ضد وكالة الاستخبارات المركزية وضد حكومة بارينتوس، يجب تسليمه إلى مختلف الشخصيات في الولايات المتحدة وكوبا. وقال إن هذا الشريط موجود لدى النقيب ماريو تيران. يا للغرابة، لقد قدّم تيران في السابق بأنه الشخص الذي أعدم غيفارا. وخلال هذا الحديث أصرّ آرغيداس على أهمية هذه الاعترافات، ذاكراً أسماء العديد من مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية الذين عمل معهم في الماضي: رئيس «المحطة» هوغو موراي، وهو اختصاصي سابق في العمليات الخاصة، وجون س. هيلتون، والكولونيل إدوارد فوكس، ولاري سترنفيلد ونيك لينديريس. كما كشف النقاب أيضاً عن هوية بعض العملاء المتعاقدين الذين ساهموا في ملاحقة تشي غيفارا: الكوبي هوليو غابريال غارسيا، وآدي وماريو غونزاليس من بوليفيا(...). وأكّد أن بارينتوس وسفير الولايات المتحدة شخصياً كانا يجهلان مدى تسلّل وكالة الاستخبارات المركزية إلى داخل حكومة بوليفيا ـ المقصود هنا دون شك هو أحد التنازلات للسلطات التي عملت على تسهيل عودته إلى لاباز ـ. وخاتمة كل القضية حصلت خلال الصيف التالي، أي بعد مرور سنتين تقريباً على اغتيال غيفارا. الرئيس بارينتوس قتل نتيجة لحادث طائرة هليكوبتر. وبعد مرور ستة أسابيع، اغتيل أنطونيو آرغيداس في أحد شوارع لاباز، وهو الذي اعترف بأنه كان عميلاً لوكالة الاستخبارات المركزية، وكان ينتظر محاكمته بتهمة تسليم يوميات تشي غيفارا. وبعد شهر واحد، اغتيل في سانتا كروز، هيربرتو روجاس الذي قاد القوات «الخاصة» البوليفية ومستشاريها من وكالة الاستخبارات المركزية خلال الملاحقة النهائية لتشي غيفارا، والذي كان دون شك أحد أولئك النادرين جداً، الذين يعرفون المكان الذي دفن فيه قائد الثوار. أما شريط التسجيل الذي قال آرغيداس إنه سلّمه إلى ماريو تيران لن يعثر عليه أبداً...».

وهنا أعاد دنيس لانكور الوقائع إلى الأذهان عندما كتب يقول: «قام بوب ودوارد (أحد الصحفيين اللذين كشفا قضية ووترغيت) بتحقيق لحساب «الواشنطن بوست» حول «المساعدات السرية» التي دفعتها وكالة الاستخبارات المركزية لحساب كبار الشخصيات

السياسية الأجنبية، أتاح معرفة أن العديد من رؤساء الدول حصلوا من الوكالة على مبالغ تقدَّر بملايين الدولارات. ومن هذه الشخصيات ملك عربي، الذي اتهمه ودوارد بأنه حصل على معونات من وكالة الاستخبارات المركزية خلال ٢٠ سنة (...). والرئيس الزائيري جوزف موبوتو سيسي سيكو، تسلم بدوره ٩٦٠ ألف دولار خلال مدة ١٤ سنة. والدالاي لاما، عاهل التيبت، الذي هرب إلى الهند سنة ١٩٥٩، تقاضى خلال عدة أشهر أموالاً من الوكالة. ومن بين رؤساء الدول الآخرين الذين ذكرهم ودوارد يوجد السادة ويلي برانت (المانيا الغربية) وجومو كينياتا (كينيا) ونغوين فان تيو (فيتنام الجنوبية) وفوربيس بورنهام (غويانا)...

وبالإضافة إلى موبوتو والملك العربي اتهم سيمون مالي مدير مجلة «إفريقيا - آسيا» في افتتاحية بعنوان: «إننا نتهم»... الرئيس المصري أنور السادات، والرئيس السوداني جعفر نميري. وأخيراً أضاف مالي: «إننا نتهم بيار الجميل وولديه بأنهم وضعوا حزب الكتائب اللبنانية تحت التصرف المباشر لوكالة الاستخبارات المركزية مقابل مساعدة عسكرية ومالية قدرت في المدة الأخيرة بـ ١٨ مليون دولار...».

نترك «الملك العربي» لنعود إلى الرئيس الزائيري موبوتو... كتب روبرت أ. مانينغ في «لا فيكسيون زائيرواز» يقول: «منذ زمن طويل، تعتبر زائير الحليف الأساسي للولايات المتحدة في إفريقيا السوداء. «والولايات المتحدة، على حد قول شخصية رسمية من وزارة الخارجية، تعتبر أن زائير تشغل في إفريقيا السوداء موقعاً مماثلاً تقريباً لموقع البرازيل في أميركا الجنوبية». إن التدخل الأوروبي - الأميركي في الكونغو لا يعود تاريخه إلى الأمس القريب وإنما يعود إلى سنة ١٩٦٠(...). والدعم الذي يقدمه الغرب إلى الرئيس موبوتو هو قصة قديمة أيضاً، ومن المعروف أن هذا الأخير يتقاضى معونات من وكالة الاستخبارات المركزية منذ أكثر من ١١ سنة(...). ففي كينشاسا، يوجد المكتب الرئيسي لوكالة الاستخبارات المركزية في إفريقيا... ويستند مانينغ في قوله هذا إلى «نيويورك تايمز» يوم ٢٥ أيلول ١٩٧٦ وإلى «الواشنطن بوست» يوم ٢٨ شباط ١٩٧٧. لكن كان بمقدوره العثور على مراجع قديمة أكثر.

أما أندرو تولي فيتحدَّث بتفاصيل أوسع وأوضح عن موبوتو، إذ يقول: «فشلت عملية دعم «رجل قوي» في اللاوس، لأن هذا الرجل لم يكن قوياً ولم يكن يحوز على شعبية، ولأن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تفتقر إلى الأفكار من أجل الوقوف في وجه الخطر الشيوعي. وبالمقابل نجحت عملية دعم رجل قوي في الأمة الكونغولية الجديدة، لأن هذا

الرجل كان يحوز على دعم شعبي، وله سيطرة على الجيش، ويعرف كيف يواجه الحمر. إن هذه الأمة الجديدة قد تواجه معضلات خلال السنوات القادمة أيضاً؛ ففي جو الكونغو، لا يمكن لأي حكومة أن تتخلّص من ذلك. لكن حتى الآن فإن الولايات المتحدة، المتمثلة بوكالة الاستخبارات المركزية، أمسكت الأمور جيداً خلال الأشهر المضطربة في سنة ١٩٦٠ و١٩٦١. ويعود هذا الفضل إلى أولئك الذين اختاروا الرجل الملائم في الوقت المناسب. والمقصود هو جوزف موبوتو، المراسل السابق «لوكالة الصحافة الفرنسية» في ليوبولدفيل، والرقيب السابق في قوات الأمن التي كانت تحت إشراف بلجيكي. ويمكن القول إن وكالة الاستخبارات المركزية هي التي «اكتشفت» موبوتو: كان غائباً عندما احتفل رجال السياسة في الكونغو باستقلالهم يوم ٣٠ حزيران ١٩٦٠...». وفي مكان آخر، وبعد أن قال (على طريقته) بعض الكلمات عن الجهود التي بذلها الزعيم التقدمي باتريس لومومبا، وهي جهود عرقلها رئيس الجمهورية جوزف كازافوبو، وأدَّت إلى اغتيال لومومبا، يضيف تولي: «بكل وضوح، كان كازافوبو لا يستطيع مجابهته. لكن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تمسك بالرجل المطلوب: جوزف موبوتو، الوزير دون وزارة. فترك موبوتو حقيبته الوزارية الوهمية وعاد إلى الجيش برتبة كولونيل، رئيساً لهيئة أركان الجنرال لوندولا. وفي ١٤ أيلول، ظهر كرجل قوي في الجيش الكونغولي، أطاح بلوندولا بالاتفاق مع كازافوبو، وأخذ لقب القائد الأعلى...».

صفحات عديدة طويت في الحديث عن نشاط وكالة الاستخبارات المركزية دون أن نأتي على ذكر صاحب الصورة: راي س. كلين. وفي الحقيقة لم نشعر أننا ابتعدنا عنه. فبالقدر الذي تبدو فيه العلاقات الشخصية، التي أقامها مع تشانغ شينغ ـ كيو، أنها مثال للنجاح، بل واتخاذها كنموذج لتسيير العملاء في القمة، بالقدر نفسه ارتأينا في صورته هذه معالجة هذا الشكل الخاص والمهم من نشاط «الشركة». وبالفعل تحت هذا العنوان إنما أدرجنا صورته بين «صور العائلة». ولكن لماذا راي كلين لم يأتِ في مذكراته على ذكر أي اسم من أسماء رؤساء الدول الذين مرّوا أمامنا بعد أحداث أندونيسيا؟ إن الاسم الوحيد الذي ورد في مذكراته هو اسم لومومبا وفي كلمات لا تتعدّى السطر ونصف السطر. وهو فعل ذلك بعد حديثه الموجز عن الجهود الفاشلة التي بذلتها «الوكالة» في محاولاتها اغتيال فيدل كاسترو، وإليكم ما قاله: «إن الحالة الوحيدة الأخرى التي أزمعت فيها وكالة الاستخبارات المركزية فعلاً القيام بعملية اغتيال كانت ضد لومومبا في الكونغو؛ ولكنها هنا أيضاً لم تنجح...». وكأن «الدكتور كلين» لم يبلَّغ أبداً بأن لومومبا قد اغتيل!

إن آخر حديث علني نعرفه لكلين يعود إلى ربيع سنة ١٩٨١. وجاء على لسان الصحفي ادوين وارنر عندما كتب يقول: « يعتقد راي كلين أن وكالة الاستخبارات المركزية « تنجح بصورة أفضل عندما تستخدم أساليب مموَّهة وغير مباشرة. فقد ولّى زمن القتل من أجل بلوغ الأهداف. إن المهمة الأساسية « للعمل السري » هي جعل الناس يفهمون كيف يجب أن يعمل نظام سياسي مستقر، وكيف يجب أن نتصرَّف تجاه ما يمكن أن يشكّل خطراً على هذا الاستقرار ... ». بعد قراءة ذلك نترك راي كلين لننتقل إلى الصورة العاشرة، صورة من أسماه كلين دون خوف « بطل حقيقي في مهنة الاستخبارات »: ريتشارد م. بيسيل.

الفصل العاشر

ريتشارد بيسيل ، أو حارس العقيدة

« موهبة لا مثيل لها في التحليل الواضح » ـ أب اليو ـ ٢ ، و أ ـ ١١ ، و س ر ـ ٧١ ـ أولئك الذين « يعتبرون أن العنف هو أقصر طريق بين نقطتين » ، حيث نجد « حرّاس المعبد » . . . ـ قال ديك : « نحن الثوريين الحقيقيين! » ـ مظاهرة طلابية سنة ١٩٧١ ـ نظرية « العمل السري » ـ عندما أنشأ كندي « لجنة بيسيل » .

بيسيل « بطل حقيقي ؟ » : . . يا لهذا المديح المدهش خصوصاً عندما يصدر عن كلين. إن كل ما نعرفه عن بيسيل ـ أحد رجال غواتيمالا ، ورجل « خليج الخنازير » ، وأحد المسؤولين الرئيسيين عن « محاولات الاغتيال » ـ يدور حول « العمل السرّي » السيء . كلاَّ إننا نخطىء . فإذا كلين وجد بيسيل « بطلاً » فذلك لأنه « أب اليو ـ ٢ » ورائد من روّاد استخدام التكنولوجيّات في الاستخبارات . . . وهكذا هل بيسيل هذا هو رجل تناقض ، كما نراه في بداية هذه الصورة؟ . إن ريتشارد م. بيسيل الإبن لا يبدو كإنسان ممزّق بين الميول والآراء المتناقضة . ولم يكن راي كلين أول من كال له المديح .

إن الصحفي الأميركي المشهور سايروس ل. سلسبرغر المعروف بمرورة لسانه. كتب في مفكرته الشخصية بتاريخ ٦ تشرين الثاني ١٩٦٢ الخبر الآتي : « هذا الصباح ، مقابلة جيّدة مع ديكي بيسيل الشخص الثاني السابق في وكالة الاستخبارات المركزية ، وأب اليو ـ ٢ ، والذي يدير الآن فريقاً أطلق عليه اسم معهد تحليلات الدفاع . إنه شخص رائع . . . » .

وكان آرثر شليسينجر ، وهو من مؤيدي كندي العنيدين ، يلوم دائماً وكالة الاستخبارات المركزية التي سبّبت عدداً من المشاكل للرئيس كندي نتيجة فشلها الكوبي . إذن عندما تحدّث في هذا الصدد عن الاجتماعات التي كانت تعقد في البيت الأبيض من أجل التحضير لمحاولة غزو كوبا ، كتب يقول : « ديك بيسيل الذي عرفته كاقتصادي في مشروع مارشال قبل أن يدخل إلى أجهزة الاستخبارات ، ليصبح نائب رئيس العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية ، كان رجلاً يمتلك مواهب ثقافية مرموقة ، سريع الخاطر وذكي ،

وصاحب موهبة لا مثيل لها في التحليل البعيد النظر والعرض الواضح. وقبل سنوات من ذلك كان قد خطّط واستطاع أن يحقّق تحليق طائرات يو - ٢ فوق الاتحاد السوفياتي، على الرغم من المصاعب التي نجمت عن ذلك سنة ١٩٦٠، قد يكون هذا العمل هو الأنجح في التجسس منذ الحرب. وعمل بيسيل على المشروع الكوبي خلال السنة الماضية بنفس الحماس. وكان يشرح لنا كيف سيحصل الاجتياح ويقارن بين أفضل أمكنة الإنزال...».

إن فكتور مارشتي وجون ماركس المطلعين جيداً على أمور «الشركة»، يتحدثان عنه هنا بلهجة لم نتعوّدها منهما حيث كتبا: «ريتشارد بيسيل هو أحد كبار الضباط النادرين في الأجهزة السرية، الذين لم يسبق لهم أن عملوا في مكتب الاستخبارات الستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية؛ ولم يمنعه هذا من أن يصبح نموذجاً للاختصاصي الرفيع الكفاءة. لقد درس في غروتون ويال، وكان على معرفة معمّقة بالوضع في بلدان الشرق. إن مثل هذه الدراسة لم تكن ضرورية للعمل في وكالة الاستخبارات المركزية، كما أنها لم تفده، خصوصاً عندما كانت الوكالة بإدارة آلن دالس. وكانت لدى بيسيل ميزة أخرى، وهي أيضاً دراسة جامعية ممتازة، إذ حصل على دكتوراه في العلوم الاقتصادية وعلّم هذه المادة في يال وفي ماساشوستيس إنستيتوت أوف تكنولوجي. دخل إلى وكالة الاستخبارات المركزية سنة ١٩٥٤، وسرعان ما تقدم في المهمات السرية(...). ولدى تسلّم حكومة كندي مهماتها، اعتبرت أوساط البيت الأبيض بيسيل أنه أنسب خليفة لدالس الذي كان على وشك بلوغ سن الـ ٧٠ سنة. ويبدو أن بيسيل يستجيب تماماً للصورة النموذجية لرجال الحدود الجديدة «الأفضل بين المفضّلين». لكن شعبية بيسيل كانت قصيرة الأجل في إدارة كندي: إذ بقيادته أعدّت الأجهزة السرية ونفذت الإنزال في خليج الخنازير، في نيسان سنة ١٩٦١. ولم يفشل عملاء بيسيل فحسب، بل لم يستطيعوا تغطية أنفسهم «بتكذيب مقبول» وهو أمر ضروري لكل عملية سرية، مما كان سيتيح لإدارة كندي دحض الاتهامات. وقد كشف فيدل كاسترو، أمام العالم بأسره، حقيقة التدخل الأميركي في كوبا؛ وعزل كندي قادة وكالة الاستخبارات المركزية، الذين جروه إلى عملية خليج الخنازير، التي كان قد وافق عليها شخصياً. وترك بيسيل منصبه، وكذلك دالس ونائب المدير شارل كابيل(...). وخلف هلمس بيسيل(...) ومنح بيسيل وساماً خاصاً مكافأة لسنوات الخدمة داخل «الوكالة»؛ ومن جهة أخرى وبوصفه خبيراً مستشاراً، بقي على اطلاع وثيق على نشاطاتها السرية. ووكالة الاستخبارات المركزية كانت لا تريد الاستغناء عن خدمات رجل قادها على طريق استخدام التقنيات المتقدّمة. فخلال الخمسينات كان أول من أدرك أن أساليب التجسس الكلاسيكية أصبحت عملياً عديمة الفائدة ضد الاتحاد السوفياتي

والصين، لذا فقد بذل الجهود لتطوير واستخدام التكنولوجيا الحديثة بوصفها وسيلة فعّالة للتجسس. وكان في أساس تصميم واستخدام طائرة اليو - ٢، التي كانت قبل إلقاء القبض على باورز، من أبرز نجاحات وكالة الاستخبارات المركزية. وبيسيل أيضاً هو الذي طوَّر بالمساعدة التقنية لكلي جونسون واستخدام مركز الأبحاث في لوكهيد إيركرافت كوربوريشن طائرة «أ - ١٢» المعروفة باسم «س ر - ٧١»، وهي طائرة تجسس أسرع من الصوت، تستطيع التحليق على ارتفاع أعلى من «اليو - ٢». وفضلاً عن ذلك دعم بيسيل بكل قوة مشاريع استخدام الأقمار الاصطناعية كوسيلة للتجسس. لقد أدرك بسرعة المدى الواسع النطاق الذي تقدِّمه للتجسس إمكانية وضع آلات تصوير قوية جداً على مدار حول الأرض، مما يتيح تصوير منشآت سرية في الاتحاد السوفياتي والصين. ونتيجة للبرامج التقنية التي نفَّذها العلماء والمهندسون العاملون باشراف بيسيل، وجدت وكالة الاستخبارات نفسها في طليعة برنامج كامل للاستطلاع بواسطة الأقمار الاصطناعية، نظَّمته الولايات المتحدة في نهاية الخمسينات ومطلع الستينات. واليوم أيضاً، في حين أن القسم الأكبر من برامج الاستطلاع بواسطة الأقمار الاصطناعية، بشكلها العملاني، أصبح من اختصاص القوات الجوية، فإن الأجهزة المتخصصة في وكالة الاستخبارات المركزية لا تزال مسؤولة عن أبحاث متقدِّمة في هذا المجال. وفي الوقت الذي كان فيه بيسيل يساهم في العديد من المستحدثات في ميدان الاستطلاع الجوي، كان يوجِّه باضطراد الأجهزة السرية نحو تنفيذ برامج عمليات سرية كبيرة في العالم الثالث. إن قسماً كبيراً من مبدأ وتقنيات التدخل التي استخدمت في العديد من عمليات وكالة الاستخبارات على الأراضي الأجنبية كانت من صنع وتصميم بيسيل...».

إن تنوُّع نشاطات بيسيل في «الوكالة» كان استثنائياً، كما أن الشكل الذي دخل فيه إليها ووصل إلى مركز قيادي كان هو استثنائياً أيضاً. هذا ما يشير إليه ليونار موسلي كاتب سيرة دالس عندما يقول: «كان ريتشارد بيسيل الإبن أحد النجوم الصاعدة في وكالة الاستخبارات المركزية. إنه رجل طويل القامة، مثقف، عمل في السابق في مشروع مارشال في المانيا، وفي مؤسسة فورد في واشنطن. وكان يعرف آلن دالس منذ ١٩٤٨، كما كان صديقاً لفرانك ويسنر (...). وعندما دخل إلى الوكالة في مطلع سنة ١٩٥٤، حصل ذلك بطلب من آلن؛ وشغل فيها منصباً غير عادي، مساعداً للمدير، إلى أن قرَّر ويسنر منحه فرصة لاثبات مهارته، فكلَّفه الاهتمام بغواتيمالا، إلى جانب أحد قدامى الوكالة، تراسي بارنيز... وأصبح بيسيل سيِّد «العمل السرّي»، بعد ٤ سنوات فقط من عمله في الوكالة مسجِّلاً على هذا النحو رقماً قياسياً في الترقيات لا مثيل له. ويستطرد موسلي: «كان ريتشارد بيسيل دقيقاً جداً عندما

كان يطلع آلن دالس على كل العمليات التي يقوم بها. والآن أصبح بيسيل خليفة لفرانك ويسنر كرئيس لقسم التخطيط، وهذا يعني أنه أصبح مسؤولاً عن كل العمليات السرية. ومع أن سنوات قليلة كانت قد مرّت منذ أن أحرز نجاحه الأول، في غواتيمالا، حيث ساهم بالإطاحة بنظام جاكوبو أربينيز وأبدله بآخر، أكثر خضوعاً لمديري شركة يونايتد فرويت. ومنذ ذلك الحين، فكَّر بيسيل كثيراً بفعالية مثل هذه العمليات، وبدأ يرى بعض الشكوك بالنسبة للنتائج التي يمكن الحصول عليها. هذا لا يعني أنه عارض معنوياً العمليات السرية أو الدعم الذي كانت تقدِّمه الوكالة الى الحركات المعادية للأنظمة الشيوعية. لكنه بدأ يتساءل ما إذا كان القيام بمثل هذه العمليات يعود بالخير على الولايات المتحدة...».

بعد قول ذلك، نعود إلى الانتقادات التي أعرب عنها باورز، وهي انتقادات تمثِّل رأي هلمس، وتتعارض مع المديح الذي سمعناه حتى الآن. فقد كتب باورز يقول: «من الصعب جداً تصوّر رجلين متباينين كريتشارد هلمس وريتشارد بيسيل. لقد كان هلمس بالطبع حزيناً، عندما أصبح بيسيل سنة ١٩٥٨ في المنصب الذي كان يصبو إليه، إلاَّ أن هلمس عيَّنه في هذا المنصب ليس لمجرَّد أسباب شخصية. بيسيل كان صاحب تفكير واسع؛ فلم يكن هناك في الحقيقة أي شيء تقترحه عليه حتى يجد له حلاً، ويقيِّم استحقاقاته حتى لو كان ذلك بصدد مخطَّط غزو كوبا أو بصدد منديل مسمَّم لجنرال عربي - كان على استعداد لمناقشة كل الاقتراحات. لكن التفكير الواضح والمنطقي لبيسيل كان مجرَّد وهم. وفي تصرُّفه أثناء العمل كان يدير الأمور بشكل يؤدّي به إلى انتهاك القواعد التي كان قد وضعها هو. كان مكتبه دائماً بحالة فوضى. إن نظرة واحدة على هذا المكتب تكفي(...) للتشاؤم بالنسبة لمستقبل البلاد(...). إن عدداً معيَّناً من رجال وكالة الاستخبارات المركزية كان يبدي الحذر من بيسيل، لأنه كان يفكِّر - بصورة خاصة على ضوء ما سيصل إليه فيما بعد - إن مقدراته الثقافية الخارقة كانت تتضمن حتماً هفوات وإن تحمُّسه للمشاريع التي تنطوي على مغامرات كان يتخطّى حدود الشجاعة...». وعلى هذا النحو يواصل باورز انتقاد بيسيل، إلى أن وصل طوعاً لأن يظهر كيف أن الميل إلى «العمل السري» الذي أصبح منظِّراً له، هو إلى حد ما نتيجة لما اعتبر غالباً في «الوكالة» بالذات بمثابة أخطاء رهيبة. واستطرد: «كان بيسيل لا يأخذ في الاعتبار تقنيات تشغيل العملاء، لكن في فريق «مدير قسم التخطيط» لم يكن خافياً على أحد أن هلمس وغيره من قدامى «مكتب العمليات الخاصة» فقدوا تقديرهم لمقدِّرات بيسيل العملانية(...). ومع أن قدامى الاختصاصيين في الاستقصاء السري، الذين أتوا من «مكتب العمليات الخاصة» كانوا حذرين من بيسيل، وذلك ليس فقط لعدم خبرته ولامبالاته

بكل ما يتعلّق بالعملاء ، بل ما كان يفصل بينهم كان له أيضاً شكلاً فلسفياً . بيسيل كان يحب تنفيذ الأعمال. فإذا ما وضع أمام مشكلة سياسية ، بدعم من دالس ، سرعان ما كان يجد لها حلاً سرياً . ويؤكد ديسموند فيتزجيرالد أن الاستقصاء السري يبقى دون فائدة إذا ما وضع في صندوق مقفل ، لذا فإن بيسيل يحب النشاط . وهذا لا يعني أن له نفس موقف بعض قدامى « مكتب الاستخبارات الستراتيجية » ، الذين يؤيِّدون الأعمال شبه العسكرية دون قيد ولا شرط ، والذين يعتبرون أن أقرب طريق بين نقطتين هو العنف ؛ ولكن هذا يعني أن بيسيل كان لا يتراجع عندما يبدو العنف ضرورياً : بذل كل الجهود الممكنة لقتل قادة ثلاثة بلدان على الأقل ، وفي حالتين أرسل رجالاً مسلَّحين ـ وفي حالة كوبا أرسل جيشاً بأسره . . . » .

وفي مقابلة لبيسيل مع القناة التلفزيونية CBS حول « الحرب السرية ضد كاسترو » أجراها بيل مويرز وهو ناطق سابق بلسان البيت الأبيض ، وأصبح فيما بعد صحفياً مشهوراً في الولايات المتحدة، تناول الحديث فيها بالطبع محاولات الاغتيال ضد الزعيم الكوبي. فقال بيسيل : « قال الرئيس ، تقريباً ، إنه يريد التخلّص من شخص ما . وبكل وضوح هو ومحيطه يفضّلون أن يحصل ذلك بشكل ، لنقول مناسب. لكنه عندما جرى التشديد على « التخلّص مهما كلّف الثمن » أصبحت ميّالاً لأن أعتبر ذلك بمثابة تفويض . . . » . فدهش بيل مويرز : « لست أول من يحدِّثنا عن هذه الأساليب التي يستخدمها موظفو وكالة الاستخبارات المركزية في علاقاتهم مع الرئيس(. . .) . هذه التلميحات ، لماذا يجري الحديث عنها بهذا الشكل الغامض ؟ » . فأجاب بيسيل : « أعتقد أن ذلك بسيط جداً حسب رأيي ، إن موظف الاستخبارات يجري الحديث مع رئيس الدولة بشكل لا يترك أي إثبات بأن هذا الأخير قد تسرَّع بالسماح في أعمال معيَّنة. . . » .

بالطبع ، إن بيسيل عندما يقول ذلك ، فهو يتكلَّم عن أمور يعرفها ، كما أن مارشتي وماركس أشارا آنفاً (في سنة ١٩٧٤) إلى أن « قسماً كبيراً من مبدأ وتقنيات التدخل التي طبّقت في العديد من عمليات وكالة الاستخبارات المركزية ، على الأراضي الأجنبية كانت من وضع وتخطيط بيسيل » . إذن من الطبيعي أن يعتبر بالإجماع في النهاية منظِّراً « للعمل السري » ؛ إلاّ أنه كان من الممكن أن يكون منظِّراً دون نظرية ، نتيجة لواقع السرية الشديدة التي تمارس في وكالة الاستخبارات المركزية ، إذ لم يستطع أحد من خارج « الشركة » أن يعاين نصوصاً مكتوبة للإطلاع على آرائه « النظرية » . لكنه كما سنرى ، لعب القدر لعبته . . .

كتبت نينا سوتون تقول : « إن العملية السرية هي كل نشاط يهدف إلى التأثير على الوضع السياسي في بلد أجنبي . إن أحد أكبر العروض المأذونة عن النشاطات التي تدخل في هذه

الفئة، قدّمه ريتشارد بيسيل خلال اجتماع خاص جداً «لمجلس العلاقات الخارجية»، هذا الشخص الذي أدار جهاز العمليات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية مدة أربع سنوات...». في الواقع لم تكن نينا سوتون واضحة عندما تحدّثت فقط عن «عرض». إن راي كلين اعتبر أن الأمر يتعلّق بوصف نموذجي واضح «للعمل السري». ومع ذلك ما لبث كلين أن قال إن هذا النص نشر دون علم ودون إذن من بيسيل. لماذا؟ هذا ما يوضحه مارشتي وماركس فيرويان كيف اجتمعت في نيويورك «ذات مساء من كانون الثاني ١٩٦٨ مجموعة صغيرة من اختصاصيي التجسس من أجل مناقشة دور وكالة الاستخبارات المركزية في السياسة الخارجية للولايات المتحدة، وذلك لم يحصل في مقر المنظمة في لانغلي، بل في هارولد بزات هاوس مكان الاجتماع المعتاد لمجلس العلاقات مع البلدان الأجنبية. وقد أدار المناقشات س. دوغلاس ديلون، من إدارة التوظيفات، الذي سبق له أن كان مساعداً لوزير المالية؛ والمحاضر الرئيسي كان بيسيل(...)؛ الذي بقي مستشاراً ـ خبيراً لوكالة الاستخبارات المركزية، وفي نفس الوقت أحد المديرين الرئيسيين ليونايتد إيركرافت كوربوريشن. والمقصود كان اجتماعاً خاصاً لأن بيسيل وكذلك معظم الرؤساء الآخرين لوكالة الاستخبارات المركزية، كانوا لا يريدون أن يعلنوا مفاهيمهم لدور أجهزة الاستخبارات. إذن، في سنة ١٩٧١، وخلال إحدى المظاهرات ضد الحرب، احتلّت مجموعات متطرِّفة من الطلاب، في كامبريدج وماساشوستيس، مبنى يوجد فيه مقر مركز العلاقات الدولية لجامعة هارفارد. وبعد أن سدَّ المتظاهرون مداخل المبنى، فتّشوا ملفّات أساتذة الكلية العاملين في هذا المركز. وفي أوراق أحد الأساتذة، ويليام ر. هاريس، وجدوا النصوص السرية لتقرير الاجتماع الذي عقد في ٨ كانون الثاني ١٩٦٨، في بارت هاوس. وبعد مرور سنة على ذلك أعلن هاريس في مجالسه الخاصة أن الوثيقة التي وجدت في ملفّاته صيغت بشكل لا يوضح بعض النقاط المحرجة. وحتى بالشكل الذي صيغت فيه، تشكّل هذه الوثيقة أكمل وصف لاستراتيجية العمليات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية، التي استطاع العالم الخارجي الاطّلاع عليها حتى الآن...».

في الحقيقة البروفسور هاريس لم يكن الوحيد الذي حصل على الوثيقة، هذا بالإضافة إلى كونه هو كاتبها. وبالفعل فهو الذي كتب محضر مناقشات الاجتماع الذي عقد في ٨ كانون الثاني ١٩٦٨، حول موضوع «التجسس والسياسة الخارجية». وقد نشر هذا النص بعدد ضئيل من النسخ، من قبل مجلس العلاقات الخارجية، وكتب على غلافه: «سري ـ مخصّص لأعضاء المجموعة فقط».. إن الطلاب الذين حصلوا على النص في مكتب البروفسور سلّموه في النهاية إلى «أفريكان ريزرش غروب» التي وزّعته على الجمهور. وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن عدد

المشاركين اقتصر على زهاء العشرين وأن آلن دالس كان من ضمنهم، ورجل المال فرانك إنتشول نائب رئيس مجلس العلاقات الخارجية وغيرهم.

نعود إلى الوثيقة نفسها التي نشراها بدورهما مارشتي وماركس تحت عنوان « فلسفة بيسيل ». وسنورد بعض المقاطع الهامة بصورة خاصة منها.

في الحقيقة لا يوجد في وكالة الاستخبارات المركزية فصل حقيقي بين « العمل السري » والاستخبارات بمعناها المعروف... « لأسباب مختلفة يمكن وضع « العمل السري » في مرتبتين: ١) البحث والاستقصاء، ويحصل بالدرجة الأولى بواسطة التجسس، أو البحث عن المعلومات بأساليب سرية؛ ٢) « العمل السري » يعني بذل الجهود من أجل التأثير على الوضع الداخلي في بلدان أجنبية ـ وهو يوصف أحياناً « بالتدخل » مع استخدام أساليب سرية. ومع أنه من الممكن، نظرياً، التمييز بين هذين النموذجين من النشاط، إلاَّ أنه يوجد تداخل دائم بين « العمل السري » وبين البحث والاستقصاء. فالمحاولات التي جرت في الماضي من أجل الفصل بين هاتين المهمتين كان لها نتائج اعتبرت بصورة عامة أنها « مشؤومة كلياً من وجهة نظر العمل الداخلي ». وفي الحقبة الأولى لوكالة الاستخبارات المركزية، في سنة ١٩٤٨، اعتبر مكتب التنسيق السياسي بإدارة فرانك ج. ويسنر بمثابة جهاز مستقل، مخصَّص للعمليات المموَّهة. ومع بقائه ملحقاً بوكالة الاستخبارات المركزية، مستفيداً على هذا النحو من دعمها، حافظ هذا الجهاز على استقلاليته، وكان ويسنر يقدِّم مباشرة التقارير عن نشاطاته إلى وزير الخارجية ووزارة الدفاع. وعندما عُيِّن « بيديل سميث » على رأس وكالة الاستخبارات المركزية، اعتبر بوصفه المدير الفعلي، أن يدير هو شخصياً مكتب التنسيق السياسي، فألحق هذا المكتب بنيوياً بأجهزة الاستخبارات السرية، بشكل دمجت فيه عملياً مهمة « جمع المعلومات » و« العمل السري »...».

حول المصاعب التي اعترضت وكالة الاستخبارات المركزية في « نشاطاتها التجسسية... » ضد الكتلة السوفياتية والأنظمة الاجتماعية الأخرى القوية التنظيم، لم يكن التجسس المصدر الرئيسي ـ على الرغم من بعض النجاحات اللامعة (مثلاً نفق برلين، واستخدام بعض المهاجرين السوفيات من المستوى الرفيع). إن أحد الأسباب الرئيسية هو أن التجسس يتطلَّب تجنيد عملاء سريين، وعلى مستوى رفيع، وهذا التجنيد تعترضه مصاعب قصوى. فلا يمكن الحصول على معلومات ذات أهمية أساسية بواسطة عميل من مستوى غير رفيع، حتى ولو كان هذا الأخير صادقاً، وحتى لو كان من الممكن الاتصال به بصورة منتظمة. إن الأسرار التي من المستحيل الحصول عليها بأجهزة الاستطلاع أو من مصادر

معلومات يمكن الحصول عليها بسهولة ، هي موجودة في تفكير العلماء وكبار المسؤولين السياسيين ؛ فهي ليست في متناول المواطنين العاديين ، حتى ولو كانوا من مستوى اجتماعي رفيع. وعلى العكس من ذلك ، فإن إمكانية جمع المعلومات سراً هي مهمة سهلة جداً في البلدان المتخلفة ؛ ذلك لأن حكوماتها هي أقل تنظيماً ، ولا تبدي اهتماماً كبيراً بأمنها ، كما يوجد في الأحزاب والمنظمات ، وبين الشخصيات غير المشاركة في الحكومة ، إمكانيات كبيرة من الممكن استثمارها . وفي هذه المناطق ، الهدف الأول للتجسس هو إطلاع واشنطن في الوقت المناسب على آفاق الصراع على السلطة ، وجمع معلومات ذات أهمية تكتيكية . ما هي أهمية ذلك ؟ عن طريق الاتصالات المتكررة مع مختلف العناصر المتصارعة على السلطة ، هناك صعوبة كبيرة لتكوين فكرة صحيحة عن توازن القوى. فقد فوجئت مرّات عديدة بقيام انقلاب عسكري غير متوقع ؛ غالبا ما أهملنا الاتصال بعناصر غير شيوعية وبضباط شباب متورطين في الانقلاب ؛ ونفس الشيء ، فيما يتعلق بزعماء الأحزاب العمالية أو غيرها . كما أننا كنّا نجهل كل شيء عن الوضع الداخلي ، لأن نسبة القوى كانت دائماً غير واضحة ، وفي بعض الأحيان كان الأبطال الرئيسيون مجهولين بالنسبة لنا . إن معرفة اللاعبين الرئيسيين بين الأطراف المتخاصمين ، هي وحدها التي تتيح تكوين فكرة عما يمكن أن يحصل . وتوفر هذه المناطق لنا إمكانيات حقيقية للعمل ؛ فالتقنية العملانية هي بصورة أساسية تقنية « التسلّل » ، ومن ضمنها أشكال التسلّل التي يعارضها أنصار المفهوم الكلاسيكي للأجهزة السرية .

حول مختلف الأشكال التي يمكن أن يرتديها « العمل السري »... في موضوع(...) « العمل السري » يمكن أن نميِّز الأشكال التالية : ١) آراء ومشورات سياسية ؛ ٢) منح مساعدات مالية ؛ ٣) دعم مالي ومساعدة تقنية للأحزاب السياسية ؛ ٤) تقديم المساعدة لهيئات خاصة ، كالنقابات العمالية ، والشركات التجارية والتعاونيات ؛ ٥) الدعاية السرية ؛ ٦) التنشئة الفردية « التخصصية » وتبادل الأشخاص ؛ ٧) العمليات الاقتصادية ؛ ٨) العمليات شبه العسكرية أو التأثير البسيكولوجي الهادفة إلى إسقاط أو دعم نظام ما (كما حصل في عملية خليج الخنازير أو التدخل في لاوس). إن هذه العمليات يمكن وضعها في فئات مختلفة ، تبعاً لطبيعة أو أهمية السرية التي تستدعيها ، وتبعاً لعلاقتها مع الشرعية ... ».

حول توزيع المهمات بين ديبلوماسي وزارة الخارجية و« ضباط » وكالة الاستخبارات المركزية... إذا كنا نريد أن نفهم بصورة أفضل دور التدخلات المموَّهة ، يجب مقارنتها مع النشاطات العلنية التي تمارسها حكومة الولايات المتحدة. فحول مختلف القضايا ، تبذل الديبلوماسية الجهود من أجل الوصول إلى نتائج عن طريق المناقشات بين حكومة وحكومة ،

بشكل علني أو بمحادثات خاصة. إن السياسة الخارجية في المجال الاقتصادي والبرامج الثقافية تجهد لأن تغيِّر بشكل دون نتائج خطيرة بنية الاقتصاد في البلدان الأجنبية، أو مشاعر الرأي العام. وهدف العمليات المموَّهة هو التأثير على القوى السياسية الداخلية، والأهداف المقصودة غالباً ما تكون قصيرة الأجل. فالتطوير الاقتصادي لبلد متخلِّف يستوجب جهوداً طويلة الأجل، مع نفقات طائلة؛ ويتطلَّب للحصول على نتائج ملحوظة تعاون أكبر مجموعات السكان. وبالمقابل فإن كل الجهود لإضعاف حزب شيوعي محلي، أو ضمان النجاح لحزب آخر في الانتخابات، في مهلة تمتد من سنتين إلى ثلاث سنوات، يجب بالطبع أن تبقى سرية؛ ويجب بشكل واقعي وحسي، استخدام أشخاص وأدوات تبقى دائماً في متناول اليد، وكل الأساليب التي يمكن أن توفِّر فرص النجاح.

وأخيراً حول استخدام وكالة الاستخبارات المركزية لفروع الشركات الأميركية في الخارج... «إذا كان بالإمكان العمل عن طريق الشركات الأميركية التي لها نشاطات في الخارج، فإن القسم الأكبر من الشغيلة الإداريين يستطيع البقاء في الولايات المتحدة، والبقاء على اتصال مع المقر الرئيسي للشركات المذكورة، واستخدام وسائل الاتصال التي تملكها هذه الشركات مع فروعها في الخارج ـ وضمنها وسائل الاتصال التي يجب أن تبقى سرية. وفي هذا المجال يجب أن نرى بوضوح الأهداف التي يجب أن نبلغها عن طريق استخدام المؤسسات الخاصة...».

وهكذا فكما يبدو لنا من مقتطفات تقرير اجتماع ٨ كانون الثاني ١٩٦٨، يتبيَّن أن «فلسفة بيسيل» تؤكِّد أولوية «العمل السري» كشكل أساسي ومسيطر على نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية.

وأمام شغف الشقيقين كندي «بالحرب ضد الثورة»، و«بالحرب النفسية» الخ. كان بيسيل ينتظر مستقبلاً باهراً... فقد كتب دوغلاس س. بلوفارد يقول: إن الرئيس «كان يدرك جيِّداً أن عدة أجهزة حكومية كانت مدعوة لأن تلعب دوراً في تنظيم الحرب ضد الثورة، وأنه لم يكن قادراً شخصياً على الإشراف على وضع مبدأ وبرامج متكاملة. وفي آذار من سنة ١٩٦١ ومن أجل دراسة القضية وتحضير الحكومة لهذه المهمة أنشأ مجموعة داخل الوكالة عهد بإدارتها إلى ريتشارد بيسيل...». وفيما بعد يوضح بلوفارد: «لنعد إلى أواسط ١٩٦١. لقد أشرنا إلى أن مجموعات دراسية عديدة حول قضايا تنظيم الرد الأميركي ووضع مبدأ في هذا المجال قد أنشئت، ومن أهمِّها تلك التي أصبح الجميع يسمِّيها في البيت الأبيض «بلجنة بيسيل»...». وأظهر بلوفارد كيف أصبحت «لجنة بيسيل» نواة لمجموعة سياسية ـ عسكرية

جديدة يشرف عليها شقيق الرئيس، روبرت فرانسيس كندي (جهاز أصبح في الواقع مكرَّساً لتعجيل التورّط الأميركي في الفيتنام). ولكن في حديثه عن كل ذلك، كان هناك إسم لم يذكره أبداً بلوفارد، ألا وهو بيسيل بالضبط. إنها « لجنة بيسيل » دون بيسيل! لماذا؟

لأن أحلام بيسيل وآماله كانت قد غرقت في ليل ١٧ - ١٨ نيسان ١٩٦١ في مياه « خليج الخنازير الرمادية »... وأصبح فيما بعد خبيراً مستشاراً... وذلك ليس لأنه لم يحرز انتصاراً كان من المستحيل إحرازه، بل بكل بساطة لأنه لم يحترم القاعدة الذهبية « للعمل السري »: الحصول دائماً على « تكذيب مستساغ » يتيح في حالة الفشل للبيت الأبيض ولوزارة الداخلية إنقاذ ماء الوجه.

وهكذا ففي يوم ١٩ شباط ١٩٦٢ ترك ريتشارد م. بيسيل الإبن رسمياً وكالة الاستخبارات المركزية، حيث عمل لمدة ثلاث سنوات ونصف كنائب المدير في قسم التخطيط. أما أولئك الذين قادوا العمليات السرية أكثر من بيسيل، يأتي في طليعتهم ويسنر (ست سنوات) ثم كراميسين (٥ سنوات و٨ أشهر).

وتوماس كراميسين هو الذي سنخصّص له الآن صورتنا الحادية عشرة.

الفصل الحادي عشر
توماس كراميسين، أو قانون الصمت

حقوقي شاب من أصل يوناني - «كم من الملوك قتلت في الأسبوع الماضي؟» - «آخر نائب للمدير لشؤون التخطيط وأول نائب للمدير لشؤون العمليات» - «رئيس محطة» في روما من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٣ - «الأهداف الصعبة» في العالم الشيوعي - كتاب بترته الرقابة - أمام «لجنة تشرش» - حيث يجري الحديث عن «السبيل الثاني»...

هناك بالفعل صور لا يمكن رسمها؛ ذلك لعدم توفّر العناصر الضرورية لتوضيح الشخصية. لكن القلم ضعيف... وأخيراً سنحاول. ونحاول. ونصل إلى...

نصل إلى هذه العناصر لصورة «توم» كراميسين، الذي مات منذ أكثر من سنتين بعد أن عمل أكثر من ربع قرن في «الشركة» وحيث كان يطلق عليه في أغلب الأحيان إسم «اليوناني». وهي عناصر تركت في حالتها الخام عندما لاحظت أنها غير كافية لتوضيح المراحل الغامضة حيث لا يزال يرقد قسم من الحقيقة حول كراميسين.

أثينا، شتاء ١٩٤٤ - ١٩٤٥. ريتشارد هاريس سميث، مؤرّخ مكتب الاستخبارات الستراتيجية: «... ضبّاط مكتب الاستخبارات الستراتيجية الذين ظلّوا في البلاد، ومن بينهم حقوقي أميركي شاب من أصل يوناني، توماس كراميسين...».

بعد مرور عدة أشهر على ذلك وفي أثينا دائماً. بيار فايان دي فيلماريست، إذن مصدر مشكوك فيه نسبياً. في البداية أشار إلى أن كراميسين كان عضواً في أحد «فرق جودبرغ» ثم يضيف: «إن توماس كراميسين، مسؤول مكتب الاستخبارات الستراتيجية، كان دون شك أحد ضباط دونوفان النادرين الذين اخترقوا الستراتيجية الستالينية...».

لندن، ٣٠ سنة فيما بعد. مقال لغودوفري هودسون في «الصانداي تايمز ماغازين». مقال مكرّس لكورد مير «رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية» في العاصمة البريطانية، وجاء فيه: «عمل مير لتوماس كراميسين الأسطوري(...) الذي هو حسب رأي ستيورات إلسوب بارعاً في هذا المجال والذي «يشبه في واشنطن كثيراً لجايمس بوند!»...».

واشنطن في الخمسينات. وتوماس باورز كاتب سيرة هلمس، هو الذي يروي: « في شهر حزيران سنة ١٩٥٤، عاد توماس كراميسين، أحد قدامى مكتب الاستخبارات الستراتيجية، ومكتب العمليات الخاصة، والذي كان رئيس محطة اليونان إلى « نائب المدير لشؤون التخطيط »، بعدما قضى سنة في المدرسة الحربية. فسأله هلمس ماذا يجب أن يفعل من الآن فصاعداً. فأجابه كراميسين إنني كرّست ٨ أو ٩ سنوات للعمل السري، وإنه من المستحسن أن أعمل بعض الوقت مع المحلّلين والخبراء. فصرخ هلمس: « يا إلهي! يرسلون أشخاصاً مثلك إلى هذه المدارس، وعندما يعودون يحملون معهم مطالب(...) نحن بحاجة لك هنا ... ». إن الذي اعتقده هلمس بأنه سيصبح ذات يوم نائب المدير لشؤون التخطيط، بقي في الجهاز ... ».

دائماً حسب باورز، بعض التفاصيل حول مجرى حياة « اليوناني » في « الوكالة »: « عندما أصبح هلمس في النهاية نائباً للمدير لشؤون التخطيط، طلب أن يكون كراميسين رئيساً للعمليات، في نهاية سنة ١٩٦٢؛ وبقي في هذا المنصب في عهد ديسموند فيتزجيرالد. وبعد وفاة فيتزجيرالد في سنة ١٩٦٧، قام هلمس بتعيين كراميسين نائباً للمدير لشؤون التخطيط. وتقاعد كراميسين عندما أصبح شليسينجر مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية في سنة ١٩٧٣، ومات في أيلول ١٩٧٧ ... ».

من نفس المصدر، بعض التفاصيل عن كيفية إحالته على التقاعد: « أعلن كراميسين استقالته في ٢٢ كانون الأول سنة ١٩٧٢، في نفس اليوم مع هلمس. وترك فعلياً الوكالة في أول آذار، بعد بضعة أيام فقط من تغيير اسم « نائب المدير لشؤون التخطيط » رسمياً إلى « نائب المدير لشؤون العمليات »؛ وهكذا كان كراميسين، في الوقت نفسه، آخر نائب للمدير لشؤون التخطيط، وأول نائب للمدير لشؤون العمليات... وتوفي بعد التقاعد سنة ١٩٧٨ ... ».

نلاحظ أن توماس باورز يؤرّخ وفاة كراميسين في تاريخين مختلفين: الأول في أيلول ١٩٧٧، ثم في ١٩٧٨، دون أي توضيح آخر. ولم نستطع العثور على أي معلومات أخرى تتيح تأكيد أو نفي هذا التاريخ أو ذاك.

برلين ـ الشرقية، ربيع سنة ١٩٧٩. نشرت مجلة « أوريزون » مقالاً حول « الوكالة » يتحدث عن « رئيس وحدة وكالة الاستخبارات المركزية في إيطاليا، توماس كراميسين، الذي أبدل سنة ١٩٦٣، بويليام هارفي ». ثم يضيف: « ويليام كولبي الذي رئس محطة وكالة الاستخبارات المركزية قبل كراميسين... ». وبالفعل فقد عمل كولبي في روما حتى سنة

١٩٥٩، إلاّ أنه لم يرئس أبداً « محطة » العاصمة الإيطالية لأنه عندما غادرها (للذهاب إلى سايغون) فإن رئيس المحطة الذي كان مساعداً له هو جيرالد ميلير. وبالمقابل فإن ما جاء في المقال بصدد « بيل » هارفي يتوافق جيداً مع ما نعرفه. إذن يبدو أن كراميسين كان رئيساً لمحطة روما من سنة ١٩٥٩ إلى ١٩٦٣.

نصل الآن إلى مصادر مباشرة أكثر، إلى بعض الشهادات الصادرة من داخل « الشركة » بالذات. إننا نجدها في مذكرات نشرها كوبلاند في سنة ١٩٧٤، وفيليبس سنة ١٩٧٧، وكولبي سنة ١٩٧٨.

ميلز كوبلاند كان موجزاً جداً وحافظ على لهجة مهنية: « إن اكتشاف التجسس هو في الوقت الراهن مهمّة تخصصية جداً، والضباط المسؤولون عن ذلك في الاجهزة الحكومية هم من كفاءات عالية. فالشهرة التي اكتسبها السير ديك وايت، قبل أن يصبح رئيس المخابرات البريطانية، كانت ترتكز على الأسلوب الذي عالج فيه شؤون مكافحة التجسس. وهكذا كانت حالة توِم كراميسين، الذي بقي حتى سنة ١٩٧٣ نائب المدير لشؤون التخطيط في وكالة الاستخبارات المركزية... ».

إن دايفيد إتلي فيليبس يقدِّم أهم شهادة إذ يعطي تفاصيل حول التصرّف الإنساني ونفسية « اليوناني »، فقد كتب يقول: « إن توم كراميسين كان النائب الجديد للمدير لشؤون التخطيط وهو من أصل يوناني، وقد استقبل ديك ولش أثناء وصوله إلى أثينا. وكراميسين هو شخص يستطيع الإبتسام داخلياً عندما يسمع تكرار الكليشيهات القديمة القائلة بأن الكوادر العليا لوكالة الاستخبارات المركزية لا يمكن إلاّ أن تكون من « البروتستانت البيض ومن أصل أنغلو ـ ساكسوني ». وأصبح على رأس الأجهزة السرية بعد أن شغل مناصب عديدة هامة كرئيس محطة في أوروبا. ويقال إنه استاء جداً عندما ـ بصدد الحديث عن الخبراء في فن فتح وتسكير الرسائل دون ترك أي أثر ـ وصفه أحد الصحفيين بأنه رجل صموع الرسائل والأختام... ».

أما ويليام كولبي وبعد أن أشار إلى « القيمة المهنية لكراميسين، وإدارته الحذرة للعمليات السرية وأمانته الكاملة لهلمس... وبعد أن أصرَّ على واقع أنه « ترك الوكالة إثر هلمس »، أوضح أنه عندما خلفه في منصب « نائب المدير لشؤون العمليات » ألحَّ على « ضمان استمرار عمل الإدارة في نفس النهج لكراميسين. إذ أعطى الأفضلية « للأهداف الصعبة » في العالم الشيوعي وشدّد على الأساليب « المهنية الصرفة »... ».

ولا حاجة للقول إن خلال حياته الطويلة في العمل والتي كرّست كلها « للعمل

السري »، استطاع كراميسين أن لا يكشف سره أبداً، وأن لا يظهر بتاتاً في العلن. بيد أنه أرغم في مطلع السبعينات، ولمرتين، على الظهور علناً. الأولى بمناسبة محاكمة، ثم عندما استدعي كشاهد من قبل لجنة تحقيق مجلس الشيوخ برئاسة عضو المجلس فرانك تشرش.

حصلت المحاكمة في ربيع سنة ١٩٧٢. ووكالة الاستخبارات كانت المدَّعية و« المتهم » كان فكتور مارشتي، الذي حاولت « الشركة » منعه من إصدار الكتاب الذي كتبه مع جون ماركس. وفي النهاية صدر الكتاب مبتوراً إذ أُخضع للمراقبة وحذفت منه مقاطع فاق عددها الـ ١٦٠ مقطعاً...

وأثناء المحاكمة ضد مارشتي استطاع توماس كراميسين أن يفرض جزئياً قانون الصمت، الضروري جداً بالنسبة لوكالة الاستخبارات المركزية من أجل المحافظة على أسرارها، وأنه على الرغم من بعض الفشل البارز، لم يتراجع، بل على العكس، أسكت أولئك الذين يريدون قول الحقيقة حول هذا الموضوع. ولكن بعد مرور ثلاث سنوات على ذلك، وجد كراميسين نفسه في وضع، كان بشكل من الأشكال، على عكس الوضع الذي شهده أمام المحكمة الاتحادية. وبالفعل فعندما مثل مع هلمس في مجلس الشيوخ أمام « لجنة تشرش »، فإن ممثلي السلطة التشريعية هم الذين طلبوا منه باسم القانون أن يتخلَّى جزئياً عن قانون الصمت. نحن نعرف أن هلمس وكراميسين كانت تربط بينهما صداقة وثيقة، لكننا لا نعرف ما إذا كان « النائب السابق للمدير لشؤون التخطيط » قد عرف بداخله، نفس المعضلات التي عرفها « المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية ». إن كل ما نستطيع معرفته، مأخوذ من محاضر اللجنة وكذلك من المقالات التي نشرت في ذلك الحين في الصحافة الأميركية، وهو الأسلوب الذي أجاب به « اليوناني » على الأسئلة التي طرحها عليه أعضاء مجلس الشيوخ. إنه لم يكن بالطبع أسلوب كولبي، كما إنه على الرغم مما قيل في تلك الحقبة، في الصحف، لم يكن مماثلاً أيضاً لأسلوب هلمس...

على الصعيد النفسي، لوحظ أن كراميسين لم يقع في حيرة أمام الأسئلة التي طرحت عليه. والإثبات، هذه الأجوبة المتبادلة بين فرانك تشرش وبينه في ١٧ أيلول ١٩٧٥، أي خلال الجلسة التي كرست لمخزون السمّ القوي جداً الموجود لدى « الشركة ». ففي لحظة أثناء النقاش سأل تشرش كراميسين إذا لم « يصدمه » هذا الأمر. كان الجواب: « ليس من السهل أن أصدم، يا سيدي! ». فردّ تشرش: « ظاهرياً لا ... ».

سياسياً، كان وضع كراميسين أمام أعضاء مجلس الشيوخ أكثر تعقيداً لأنه أدلى فجأة ببيان رئيسي. وهنا نأخذ من التقرير هذا المقطع من اعتراف كراميسين: « إنني على اقتناع بأن

البذور التي زرعناها في الماضي، بجهودنا سنة ١٩٧٠ أثمرت سنة ١٩٧٣. ولا يساورني أي شك في هذا الصدد(...). وفيما يتعلّق بالسبيل الثاني، فإنه لم يجر التخلّي عنه في الحقيقة بتاتاً. إن ما قيل لنا أن نفعله في هذا المجال هو... ألليندي كان رئيساً. ومهمة السبيل الثاني كانت لمنعه أن يصبح رئيساً، لذا جرى تخطيها تقنياً، لأن الأمر أصبح واقعاً. لكن قيل لنا أن نواصل جهودنا وأن نبقى في حالة استعداد من أجل أن نفعل ما هو في مقدورنا حتى نبلغ في النهاية الأهداف الأساسية للسبيل الثاني. وفي هذه الظروف أعتقد أن حالة السبيل الثاني إلى الحفظ لم يكن صحيحاً...».

وعلى هذا النحو فإننا لن نعرف المزيد عن توماس كراميسين. فقد كتب دايفيد ويز يقول: «لم يسبق أبداً أن شوهد توم ك. كما كان يسمّى داخل وكالة الاستخبارات المركزية، في العلن؛ لقد كان أحد الأشخاص الأكثر غموضاً من الموظفين «السود» أي السريين في وكالة الاستخبارات المركزية ولن نعرف عنه المزيد.

الفصل الثاني عشر
هوارد هانت أو المؤلف المجهول

« جاسوس على الرغم من أنفه » ؟ - حيث نجد « سوبرماكس » - الأخوان ماركس في ووترغيت . . . - قهر خوف الموت واستقبال موت الخوف » - نيكسون ؟ « رفع رأسه دون جواب » . . .

نتيجة لعدم توفّر العناصر الكافية لم نستطع رسم الصورة الحادية عشرة بوضوح ، ولكن ما إن شرعنا برسم الصورة الثانية عشرة وجدنا نفسنا أمام فيض من التفاصيل المبهمة . إن فضيحة ووترغيت لم ترغم أفيريت هوارد هانت على الظهور مكشوف الوجه فحسب أمام أعضاء مجلس الشيوخ ، بل جعلت منه لعدة أشهر شخصاً يقف في واجهة المسرح وأمام الأضواء المبهرة للفضيحة السياسية . ولمدة طويلة نشرت في الصحف وعلى صفحات الكتب مواد كثيرة ، ولم يعد من السهل الآن تبرئة من وصفه ناشر مذكراته بأنه « أشهر جاسوس في أميركا » ، في حين أن الصحفي الذي كرّس له كتاباً بأكمله قال العكس : « كلاًّ ، جاسوس على الرغم من أنفه » .

نلاحظ ذلك مثلاً لدى مطالعة سيرته التي كتبها دايفيد أنطونيل : « ولد أفيريت هوارد هانت الإبن في ٩ تشرين الأول ١٩١٨ ، في هامبورغ من ولاية نيويورك ، وهو الإبن الوحيد للقاضي أفيريت هوارد هانت . تخرَّج سنة ١٩٤٠ من جامعة براون ، ثم التحق هانت بالبحرية قبل أن تدخل الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية . وسُرِّح بعد حادث في البحر ، وبعد مرور سنتين على ذلك ، عمل كواضع سيناريو في السينما وكمراسل حربي لمجلة « لايف » . وفي سنة ١٩٤٣ دخل إلى مكتب الاستخبارات الستراتيجية(...) . وبقي في مركزه في فلوريدا وفي جنوب الصين حتى نهاية الحرب . وبعد حصوله على منحة من مؤسسة غوغينهايم سنة ١٩٤٦ ، أمضى سنة لتعلّم اللغة الإسبانية في المكسيك . وبعد ٣ سنوات من ذلك دخل إلى وكالة الاستخبارات المركزية . وأقام في باريس ، وفي فيينا ، وأميركا اللاتينية ، حيث تكوّنت لديه العناصر لكتابة عدة روايات عن التجسس . والده كان قاضياً في ميامي ، وأثناء الدراسة ذهب هانت إلى هافانا . وفي سنة ١٩٦٠ ، عاد إليها لحساب وكالة الاستخبارات المركزية وغادرها

مقتنعاً بأن الحل الوحيد هو اغتيال فيدل كاسترو. وهو يعتز بكونه أحد الأوائل الذين طوّروا هذه الفكرة داخل الوكالة...».

أما جوناثان شيل فيقول: «هانت هو مزيج من المواهب غير العادية. فقد عمل كعضو في وكالة الاستخبارات المركزية، ولديه خبرة محترف في العلاقات السياسية، وكان مؤلّفاً لروايات عن التجسس...».

إن دايفيد إتلي فيليبس من جانبه، الذي عرف هانت جيداً إذ عمل معه في عملية الإطاحة بأربينيز في غواتيمالا، ثم في قضية «خليج الخنازير» فيصفه خارجياً إذ يقول إنه كان دائم الأناقة... إلاّ أن فيليبس لم يقدّم بصورة خاصة مقارنة جذّابة بين هانت وقرينه جيري درولير، المعروف بفرانك بندير، الذي كان قد كُلِّف على غرار هانت في سنة ١٩٦١ بتجنيد المهاجرين المعادين لكاسترو خلال التحضير لمحاولة غزو كوبا. ويقول فيليبس «إن هانت وبندير كانا مختلفين عن بعضهما. فبندير كان(...) ألمانياً قاتل ضد هتلر واكتسب بعض الشهرة في مكتب الاستخبارات الستراتيجية، لعمله وراء الخطوط، في فرنسا، كمنظّم لمجموعات المقاومة. سياسياً كان ليبيرالياً تتعارض أفكاره مع تصلّب هانت المحافظ(...). بندير كان ثرثاراً ويمزج في كلامه بين النكات الطويلة والخطب الموجزة. أما هانت فكانت لديه لغة الكاتب وأسلوبه في الكلام، اتسم بمرورة في الجامعة...». ومن جهة أخرى، يضيف فيليبس قائلاً إنه في حين «كان هانت يقوم برحلات مكوكية بين ميامي وواشنطن من أجل التباحث مع السياسيين المنفيين، كان بندير يتآمر مع المهاجرين الآخرين».

لقد شغل هوارد هانت في الخمسينات ومطلع الستينات، مناصب ومهمات لا يمكن وصفها بأنها كانت «من الأعمال التي لا أهمية لها»... كان مسؤولاً لمكتب التنسيق السياسي في مكنسيكو، ثم عاد إليها فيما بعد لتأسيس مجلة «كوبية» باسم «مامبي». ثم عمل في طوكيو. وأصبح رئيساً «لمحطة وكالة الاستخبارات المركزية» في مونتيفيديو. ويجري التأكيد على أنه شارك في اغتيال تروخيليو. كما يذكره أحد اختصاصيي «الحرب النفسية» البروفسور بول لينبارغر، من جامعة جون هوبكين إنه كان مع إدوارد ج. لانسدال، أحد أفضل اختصاصيين في «الدعاية السوداء» التي يكمن أحد أشكالها في ترويج «التزويرات» الخ...

أما دايفيد ويز فيقول إن «هوارد هانت، إذا ما صدّقنا الرواية الرسمية، انسحب من وكالة الاستخبارات المركزية في نيسان ١٩٧٠. ومن أجل الحصول على عمل جديد، توجه بطلب إلى «مكتب التوظيف» التابع «للشركة»، ومن مسؤوليه، فرانسيس أ. أومالي، الذي سهّل له الدخول إلى «روبرت ر. مولين كومباني». وظاهرياً، كان ريتشارد هلمس قد اهتم

بذلك بعض الشيء. لكن هانت تسلّم الوظيفة الجديدة؛ إذ أن « مولين كومباني » هي مجرَّد غطاء لوكالة الاستخبارات المركزية... ».

للوهلة الأولى، عندما يتدخّل مدير وكالة الاستخبارات المركزية لتسهيل إيجاد وظيفة لأحد مساعديه السابقين ـ وفي شركة تستخدم « كغطاء » ـ يبدو ذلك بمثابة أمر طبيعي. ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار الدور البارز الذي لعبه هذا المساعد في الأحداث اللاحقة، نغرق في النقاش حول معرفة ما إذا كان « ديك » هلمس (أو لا) قد كتب رسالة توصية « لهوي » هانت. المرسِل والمرسَل إليه يقولان في البداية نعم، ثم يؤكدان فيما بعد أن هذا الأمر لم يحصل... ومن خلال هذه الرسالة (التي يبدو أنها كتبت) تطرح قضية العطف الخاص الذي أبداه هلمس دائماً تجاه هانت. العطف والدماثة حسب البعض. والضعف حسب البعض الآخر. إن مدير وكالة الاستخبارات المركزية عندما يقدِّم إلى زوّاره روايات « روبرت ديتريخ » أو « دايفيد سان جون » (من الأسماء المستعارة لهانت) هذا يعني أنه كان يرفض الاستماع لكلّ من جاءه متذمِّراً من تصرُّف الكاتب الروائي. ويقول توماس باورز أيضاً إن هناك أناساً في لانغلي يأسفون لأن رئيسهم « أعطى في أربع مناسبات لخيارات ثانية » أمام هانت. وهكذا فإن الاستنتاج لا يمكن اعتباره بمثابة تفسير، وباورز يعرف ذلك جيداً، إذ كتب يقول: « التقى هلمس للمرة الأولى بهانت سنة ١٩٥٦، عندما كان في طريقه عبر واشنطن لتسلّم منصبه الجديد كرئيس « للمحطة » في الأورغواي. وخلال الـ ١٤ سنة التالية، التقى الرجلان في مناسبات مختلفة، إلاّ أن هانت كان يعتبر هلمس كصديق، وقد طلب أكثر من مرة مساعدته(...). وليس من السهل تفسير إعجاب هانت هذا بهلمس. داخل وكالة الاستخبارات المركزية، كان هلمس وهانت متحدِّرين من تقاليد مختلفة نوعاً ما، وكذلك آراءهما السياسية. فهانت كان رجلاً نشيطاً ويمينياً، في حين أن هلمس كان موظفاً، من الذين تعلّموا في الخارج، ومعتدلاً سياسياً... ». ليس من السهل تفسير ذلك، على حد قول باورز. وهو لم يفسر... لكنه يشدِّد على نقطة جديرة بالاهتمام: الجهود المتواصلة التي بذلها هلمس فيما بعد لعدم إعلان العلاقات التي بقيت قائمة بين هانت و« الشركة » بعد أن تركها رسمياً.

تعود هذه الاستقالة (الشكلية) إلى ربيع سنة ١٩٧٠؛ إذن لما قبل سنتين عندما وجد أفيريت هوارد هانت نفسه نجم الأحداث. وأية أحداث... توجز إحدى الصحف على النحو التالي الحادث الذي حصل في ١٧ حزيران ١٩٧٢: « اعتقلت الشرطة خمسة أشخاص بعد أن دخلوا خلسة إلى مبنى ووترغيت، حيث كان الحزب الديمقراطي قد أنشأ مقر حملته الانتخابية. وفي مفكرة أحدهم وجد إسم هوارد هانت « مستشار » البيت الأبيض... ».

إن وجود إسم هوارد هانت في مفكرة أحد اللصوص المعتقلين في ووترغيت، هو الحلقة الأولى من سلسلة حلقات. في البداية سلسلة مفاجآت.

ففي ١٧ حزيران كان هانت يشرف بواسطة اللاسلكي، على العملية التي يديرها على الأرض جيمس والتر ماك كورد. وبغض النظر عن الملاحقات القضائية التي تعرَّض لها، ها هو قد استدعي بعد مرور أقل من سنة للمثول أمام لجنة التحقيق التي رئسها عضو مجلس الشيوخ من كارولينا الشمالية، سام إيرفين. ومن الصحفيين الذين حضروا الجلسة، بيار سالينجر، وهنري دي تورين اللذان كتبا مقالاً بتوقيعهما جاء فيه: «يوم الجمعة كان شاهد بارز هو جيمس ماك كورد؛ إنه هو الذي فجَّر كل القضية. كان رئيس المجموعة التي دخلت خلسة إلى ووترغيت، كولونيل في القوات الجوية، وحائز على إجازة من جامعة تكساس. وعمل لمدة تسع عشرة سنة في وكالة الاستخبارات المركزية. اختصاصه: الإلكترونيك: «كيف يستطيع رجل مثلك القيام بمثل هذه الأمور؟». السؤال يطرحه عضو مجلس الشيوخ دانيال إينوي...». في نفس المقال، وتحت صورة لماك كورد كتب سالينجر ودي تورين الكلمات التالية: «كبير الاعتبار لدى آلن دالس إذ كان يسميه «أفضل رجاله»...». فهل هناك حاجة للتشديد على هذا التناقض بين هذا التقييم لدالس والشكل الذي تصرَّف به على الأرض؟ في سنة ١٩٧٤ نشر ميلر كوبلاند كتاباً تحدَّث فيه عن الذكريات الشخصية وعن دراسة تقنيات التجسس الحديث، جاء فيه: «ذكَّرتُ «مازر» (في الحقيقة جايمس انغلتون) بالأيام السالفة في مدرسة مكتب العمليات الخاصة حيث رفض في امتحان التخرُّج متمرِّناً تقنياً لأنه لم يستطع الدخول معصوب العينين إلى غرفة، ويضع فيها جهاز تنصّت في أقل من دقيقة واحدة. في تلك الحقبة كان المطلوب أنه عندما يدخل أي تقني إلى غرفة لوضع جهاز تنصّت، عليه أن يترك أحد المراقبين في الخارج. أما في ووترغيت، فإن جيم ماك كورد، الذي خضع لمثل هذا التدريب وكان يعرف الأسلوب، دخل إلى مقر الديمقراطيين مع كل مجموعته دون أن يترك أي مراقب في الخارج». وسألت «مازر» ماذا حصل في ووترغيت فكان جوابه: «لنتحدَّث عن أمور أخرى...».

مع التشديد على أن أنغلتون يفضِّل «الحديث عن أمور أخرى»، نشير إلى التناقض الفعلي بين مقدرة الذين دخلوا خلسة إلى ووترغيت وبين العجز الذي أظهروه بشكل طريف.

لكن قبل استباق الأمور... والوصول إلى نتيجة، نعود إلى هوارد هانت عبر ووترغيت... فقد كتب آلن كليمان بهذا الصدد يقول: «إن الدخول عن طريق الكسر والخلع إلى مكاتب اللجنة الانتخابية الديمقراطية، في ١٧ حزيران ١٩٧٢ لم يكن (...) مجرَّدَ «مخالفة»

منعزلة. فإذا ما عدنا إلى المصادر نجد أنفسنا في بيت أبيض تحوّل إلى مركز للاستخبارات و« العمليات » الخاصة جداً استبعدت فيها الأجهزة السرية المحترفة (الشرطة الاتحادية ووكالة الاستخبارات المركزية). وفي جو من « السرية » غير المعلّلة، كانت تحاك على بعد أمتار من نيكسون « مشاريع » هدفها التجسس على المعارضة الشرعية وخنقها. إن « ووترغيت » لم تكن مجرّد عملية سطو سياسي فاشلة...». إن أبطال « الضربات القوية » أرادوا الدخول في التاريخ تحت إسم « سمكرية البيت الأبيض ». ويقول دايفيد آتلي فيليبس: « أطلق عليهم هذا الإسم لأنهم قد حاولوا سد الثغرات التي تتسرّب منها المعلومات إلى الصحافة ». ويوضح دايفيد آتلي فيليبس أيضاً: « في لغة وكالة الاستخبارات المركزية تعني كلمة « سمكري » مقدّرات الدعم العملانية التي يجب توفيرها قبل كل عملية مهما كانت أهميتها ».

سدّ الثغرات، أجل هذا هو السبب الأول لوجود ـ سبب إنشاء ـ هذه « الأجهزة الخاصة » المصغّرة النيكسونية التي ساهمت مآثرها إلى حد كبير في الفضيحة السياسية والتي كانت دون شك الأكبر في هذا القرن. إن أقرب مستشاري نيكسون الذي كان مكلّفاً بالإشراف عليها، شارلز و. كولسون، والمعروف « برجل كلّ المهمّات » في البيت الأبيض. قال بصددها: « أثناء اجتماع بين هالدمان وبيني، في ساعة متأخّرة بدت على نيكسون أول إشارات التوتّر الشخصي. وقال غاضباً بعد أن ضرب المكتب بقبضته، أريد وقف هذه التسريبات. لا تفتّشوا عن مخرج، استخدموا كل الوسائل. بوب لديك رجل يستطيع أن يفعل ذلك؟ أريد نتائج وفي الحال »(...). الرجل الذي كان يقصده نيكسون للتشهير بآلسبرغ هو عميل سابق لوكالة الاستخبارات المركزية إسمه أ. هوارد هانت. إنه الرجل المثالي. إنه يعرف السياسة الخارجية، ومحافظ أصيل، أمانته تصل إلى حدود التعصب، لقد عملت معه على « حل ؟؟ » القضايا المتعلّقة بالحائزين على شهادات من جامعة براون. إن إسم هانت لم يكن الأخير على لائحة مؤلّفة من ستة مرشحين كنت سلّمتها إلى هالدمان؛ الخمسة الآخرون إما لم يلتحقوا، أو تبيّن أنهم عاجزون. امتحن هانت بسرعة من قبل الريخان ووُظّف كخبير ـ مستشار غير دائم بمعاش يبلغ مئة دولار في اليوم. وعندما سلّمته مكتباً صغيراً في ركن من الطابق الثاني في مبنى الحكومة، لم تراودني أية شكوك مطلقاً بالدور المهم الذي سيلعبه(...).

وبسرعة حصل « السمكرية » على مقر لهم في طوابق ما تحت الأرض في البيت الأبيض... ويقول تيودور هـ. وايت: « خرج البروفسور آلن من قاعة الرياضة وصعد إلى الطابق الأرضي عندما لاحظ على باب المكتب « ١٦ » شارة زرقاء تحمل فقط كلمة « سمكري ». فدفع الباب، لأن هذه الشارة كانت جديدة، فوجد وراء المكتب دايفيد يونغ.

فأراد آلن أن يعرف مغزى الشارة فأجابه يونغ مبتسماً: «إنني سمكري، وأقوم بإصلاح المسارب. أيعجبك هذا؟؟». الغرفة كانت خالية إلاَّ من مجموعة لمجلة «فورينغ أفيرز» وبعض الكتب. ولاحظ آلن أن رجلاً يراقبه بقلق؛ فاعتقد أنه حارس مدني مكلَّف بالسهر على سلامة الوثائق السرية. وقدم إليه الرجل باسم غوردون ليدي، وذهب آلن وهو يتساءل: «يا إلهي، ماذا يصنعون؟». لكنه في شهر آب، أصبح قليلاً عدد الغرباء الذين يدخلون إلى المكتب «١٦»...». إن جورج غوردون ليدي الذي شاهده البروفسور آلن في مكاتب «السمكرية» كان من الذين أمضوا أطول مدة في السجن بعد محاكمات ووترغيت. وكان آخر من نشر مذكراته. ويقول ميشال فور، في هذا الكتاب يصف ليدي: «بالتفصيل كل أنواع مؤامرات أعضاء عصابة البيت الأبيض إن رجال نيكسون كانوا قد أزمعوا على اغتيال الصحفي جاك أندرسون وتخدير دانيال آلسبرغ(...). وقد درسوا وسائل اختطاف زعماء مظاهرات الديمقراطيين، وتخريب أجهزة التبريد في مقر الحزب الديمقراطي(...). وفي سبيل خدمة نيكسون كان غوردون لا يعرف الشفقة مع أعداء سيِّده. إنه يريد قتل الصحفي جاك أندرسون، لأنه، حسبما يعتقد، احرج بمقالاته عميلاً سرياً في الخارج. وقال: «سأفعل ذلك بنفسي إذا ما دعت الحاجة»؛ كما أنه كان يريد وضع مخدِّر في حساء آلسبرغ، قبل أن يقوم هذا الأخير بإلقاء خطاب بعد وليمة في واشنطن...». من الـ ٥٢ شهراً التي أمضاها غوردون ليدي في السجن احتفظ ببعض النوم، لأنه لم يستغل الوضع لقتل هوارد هانت. إن اللوم الذي يوجِّهه ليدي إلى هانت هو قبوله بالتعاون مع السلطات القضائية والبرلمانية في إطار التحقيق العام حول ووترغيت. ويجب القول إن ليدي رفض دائماً قسم اليمين والإجابة على معظم الأسئلة التي كانت تطرح عليه. وكتب يقول: «كنت أعتقد أنه من الممكن أن أتلقَّى في أي وقت الأوامر من أجل إسكات هانت(...). وانتظر (ولكن) بما أن الرسالة لم تصل، بقي هانت على قيد الحياة...».

في الواقع كان جورج غوردون براون يتوقَّع تماما. ويمكن القول إنه خطَّط لقتل أفيريت هوارد هانت. وقد اتخذ ليدي كل الإجراءات الضرورية من أجل أن يغتال هانت بكل هدوء في السجن حيث كانا معتقلين في نفس المكان. إلاَّ أنه لم يفعل. كان قادراً على ذلك، ولم يفعله. لماذا؟ يقول: لأنه لم يتلقَّ الأوامر التي كان ينتظرها؛ أوامر من أين؟ هذا، ما لم يقله. ونحن بالطبع لا نستطيع أن نقوله بدلاً منه. بيد أن ما يمكن أن نفهمه، هو لماذا اعتقد ليدي بأنه سيتلقَّى من الخارج أوامر لقتل هانت...

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الصمت الذي التزمه المعنيون الأساسيون فإننا لا نستطيع

هنا الحسم، سلباً أم إيجاباً... إن كل ما نستطيع أن نفعله هو تقديم بعض العناصر التي تفسح المجال للتفكير، وتتيح أيضاً الصعود درجة، وتمحيص السؤال بطرحه على مستوى «الشركة» كمؤسسة. سؤال خال من أي التباس: هل أن وكالة الاستخبارات المركزية هي التي أثارت فضيحة ووترغيت من أجل التخلّص من أخطار يشكّلها رئيس يكنّ لها كل الحقد؟

والآن بعض عناصر الجواب...

على غلاف الكتاب الذي كرّسه هوارد هانت «لخليج الخنازير» هناك مقتطف موجز لحديث له مع «بيل» بوكلي. «هل من الصحيح القول، يسأل بوكلي، إنك والذين عملوا معك في قضية ووترغيت، قد شرعتم بالعملية بنفس الروح كما لو كان الأمر يتعلّق بعملية لوكالة الاستخبارات المركزية؟». كان جواب هانت: «نعم...».

وقال «بوب» هالدمان في مذكراته ما يمكن إيجازه بالجملة التالية: «نظرية شرك وكالة الاستخبارات المركزية توحي بأن «عصبة الاستخبارات» نظّمت عملية السلب من أجل إرباك الرئيس الذي كانت تخافه...».

وفي مجلة «رولينغ ستون» كتب هوارد كوهن في سنة ١٩٧٨ يقول: «إن الدور الذي لعبه هانت في البيت الأبيض أصبح منذ ذلك الحين موضوعاً لمختلف المجادلات. فقد انتهى تشارلز كولسون إلى التفكير بأن هانت كان عميلاً مزدوجاً، أرسلته وكالة الاستخبارات لمراقبة الرئيس، والحصول على وسائل إبتزاز محتملة. إنني على اقتناع أن هانت كان أداة لوكالة الاستخبارات المركزية، وأنه لم يعمل بالصدفة في شركة مولين. إن ديك هلمس هو الذي أرسله إلى هناك. فخلال كل المدة التي عمل فيها لدى مولين كان هانت يقدّم تقارير أسبوعية إلى وكالة الاستخبارات المركزية.

إن تشارلز و. كولسون بالضبط هو الذي يتحدّث في مذكراته عن وجود «ملفات»... لنستمع إليه: «ذات يوم، تلقيت مخابرة هاتفية للمجيء إلى البيت الأبيض، والإطّلاع على ملفّات حول تورّط وكالة الاستخبارات المركزية في فضيحة ووترغيت. وقد أسرّ لي أحد معاوني الرئيس وهو يعطيني ملفّين كبيرين: «سيطردونني إذا علموا أنني أطلعتك عليهما». بقيت هناك ساعتين. وكان من الواضح أن هوارد هانت كان يعمل لحساب شركة روبرت ر. مولين وشركاه، التي كانت تعمل ظاهرياً في واشنطن كوكالة دعائية، ولكنها في الواقع كانت «غطاءً» لوكالة الاستخبارات المركزية. إن كل نشاطات هانت كانت تحت إشراف وكالة الاستخبارات المركزية، التي بدت متورّطة بووترغيت(...).

وهكذا ننتهي مع الصورة الثانية عشرة بشعور أننا لم نستطع التعرّف جيداً على ما يدور في « الشركة » وحول رجالاتها ، لأننا عجزنا عن بتٍّ أي نقطة حاسمة في تاريخها .

هل نعزّي أنفسنا بالتفكير مرة أخرى بأفيريت هوارد هانت؟ هو الذي يعرف ، وما زال صامتاً ، رابطاً صمته بصمت هلمس .

ACCOCE Pierre, CIAMPI Yves et DEWEVER Jean, *Le monde parallèle ou la vérité sur l'espionnage,* Ed. Fayard et Chantrel (1968).

ACCOCE Pierre et POUGET Jean-Daniel, *Le réseau Caraman ; treize Roumains font trembler l'O.T.A.N.,* Ed. Fayard (1972).

Affaire Rajk (L'), compte rendu sténographique complet des séances du Tribunal du Peuple à Budapest du 16 au 24 septembre 1949. Les Editeurs Français Réunis (1949).

AGEE Philip et WOLF Louis, *Dirty Work ; The CIA in Western Europe,* Ed. Lyle Stuart Inc. (Secaucus, News Jersey, 1978).

AGEE Philip, *Inside the Company : C.I.A. Diary,* Ed. Penguin Books (1975). Traduction française : *Journal d'un agent secret ; Dix ans dans la C.I.A.,* Ed. du Seuil (1976)).

ALCORN Robert Hayden, *No Bugle for Spies, Tales of the O.S.S.,* Ed. D. Mac Kay (New York, 1962). Traduction française : *Pas de fanfares pour les espions,* Ed. Robert Laffont (1963).

ALEM Jean-Pierre, *L'espionnage à travers les âges,* Ed. Stock (1977).

ALLEG Henri, *Victorieuse Cuba ; De la guérilla au socialisme,* Ed. de Minuit « Alger Républicain » (Alger, 1963).

ALLIX André, GUILLIEN Raymond, LAMBERT Jacques et PELLOUX Robert, *Les fondements de la politique extérieure des Etats-Unis,* Cahiers de la Fondation nationale des Sciences politiques, n°8, Ed. Armand Colin (1949).

ALSOP Stewart et BRADEN Thomas, *Sub rosa ; The O.S.S. and American espionage,* Ed. The Cornell Press (New York, 1964). Traduction française : *L'O.S.S., l'Amérique et l'espionnage.* Ed. Fayard (1964).

ANALIS Dimitri T., *Chypre, Opération Attila,* Ed. Anthropos (1978).

Anticolonialisme, L'Antiféodalisme, et L'Anticommunisme au Sud Vietnam (L'), Editions en Langues Etrangères (Hanoï, 1956).

ARENAS Jaime, *La guerrilla por dentro,* Ediciones Tercer Mundo (1971). Traduction française : *Dans la guérilla,* Ed. Calmann-Lévy (1972).

ARON Raymond, BONDY François, KENNAN George, LUTHY Herbert, NARAYAN Jayaprakash, SCHLESINGER Jr. Arthur, SCHMID Carlo et les autres, *La Démocratie à l'épreuve du XX^e^ siècle* (Colloques de Berlin), Ed. Calmann-Lévy (1960).

ARRAES Miguel, *Le Brésil, le pouvoir et le peuple,* traduit du brésilien, Ed. François Maspero (1969).

ARTAUD Denise, BENICHI Régis et VAISSE Maurice, *Lexique historique des Etats-Unis au XX^e^ siècle,* Ed. Armand Colin (1978).

AYERS Bradley Earl, *The War that never was ; An insider's Account of C.I.A. Covert Operations against Cuba,* Ed. The Bobbs-Merrill Co. Inc.(Indianapolis, New York, 1976).

BAILEY Geoffrey, *The Conspirators,* Ed. Harper & Brothers (New York, 1960). Traduction française : *La guerre des services secrets soviétiques,* Ed. Plon (1960 et 1962).

BANDKE Reinhardt, *CIA von A-Z,* chez l'auteur (D-5800 Hagen/RFA, s.d.).

BARRON John, *KGB*, Ed. Reader's Digest Press (1974). Traduction française : *KGB, le travail occulte des agents secrets soviétiques*, Ed. Elsevier Séquoïa (Paris, Bruxelles, 1975).

BAR-ZOHAR Michel, *J'ai risqué ma vie ; Isser Harel, le n° 1 des services secrets israéliens*, Ed. Fayard (1971).

BEAUFRE Général André, *La guerre révolutionnaire ; les formes nouvelles de la guerre*, Ed. Fayard (1972).

BEHR Edward, *Is There Anybody Here Who Was Raped and Who Speaks English ?* Traduction française : *Y a-t-il ici quelqu'un qui a été violé et qui parle anglais ?* Ed. Robert Laffont (1978).

B.E.I.P.I. (EST & OUEST), Octobre 1956 ; *Le peuple hongrois contre le communisme*, Bulletin de l'Association d'Etudes et d'Informations Politiques Internationales — n° spécial (Paris, 16 octobre 1957).

BERGIER Jacques, *L'espionnage industriel*, Ed. Hachette (1969).

BERGIER Jacques, *L'espionnage politique, des tables d'écoute au chantage*, Ed. Albin Michel (1973).

BERGIER Jacques et DELABAN Jean-Philippe, *L'espionnage stratégique*, Ed. Hachette (1973).

BERGIER Jacques et ALEXANDROV Victor, *Guerre secrète sous les océans*, Ed. Maritimes et d'Outremer (Paris, 1970).

BERGOT Erwan, *Les héros oubliés*, Ed. Grasset (1975).

BERIOT Louis, *L'invasion ; De l'espionnage économique à celui de la vie privée*, Ed. Albin Michel (1971).

BERMAN Jerry J. et HALPERIN Morton H., *The Abuses of the Intelligence Agencies*, Ed. The Center for National Security Studies (Washington, 1975).

BERNSTEIN Carl et WOODWARD Bob, *All the President's Men*, Ed. Simon & Schuster (New York, 1974). Traduction française : *Watergate, les Fous du Président*, Ed. Robert Laffont (1974).

BERNSTEIN Carl et WOODWARD Bob, *The Final Days*, Ed. Simon & Schuster (New York, 1976). Traduction française : *Les derniers jours de Nixon*, Ed. Robert Laffont (1976).

BERRIER Hilaire du, *L'échec américain au Vietnam vu par un Américain*, Ed. de la Table Ronde (1965).

BLAUFARB Douglas S., *The Counterinsurgency Era : U.S. Doctrine and Performance*, Ed. The Free Press ; A Division of Macmillan Publishing Co. Inc. (New York, 1977).

BOND Mary Wickham, *How 007 Got his Name*, Ed. Collins (Londres). Traduction française : *Comment 007 chipa son nom*, Les Editeurs Français Réunis (1967).

BONNET Gabriel, *Les guerres insurrectionnelles et révolutionnaires de l'Antiquité à nos jours*, Ed. Payot (1958).

BOROSAGE Robert et MACY Christy, *CIA's Covert Operations versus Human Rights*, Ed. Center for National Security Studies (Washington, 1978).

BOROSAGE Robert L. et MARKS John, *The CIA File*, Ed. Grossman Publishers ; a division of the Viking Press (New York, 1976).

BOSCH Juan, *Le Pentagonisme*, traduit de l'espagnol, Ed. du Seuil (1969).

BOURCART Jean Rodolphe Daniel, *L'espionnage soviétique*, Ed. Fayard (1962).

BOWART Walter, *Operation Mind Control*, Ed. Dell Publishing Co. Inc., (New York, 1978), Ed. Fontana/Collins (Glasgow, 1978). Traduction française : *Opération Mind Control*, Ed. Grasset (1979).

BUCHHEIT Gert, *Die anonyme Macht : Aufgaben, Methoden, Erfahrungen der Geheimdienste*, Ed. Akademische Verlagsgesellschaft "Athenaion" (Francfort-sur-le-Main). Traduction française : *Secrets des services secrets ; Missions, méthodes, expériences*, Ed. Arthaud (1974).

BUCHHEIT Gert, *Der deutsche Geheimdienst ; Geschichte der militärischen Abwehr,* Ed. Paul List Verlag (Munich, 1966).
BURCHETT Wilfred et ROEBUCK Derek, *Les putains de l'impérialisme ; les mercenaires en Afrique,* traduit de l'anglais, Ed. François Maspero (1977).
BURNHAM James, *The Coming Defeat of Communism.* (1949). Traduction française : *Pour vaincre l'impérialisme soviétique.* Ed. Calmann-Lévy (1950)
BURNHAM James, *The Struggle for the World.* Traduction française : *Pour la domination mondiale,* Ed. Calmann-Lévy (1947).
CAROZ Yaacov, *The Arab Intelligence Networks.* Traduction française : *Moukhabarat, les services secrets arabes,* Editions internationales Alain Stanké (Québec, 1978).
CATER Douglass, *Power in Washington,* Ed. Random House (New York, 1964). Traduction française : *Qui gouverne à Washington,* Ed. du Seuil (1964).
CHALIAND Gérard, *Stratégies de la guérilla, Guerres révolutionnaires et contre-insurrections, Anthologie historique de la Longue Marche à nos jours,* Ed. Mazarine (Paris, 1979).
CHAMBARD Claude, *Histoire mondiale des maquis,* Ed. France-Empire (1970).
CHARLIER Jean-Michel et DEMARET Pierre, *Hoover, le grand patron du fameux F.B.I., la main de fer qui a tenu six présidents américains,* Ed. Robert Laffont (1976).
CHAUVEL Jean-François, *La Grèce à l'ombre des épées,* Ed. Robert Laffont (1968).
CHOME Jules, *L'ascension de Mobutu ; Du sergent Désiré Joseph au général Sese Seko,* Ed. François Maspero (1979).
CHOMSKY Noam, *L'Amérique et ses nouveaux mandarins,* traduit de l'américain, Ed. du Seuil (1969).
CHOMSKY Noam et HERMAN Edward S., *Counter-revolutionary violence : Bloodbaths in fact and propaganda,* Ed. Warner Modular Publication (1973). Traduction française : *Bains de sang constructifs dans les faits et la propagande,* précédé de *L'Archipel Bloodbath* par Jean-Pierre FAYE, Ed. Seghers - Laffont (1975).
CIA (La) ? Que es ? Que hace en America Latina ? Ediciones "Voz Latinoamericana" (Buenos Aires, 1974).
CLINE Ray S., *Secrets, Spies and Scholars,* Ed. Acropolis Books Ltd. (Washington, 1976).
COLBY William, *Honorable Men ; My Life in the C.I.A.,* Ed. Simon & Schuster (New York, 1978). Traduction française : *30 ans de C.I.A.,* Ed. Presses de la Renaissance (Paris, 1978).
COLSON Charles W., *Born Again,* Ed. Chosen Books Inc. - Fleming H. Revell Co. (New York, 1976). Traduction française : *Watergate ; Né à une vie nouvelle ; Ma vie avec Nixon et après,* Ed. Trobisch (Kehl, 1979).
COMBLIN Joseph, *Le pouvoir militaire en Amérique latine ; L'idéologie de la Sécurité nationale,* Ed. Jean-Pierre Delarge (Paris, 1977).
Complots de la C.I.A. (Les), documents réunis et présentés par David Antonel, Alain Jaubert et Lucien Kovalson, Ed. Stock (1976).
CONTENTE Jean, *L'aigle des Caraïbes,* Ed. Robert Laffont (1978).
COOK Fred J., *The Warfare State,* Ed. Macmillan (New York, 1962). Traduction française : *Les Vautours de la Guerre froide ; Etude sur le militarisme américain,* Ed. Julliard (1964).
COOK Fred J., *The FBI nobody knows,* Ed. The Macmillan Company (New York, 1964). Traduction française : *Le F.B.I. inconnu,* Ed. Denoël (1966).
COOKRIDGE E. H., *The Third Man ; The truth about "Kim" Philby, double agent,* Ed. Arthur Baker Ltd, (Londres). Traduction française : *La vérité sur Philby, l'agent double du siècle,* Ed. Fayard (1968).
COPELAND Miles, *Without Cloak or Dagger ; The Truth About New Espionage,* Ed. Simon & Schuster (New York, 1974).

COPELAND Milles, *The Game of Nations ; The Amorality of Power Politics*, Ed. Weidenfeld & Nicolson (Londres, 1969).
CORSON William R., *The Armies of Ignorance ; The Rise of the American Intelligence Empire*, Ed. The Dial Press/James Wade (New York, 1977).
COUBARD Jacques, *Mikis Théodorakis ou la Grèce entre le rêve et le cauchemar*, Ed. Julliard (1969).
COUBARD Jacques, *Nasser*, Editeurs Français Réunis/Livre-Club Diderot (1974).
CROUZET Maurice, *Le monde depuis 1945*, Ed. Presses Universitaires de France (1973).
CUMMINGS Edward Estlin, *Indignes paquets d'expression ; Lettres 1899-1962*, Edition originale : Harcourt, Brace & World, Inc. (New York, 1969). Traduction française : Mercure de France (1975).
DAN Uri et PORAT Ben, *Poker d'espions à Tel-Aviv et au Caire*, Ed. Fayard (1970).
DEACON Richard, *A History of the Chinese Secret Service*, Ed. Frederick Muller (Londres, 1974). Traduction française : *Les services secrets chinois*. Ed. Plon (1976).
DEACON Richard, *A History of the Britisch Secret Service*, Ed. Frederick Muller Ltd. (Londres). Traduction française : *Histoire des services secrets britanniques*. Ed. Buchet-Chastel (1976).
DEAN John W., *Blind Ambition*. Ed. Simon & Schuster (New York, 1979).
DERIABINE Pierre et GIBNEY Frank, *The Secret World*. Traduction française : *Policier de Staline*, Ed. Fayard (1966).
DEROGY Jacques et CARMEL Hesi, *Histoire secrète d'Israël ; 1917-1977*, Ed. Olivier Orban (1978).
DESANTI Dominique, *Masques et visages de Tito et des siens*, Ed. du Pavillon (1949).
DESJARDINS Thierry, *Les rebelles d'aujourd'hui*, Ed. Presses de la Cité (1977).
DEVILLERS Philippe et LACOUTURE Jean, *Vietnam, de la guerre française à la guerre américaine*, Ed. du Seuil (1969).
DONOVAN James, *Strangers on a bridge ; The Case of Colonel Abel*, Ed. Atheneum House, Inc. (U.S.A., 1964). Traduction française : *L'affaire Abel*, Ed. Fayard (1965).
« Dossier » Carlucci - CIA, Ediçôes « Avante » (Lisbonne, 1977).
DUGAN James et STEWART Carroll, *Opération « Raz de Marée » sur les pétroles de Ploesti*, traduit de l'anglais, Ed. J'ai Lu (1964).
DULLES Allen W., *Great True Spy Stories* (New York, 1968). Traduction française : *Les grandes histoires d'espionnage*, Ed. Stock (1969).
DULLES Allen W., *The Secret Surrender*, Ed. Harper & Row (New York, 1966). Traduction française : *Les secrets d'une reddition*, Ed. Calmann-Lévy (1967).
DULLES Allen W., *The Craft of Intelligence*, Ed. Harper & Row (New York, 1963). Traduction française : *La technique du renseignement*, Ed. Robert Laffont (1964).
DULLES Allen W., *Germany's Underground*, Ed. The Macmillan Company (New York, 1947). Traduction française : *L'Allemagne souterraine*, Ed. des Trois-Collines (Genève-Paris, 1947).
DVORNIK Francis, *Origines of Intelligence Services ; The Ancient Near East, Persia, Greece, Rome, Byzantium, the Arab Muslim Empires, the Mongol Empire, China, Muscovy*, Ed. Rutgers University Press (New Brunswick, New Jersey, 1974).
EDWARDS Robert et DUNNE Kenneth, *A Study of a Master Spy*, Ed. Housemans (Londres, 1961).
EHRLICHMAN John, *The Company*, Ed. Simon & Schuster Inc, (New York, 1976). Traduction française : *La « Compagnie »*, Ed. Fayard (1977).
EHRLICHMAN John, *The Whole Truth*, Ed. Simon & Schuster, (New York, 1979).

EISENBERG Dennis, DAN Uri et LANDAU Eli, *Mossad ; les services secrets israe' ..s,* traduit de l'anglais, Editions Internationales Alain Stanké (Ottawa, 1977).
ELY (Général d'Armée) Paul, *Mémoires,* tome I : *L'Indochine dans la tourmente,* Ed. Plon (1964).
EPSTEIN Edward Jay, *Legend, The Secret World of Lee Harvey Oswald,* Ed. Arrow Books Ltd. (Londres, 1978).
EYTAN Steve, *L'œil de Tel-Aviv,* Edition Spéciale (Paris, 1970).
FAENZA Roberto et FINI Marco, *Gli Americani in Italia,* Ed. Feltrinelli (Milan, 1976).
FALLACI Oriana, *Intervista con la Storia,* Ed. Biblioteca Universale Rizzoli (Milan, 1977). Traduction française : *Entretiens avec l'histoire,* Ed. Flammarion (1975).
FARAGO Ladislas, *The Game of the Foxes,* Ed. Hodder & Stoughton (Londres, Sydney, Auckland, Toronto, 1971)., Ed. David McKay Company Inc. (New York, 1971). Edition française : *La guerre des grands espions ; un jeu de renards,* Ed. Stock (1971).
FARAGO Ladislas, *War of Wits,* traduit de l'américain. Edition française : *Les secrets de l'espionnage,* Ed. Presses de la Cité (1955).
FELIX Christopher, *Manuel de la guerre secrète ; l'espionnage en neuf leçons,* traduit de l'anglais, Ed. Gallimard (1964).
FERNEZ André, *Les coulisses de l'espionnage,* Ed. Marabout Junior (Verviers, 1964).
FOOT M.R.D., *Resistance,* Ed. Paladin, Granada Publishing (Londres, Toronto, Sidney, New York, 1978).
FOURNIER Nicolas et LEGRAND Edmond, *Dossier E... comme Espionnage,* Ed. Alain Moreau (1978).
FRENEY Denis, *The CIA's Australian connection,* chez l'auteur (Sydney, 1977).
GAMBOA GUZMAN Francisco, *Costa Rica, de la flibuste au pentagone,* Editions sociales (1973).
GHEYSENS Roger et DE LAUNAY Jacques, *Histoire de la guerre psychologique et secrète, 1939-1963,* Ed. Rencontre (Lausanne, 1970).
GHEYSENS Roger et DE LAUNAY Jacques, *Les grands espions de notre temps,* Ed. Hachette (1971).
GHEYSENS Roger, *Aventuriers de l'histoire, les espions,* Ed. Elsevier Séquoïa (Bruxelles, 1973).
GHEYSENS Roger, MORDAL Jacques, CHEVALLAZ Georges-André et DE LAUNAY Jacques, *Dossiers de la guerre froide,* Ed. Marabout-Université (1969).
GILLES Camille, *400 000 dollars pour abattre Kennedy à Paris,* Ed. Julliard (1973).
GONZALEZ-MATA Luis Manuel, *Cygne,* Ed. Grasset (1976).
GONZALEZ-MATA Luis Manuel, *Terrorismo Internacional,* Ed. Libreria Editorial Argos S.A. (Barcelone, 1978).
GONZALEZ-MATA Luis Manuel, *Les vrais maîtres du monde,* Ed. Grasset (1979).
GOSSET Pierre et Renée, *Richard Nixon, le mal aimé,* Ed. Juilliard (1972).
GRAMONT Sanche de, *The Secret War,* Ed. G.-P. Putnam's Sons Inc. (New York, 1962). Traduction française . *La guerre secrète,* Ed. Robert Laffont (1962).
GRAS Yves Général, *Histoire de la Guerre d'Indochine,* Ed. Plon (1979).
GREENE Graham, *The Quiet American,* chez plusieurs éditeurs aux Etats-Unis et en Grande-Bretagne, à partir de 1955. Traduction française : *Un Américain bien tranquille,* Ed. Robert Laffont (1956).
GREENE Graham, *Collected Essays,* Ed. Bodley Head (Londres, 1969). Traduction française : *Essais,* Ed. Robert Laffont (1975).
HALBERSTAM David, *The Best and the Brightest,* Ed. Random House (New York, 1969). Traduction française : *On les disait les meilleurs et les plus intelligents,* Ed. Robert Laffont/Hachette Littérature (1974).
HALDEMAN Harold Robbins, *The Ends of Power,* Ed. Times Books (New York, 1978).

HALL Roger, *You're Stepping on my Cloak and Dagger,* traduit de l'américain. Traduction française : *Les paras terribles,* Ed. Fayard (1964).

HALPERIN Morton H., BERMAN Jerry J., BOROSAGE Robert L. et MARWICK Christine M., *The Lawless State ; The Crimes of the U.S. Intelligence Agencies,* Ed. Penguin Books (New York, 1976).

HEIKAL Mohamed Hassanein, *The Cairo Documents,* Ed. The Daily Telegraph (Londres, 1971). Traduction française : *Les documents du Caire,* Ed. Flammarion(1972).

HEVIA COSCULLUELA Manuel, *Pasaporte 11333 ; Ocho anos con la CIA,* Editorial de Ciencias Sociales (La Havane, 1978).

HIGGINS George V., *The Friends of Richard Nixon,* Ed. Ballantine Books (New York, 1976).

HINGLEY Ronald, *The Russian Secret Police ; Muscovite, Imperial Russian and Soviet Political Security Operations - 1565-1970,* Ed. Hutchinson of London(Londres, 1970). Traduction française : *La police secrète russe ; l'action de la Sécurité Politique moscovite, impériale et soviétique - 1565-1970,* Ed. Albin Michel(1972).

HONORIN Michel, *La fin des mercenaires,* Ed. Robert Laffont (1968).

HOROWITZ Irving Louis, *Ideology and Utopia in the United States, 1956-1976,* Ed. Oxford University Press (Londres, Oxford, New York, 1977).

HOUGAN Jim, *Spooks ; The Private Use of Secret Agents,* Ed. W.H. Allen - A Howard and Wyndham Company (Londres, 1979). Traduction française : *Spooks,* Ed. Flammarion (1979).

HOVEYDA Fereydoun, *The Fall of the Shah,* Ed. Weidenfeld Ltd. (Londres, 1979). Traduction française : *La chute du Chah,* Ed. Buchet-Chastel (1980).

HUNT Everette Howard, *Give Us This Day,* Ed. Arlington House (New Rochelle, N.Y., 1973).

HUNT Everette Howard, *Undercover - Memoirs of an American Secret Agent,* Ed. Berkley Publishing Corporation/G.P. Putnam's Sons (U.S.A., 1974).

HUTTON J. Bernard, *School for Spies,* traduit de l'anglais. Traduction française : *L'école des espions,* Ed. Presses de la Cité (1962).

IND Allison (colonel), *A short history of espionage,* trad. de l'anglais. Traduction française : *Espions d'aujourd'hui,* Ed. Fayard (1966).

JACQUIN Henri, *La guerre secrète en Indochine,* Ed. Olivier Orban (1979).

JAWORSKI Leon, *Confession and Avoidance ; A Memoir,* Ed. Anchor Press/Doubleday (New York, 1979).

JEFFREYS-JONES Rhodri, *American Espionage ; From Secret Service to CIA,* Ed. The Free Press ; A division of Macmillan Publishing Co., Inc. (New York), Ed. Collier Macmillan Publishers (Londres, 1977).

JOESTEN Joachim, *They call it Intelligence : Spies and spy techniques since World War II,* Ed. Abelard - Schumann (Londres et New York, 1963). Traduction française : *L'espionnage aux rayons X,* Ed. Presses de la Cité (1964).

JULIEN Claude, *L'empire américain,* Ed. Grasset (1968).

JULIEN Claude, *Le rêve et l'histoire ; deux siècles d'Amérique,* Ed. Grasset (1976).

KAPLAN Karel, *Dans les archives du Comité central ; trente ans de secrets du Bloc soviétique,* Ed. Albin Michel (1978).

KIMCHE John, *Spying for Peace,* Ed. Weidenfeld et Nicolson (Londres, 1961). Traduction française : *Un général suisse contre Hitler,* Ed. Fayard (1962).

KIRKPATRICK (Jr.) Lyman B., *The U.S. Intelligence Community : Foreign Policy and Domestic Activities,* Ed. Hill & Wang, A division of Farrar, Straus & Giroux (New York, 1973).

KISSINGER Henry, *White House Years,* Ed. Little, Brown & Co. (Boston, 1979). Traduction française : *A la Maison-Blanche, 1968-1973,* Ed. Fayard (1979).

KLARE Michael T., *Supplying Repression,* Ed. The Field Foundation (New York, 1977).

KLARE Michael T., *War Without End ; American Planning for the Next Vietnam,* Ed. Alfred A. Knopf (New York, 1972).
KNIGHTLEY Phillip, LEITCH David et PAGE Bruce, *Philby,* Ed. Times Newspapers Ltd. (Londres, 1968). Traduction française : *Philby ; l'Intelligence Service aux mains d'un agent soviétique,* Ed. Robert Laffont (1968).
KROES Claude, *Watergate... Série noire pour la Maison Blanche,* Editions sociales (1974).
LACKNER Helen, *A House built on Sand ; A political economy of Saudi Arabia,* Ed. Ithaca Press (Londres, 1978).
LACOUTURE Jean et TISSOT Henri, *L'histoire universelle depuis 1939,* Ed. Robert Laffont/Grammont (1975).
LAMOUR Catherine et LAMBERTI Michel R., *Les grandes manœuvres de l'opium,* Ed. du Seuil (1972).
LAMOUR Catherine, *Enquête sur une armée secrète,* Ed, du Seuil (1975).
LANE Sheldon, *Le jeu de l'espionnage,* traduit de l'anglais. Ed. de la Pensée Moderne (Paris, 1968).
LANGER William L., *Our Vichy Gamble.* Traduction française : *Le jeu américain à Vichy,* Ed. Plon (1948).
LANSDALE Edward G., *In the Midst of War : An American's Mission to Southeast Asia,* Ed. Harper & Row (New York, San Francisco, Londres, 1972).
LARTEGUY Jean, *Un million de dollars le Viet,* Ed. Raoul Solar (1965).
LAURENT Frédéric, *L'orchestre noir,* Ed. Stock (1978).
LAZITCH Branko, *Le Rapport Khrouchtchev et son histoire,* Ed. du Seuil (1976).
LE VAN CHAT, *Guerre non déclarée au Sud-Vietnam,* Editions en Langues Etrangères (Hanoï, 1962).
LEDERER William J. et BURDICK Eugene, *The Ugly American,* Ed. Norton (New York, 1958). Traduction française : *Le vilain Américain,* Ed. Robert Laffont (1961).
LE QUANG Gérard, *La guerre américaine d'Indochine ; 1964-1973,* Editions Universitaires (Paris, 1973).
LEROY Jean (Colonel), *Fils de la rizière,* Ed. Robert Laffont (1977).
LEWIS Flora, *Red Pawn ; The Man who Disappeared : The Strange Story of Noël Field,* Ed. Arthur Barker Ltd. (Londres, 1966). Traduction française : *Pion rouge . L'histoire de Noël Field,* Ed. Gallimard (1967).
LIDDY G. Gordon, *Will,* Ed. St. Martin's Press (Etats-Unis, 1980).
LITAN Jan, *Pozegnanie ze szpiegiem Ostat niz Zeppelina,* Ed. Mon-Verlag (Varsovie, 1962). Traduction allemande : *Begegnung mit Spionen,* Ed. Deutscher Militärverlag (Berlin, 1966).
LONDON Artur, *L'aveu ; Dans l'engrenage du procès de Prague,* Ed. Gallimard (1968).
LOVELL Stanley P., *Of Spies and Stratagems,* Ed. Prentice - Hall Inc. (Englewood Cliffs, N.J., 1963). Traduction française : *Opération Services Secrets - O.S.S.,* Ed. Mondiales - Del Duca (Paris, 1963).
MAC CARTHY Mary, *Watergate,* traduit de l'anglais, Traduction française : Watergate ; La tragédie de l'Amérique, Ed. Gallimard (1974).
MAC COY Alfred W., *The Politics of Heroin in Southeast Asia,* Ed. Harper & Row (New York, San Francisco, Londres, 1972).
MAC GARVEY Patrick J., *C.I.A., The Myth and the Madness,* Ed. Penguin Books Inc. (Baltimore, Maryl., 1974).
MANCHESTER William, *The Death of a President,* Ed. Harper & Row (New York, 1967). Traduction française : *Mort d'un Président (20-25 novembre 1963),* Ed. Robert Laffont (1967).
MANCHESTER William, *The Glory and the Dream,* Ed. Little, Brown & Co. (Boston, 1973). Traduction française : *La splendeur et le rêve ; Histoire de l'Amérique contemporaine* (2 vol.), Ed. Robert Laffont (1976).
MARCHETTI Victor et MARKS John D., *The C.I.A. and the Cult of Intelligence,*

Ed. Alfred A. Knopf (New York, 1974). Traduction française : *La C.I.A. et le culte du Renseignement,* Ed. Robert Laffont (1975).

MARKS John, *The CIA's Corporate Shell Game,* Ed. Center for National Security Studies (Washington, 1976).

MARKS John, *The Search for the « Manchurian Candidate » ; The C.I.A. and Mind Control,* Ed. Times Books (New York, 1979). Traduction française : *Main basse sur les cerveaux,* Ed. Alta (Paris, 1979).

MENNEVÉE Roger, *Les services secrets américains en Europe centrale et orientale ; l'espionnage américain dans les pays satellites de l'U.R.S.S.(1945-1960),* Ed. Les Documents politiques, diplomatiques et financiers (Paris, 1960).

MOISY Claude, *L'Amérique sous les armes,* Ed. du Seuil (1971).

MILLER Merle, *Plain Speaking : Conversations with Harry S. Truman,* Ed. Gollancz (Londres, 1974).

MOREAU Emilienne, *La Guerre Buissonnière ; Une famille française dans la Résistance,* Ed. Raoul Solar (Paris, 1970).

MORRIS Roger, *Uncertain Greatness ; Henry Kissinger and American Foreign Policy,* Ed. Quartet Books (Londres, Melbourne, New York, 1977).

MOSLEY Leonard, *Dulles : a Biography of Eleanor, Allen and John Foster Dulles and Their Family Network,* Ed. Hodder & Stoughton (Londres, 1978).

MUNVES James, *The F.B.I. and the C.I.A. ; Secret Agents and American Democracy,* Ed. Harcourt Brace Jovanovich (New York, Londres, 1975).

MYAGKOV Alexis, *Inside the K.G.B.,* Ed. Foreign Affairs Publishing Co. Ltd. (Londres). Traduction française : *Un officier du KGB parle...,* Ed. Albatros (Paris,1977).

NACLA Handbook : *The U.S. Military Apparatus,* Ed. The North American Congress on Latin America (Berkeley, Cal., New York, 1972).

NEIER Aryeh, *Dossier : The Secret Files They Keep on You,* Ed. Stein & Day (New York, 1975).

NIEDERGANG Marcel, *Les 20 Amériques latines* (3 vol.), Ed. du Seuil (1969).

NIEDERGANG Marcel, *La révolution de Saint-Domingue,* Ed. Le Cercle du Nouveau Livre d'Histoire (Paris, 1966).

NIXON Richard, *The Memoirs of Richard Nixon,* Ed. Warner Books Inc., Grosset & Dunlap (New York, 1978). Traduction française : *Mémoires,* Editions Internationales Alain Stanké (Paris, Montréal, 1978).

NORD Pierre et BERGIER Jacques, *L'actuelle guerre secrète,* Ed. Encyclopédie Planète (1967).

O'TOOLE George, *The Assassination Tapes ; An electronic probe into the murder of John F. Kennedy and the Dallas Coverup,* Ed. Penthouse Press Ltd. (New York, 1975).

Ombre de l'ambassade américaine (A l') Editions Giai Phong (s.l., 1973).

OPTON Edward M. (Jr.) et SCHEFLIN Alan W., *The Mind Manipulators,* Ed. Paddington Press (1978). Traduction française : *L'homme programmé ; Les nouvelles armes des manipulateurs de cerveau,* Editions Internationales Alain Stanké(Paris,Ottawa, 1978).

PAHLAVI Mohammad Reza, *Réponse à l'Histoire,* Ed. Albin Michel (1979).

PARRI Ferruccio, *Due mesi con i nazisti,* Ed. Carecas (Rome, 1973).

PASTOR-PETIT Domingo, *Anatomia del Espionage.* (1970). Traduction française : *L'espionnage,* Ed. René Julliard (1973).

Pentagon Papers (The), Ed. A Bentam Book (New York, 1971). Traduction française : *Le dossier du Pentagone,* Ed. Albin Michel (1971).

Pentagone (Les vrais et les faux secrets du) ; documents, Ed. Le Courrier du Viet Nam (Hanoï, 1971).

PERRAULT Gilles, *C.I.A. : du service secret au gouvernement invisible* (conférence). Ed. Le Pavillon/Roger Maria Editeur (Paris, 1970).

PETRUSENKO Vitaly. *A Dangerous Game : CIA and the Mass Media,* Ed. Interpress (Prague, s.d).

PHELAN James, *Howard Hughes, les années cachées,* Editions Internationales Alain Stanké (Montréal, 1976). Edition originale, Random House Inc. (New York,1976).

PHILBY Eleanor, *Kim Philby, The Spy I Loved,* traduit de l'anglais, Traduction française : *Femme d'espion,* Ed. Presses de la Cité (1968).

PHILBY Kim, *My Silent War,* Ed. Grove Press (Londres, 1968). Traduction française : *Ma guerre silencieuse,* Ed. Robert Laffont (1968).

PHILLIPS David Atlee, *The Night Watch ; 25 Years Inside the CIA,* Ed. Robert Hale (Londres, 1978).

PIEKALKIEWICZ Janusz, *Israëls langer Arm,* Ed. Fischer Verlag (Francfort-sur-le-Main, 1975). Traduction française : *Israël a le bras long ; les services secrets d'Israël,* Ed. Jacques Grancher/Pensée Moderne (Paris, 1977).

Pike Report (CIA) (The), Ed. Spokesman Books (Nottingham/G.B., 1977).

POMEROY William J., *The Forest,* Ed. International Publishers (New York, 1962). Traduction française : *Les Huks ; dans la forêt des Philippines,* Ed. François Maspero (1968).

PONCINS Léon de, *Espions soviétiques dans le monde,* Ed. Nouvelles Editions Latines (1961).

POWERS Francis Gary, *Operation Overflight,* Ed. Holt (New York, 1970). Traduction française : *J'étais pilote espion,* Ed. Calmann-Lévy (1971).

POWERS Thomas, *The Man who Kept the Secrets ; Richard Helms and the CIA,* Ed. Alfred A. Knopf (New York, 1979).

PROUTY L. Fletcher, *The Secret Team,* Ed. Prentice - Hall Inc. (Englewood Cliffs, N.J., 1973).

PUJOL Alain, *Dictionnaire de l'Espion,* Ed. Raoul Solar (1965).

RABIN Jacques et OVADIA Jacques, *Elie Cohen, l'espion de Damas,* Ed. Flammarion (1967).

RANCOURT Denis, *C.I.A. : Les services secrets américains,* Editions Internationales Alain Stanké (Montréal, 1978).

RANSOM Harry Howe, *The Intelligence Establishment,* Ed. Harvard University Press (Cambridge, Mass., 1970).

RAPHAEL-LEYGUES Jacques, *Ponts de lianes ; Missions en Indochine, 1945-1954,* Ed. Hachette (1976).

RAY Ellen, SCHAAP William, VAN METER Karl, WOLF Louis, *Dirty Work 2 - The C.I.A. in Africa,* Ed. Lyle Stuart Inc. (Secaucus, N.J., 1980).

RIENCOURT Amaury de, *The American Empire,* Ed. Dial Press Inc. (New York, 1968). Traduction française : *L'Amérique impériale,* Ed. Gallimard (1970).

ROMULO Carlos P. et GRAY Marvin M., *The Magsaysay Story,* Ed. The John Day Company (New York, 1956). Traduction française : *Ramon Magsaysay, président des Philippines ; Bâtir une nation,* Ed. Istra - Nouveaux Horizons (Strasbourg,Paris, 1962).

ROSITZKE Harry, *The C.I.A.'s Secret Operations,* Ed. Reader's Digest Press (New York, 1977). Traduction française : *C.I.A. ; 25 ans au sein de l'agence américaine d'espionnage,* Ed. Elsevier Sequoïa (Paris, Bruxelles, 1978).

SAMPSON Anthony, *The Sovereign State ; The Secret History of ITT,* Ed. Coronet Books (Londres, 1977). Traduction française : *I.T.T., l'Etat souverain,* Ed. Alain Moreau (1973).

SAUVAGE Léo, *Le cas Guevara,* Ed. de la Table Ronde (1971).

SAUVAGE Léo, *L'énigme Nixon ; comment en est-on arrivé là ?,* Ed. Elsevier Séquoïa (Paris, Bruxelles, 1975).

SCHELL Jonathan, *The Time of Illusion,* Ed. Alfred A. Knopf (New York, 1976).

SCHLESINGER (Jr.) Arthur M., *A Thousand Days ; John F. Kennedy in the White House,* Ed. Houghton Mifflin Company (New York, 1965). Traduction française : *Les 1 000 jours de Kennedy,* Ed. Denoël (1966).

SCHLESINGER (Jr.) Arthur M., *The imperial presidency,* Ed. Houghton Mifflin

(New York, 1973). Traduction française : *La Présidence Impériale,* Ed. Presses Universitaires de France (1976).

SCHLESINGER (Jr.) Arthur M., *Robert Kennedy and his times,* Ed. Houghton Mifflin Company (New York, 1978). Traduction française : *Robert Kennedy et son temps,* Ed. Olivier Orban (1979).

SCOTT Peter Dale, HOCH Paul L. et STETLER Russell, *The Assassinations ; Dallas and Beyond ; A guide to Cover-ups and Investigations,* Ed. Penguin Books (Londres, New York, etc., 1978).

SÉRANT Paul, *Les vaincus de la Libération,* Ed. Robert Laffont (1964).

SHAPLEN Robert, *The Lost Revolution : Vietnam 1945-1965,* Ed. Andre Deutsch Ltd. (Londres, 1966).

SHAPLEN Robert, *The Road from War ; Vietnam 1965-1970,* Ed. Andre Deutsch Ltd, (Londres, 1970).

SHAWCROSS William, *Sideshow ; Kissinger, Nixon and the Destruction of Cambodia,* Ed. Andre Deutsch Ltd. (Londres, 1979). Traduction française : *Une tragédie sans importance ; Kissinger, Nixon et l'anéantissement du Cambodge,* Ed. Balland/France Adel (1979).

SILVA Peer de, *Sub rosa - The CIA and the uses of intelligence,* Ed. Times Books (New York, 1978).

SINGER Kurt, *Spy Omnibus,* traduit de l'anglais. Traduction française : *Omnibus pour l'espionnage,* Ed. Marabout Géant (Verviers, 1963).

SMITH Joseph Burckholder, *Portrait of a Cold Warrior,* Ed. Putnam's Sons (New York, 1976).

SMITH R. Harris, *OSS ; The Secret History of America's First Central Intelligence Agency,* Ed. University of California Press (Berkeley, Los Angeles, Londres, 1972).

SNEPP Frank, *Decent Interval ; An Insider's Account of Saigon's Indecent End Told by the CIA's Chief Strategy Analyst in Vietnam,* Ed. Random House Inc.(New York, 1977). Traduction française : *Sauve qui peut ; La chute de Saïgon et la fuite des Américains racontée par un haut responsable de la C.I.A. au Vietnam,* Ed. Balland/France Adel (1979).

STEEL Ronald, *Pax Americana ; The cold war empire and the politics of counterrevolution,* Ed. Penguin Books (New York, 1977).

STEVEN Stewart, *Operation Splinter Factor,* Ed. Hodder & Stoughton (Londres, 1974). Traduction française : *Le Grand Piège,* Ed. Robert Laffont (1976).

STEVENSON William, *A Man Called Intrepid,* Ed. Harcourt, Brace, Jovanovich Publishers (New York, 1976). Traduction française : *Nom de code : Intrepid,* Ed. l'Etincelle (Paris, 1979).

STOCKWELL John, *In Search of Enemies ; A CIA Story,* Ed. W.W. Norton & Co. Inc. (New York, 1978).

STRONG (Major-General Sir) Kenneth, *Men of Intelligence ; A Study of the Roles and Decisions of Chiefs of Intelligence from World War I to the present day,* Ed. Giniger Books/Cassel (Londres, 1970).

SUAREZ Gonzalo, *Doble Dos ; L'espion qui ébranla le franquisme,* Ed. Gallimard (1978).

Subversion in Chile : a case study in U.S. corporate intrigue in the Third World ; ITT - CIA, Ed. Spokesman Books/The Bertrand Russell Peace Foundation Ltd. (Nottingham, G.B., 1972).

SULZBERGER Cyrus L., *A Long Row of Candles ; Memoirs and Diaries (1934-1954),* Ed. The Macmillan Company (New York, 1969). Traduction française : *Dans le tourbillon de l'Histoire ; Mémoires,* Ed. Albin Michel (1971).

SULZBERGER Cyrus L., *The Last of the Giants ; Memoirs and Diaries (1954-1963),* Ed. The Macmillan Company (New York, 1970). Traduction française : *Les derniers des géants ; Mémoires,* Ed. Albin Michel (1972).

SUTTON Nina, *Watergate Story,* Ed. Stock (1974).

TABER Robert, *The War of the Flea ; Guerilla Warfare, Theory and Practice,* Ed. Paladin (Londres, 1972). Traduction française : *La guerre de la puce ; Stratégie de la guerre de guérilla,* Ed. Julliard (1969).

TEULIERES André, *La guerre du Vietnam (1945-1975 ; le conflit vietminh et sa suite américaine)* Ed. Lavauzelle (Paris, Limoges, 1978).

TIET Tran-Minh, *Les relations américano-vietnamiennes de Kennedy à Nixon* (3 vol.), Nouvelles Editions Latines (1971).

T.K., *Pays sans lumière ni air ; Lettres de Corée du Sud,* Editions en Langues Etrangères (Pyongyang, 1979).

TOLEDANO Ralph de, *Spies, dupes and diplomats,* Ed. Duell, Soan & Pearce (New York) et Little, Brown & Co. (Boston, 1952).

TORRES Pablo, *La contre-insurrection et la guerre révolutionnaire,* Ed. de l'Herne (Paris, 1971).

TRINQUIER Roger (Colonel), *La guerre moderne,* Ed. de la Table ronde (1961).

TRINQUIER Roger (Colonel), *Guerre, subversion, révolution,* (Ed. Robert Laffont (1968).

TRINQUIER Roger (Colonel), *Les maquis d'Indochine (1952-1954),* Ed. Albatros (Paris, 1976).

TRINQUIER Roger (Colonel), *Le temps perdu,* Ed. Albin Michel (1978).

TSOUCALAS Constantin, *The Greek Tragedy,* Ed. Penguin Books Ltd. (Harmondsworth, G.B., 1969). Traduction française : *La Grèce, de l'indépendance aux colonels,* Ed. François Maspero (1970).

TULLY Andrew, *C.I.A., the inside story,* Ed. William Morrow & Co. (New York, 1962). Traduction française : *C.I.A., Central Intelligence Agency,* Ed. Stock (1962).

TULLY Andrew, *Superspies,* Ed. Paperback Boocks. Traduction française : *Les super-espions,* Ed. Le Cercle du Nouveau Livre d'Histoire (Paris, 1970).

United Fruit Company : un caso del dominio imperialista en Cuba, Editorial de Ciencias Sociales (La Havane, 1976).

UNGAR Sanford J., *FBI ; An Uncensored Look Behind the Walls,* Ed. Little, Brown & Co. (Boston, Toronto, 1976).

VEYRIER Marcel, *Tito et la Révolution,* Ed. Julliard (1974).

VILE M.J.C., *Politics in U.S.A.* (1970). Traduction française : *Le régime des Etats-Unis,* Ed. du Seuil (1972).

VILLEMAREST Pierre Faillant de, *L'Espionnage soviétique en France, 1944-1969,* Nouvelles Editions Latines (1969).

VILLEMAREST Pierre Faillant de, *Exploits et bavures de l'espionnage américain* (3 vol.), Ed. Famot (Genève, 1978).

YERGIN Daniel, *Shattered peace,* Ed. Houghton Mifflin Company (Boston, 1977). Traduction française : *La paix saccagée ; Les origines de la guerre froide et la division de l'Europe,* Ed. Balland/France Adel (1980).

WALTERS Vernon A., *Silent Missions,* Ed. Doubleday & Co, Inc. (New York, 1978). Traduction française : *Services discrets,* Ed. Plon (1979).

WALTON Richard J., *Cold War and Counter-Revolution ; The Foreign Policy of John F. Kennedy,* Ed. The Viking Press (New York, 1972).

WHITE Theodore H., *Breach of Faith ; The Fall of Richard Nixon,* Ed. Atheneum Publishers (New York, 1975). Traduction française : *Forfaiture à la Maison Blanche,* Ed. Fayard (1976).

WISE David et ROSS Thomas B., *The Invisible Government,* Ed. Random House (New York, 1964). Traduction française : *Le gouvernement secret des U.S.A.,* Ed. Fayard (1966).

WISE David et ROSS Thomas B., *The Espionage Establishment,* Ed. Random House (New York, 1967). Traduction française : *Activité : espionnage,* Ed. Les Presses de la Cité (1968).

WISE David, *The Politics of Lying ; Government Deception, Secrecy and Power,*

Ed. Vintage Books ; A Division of Random House (New York, 1973).
WISE David, *The American Police State ; The Government Against the People,* Ed. Random House (New York, 1976).
WYNNE Greville, *The Man from Moscow* (Londres, 1967). Traduction française : *L'homme de Moscou,* Ed. Fayard (1971).

الفهـــرس

. . . ففي رواية عن الإرهاب و « الأجهـزة السريـة » طلـب السينائي الاسباني غونزلو سواريز من أحد أبطالـه القـول: « لا يستطيع أحد وقف الماكينة . لا يستطيع أحد إيقافها . . » . وأضاف معلّقاً: « بكـل تـأكيـد كـان يلمّح إلى وكـالـة الاستخبـاراتِ المركزية، فلا أحد يذكر، أنه سمع منه: الكلمة السحرية المؤلفة من الأحرف الأولى لاسم هذه المنظمة الشهيرة . . » .

وعلى هذا النحو، فإن فرنسيس غاري باور، قـائـد طـائـرة التجسس « يو ـ ٢ » التي أسقطت بصـاروخ فـوق أراضي الاتحاد السوفياتي . وأثار سقوطها أزمة عالمية في أيار من سنة ١٩٦٠ . . . روى في كتابه كيفية تجنيده فقال: « خلال كل هذه الأحاديث، حصل مرات عديدة، في البداية على الأقل، أن ذكرت وكالة الاستخبارات المركزية بالاسم، وكل مرة كنت أرى كولين يشير إليّ منبهاً . فهو بالذات، شأنه شأن الآخريـن، كـانـوا عنـدمـا يلمحـون إليهـا، يستخـدمـون غـالبـاً كلمـة « الحكـومـة » أو من حيث لا أدري انتهيت إلى نفس العادة . . . ثم